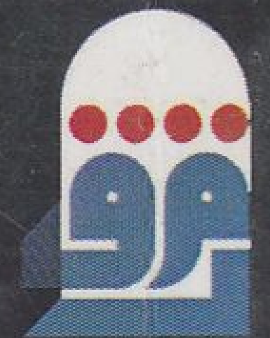
المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

بدرو لونغاس

حياة المورسكيين الدينية

ترجمة وتقديم

جمال عبدالرحمن

1628

حياة الموريسكيين الدينية

المركز القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد 1628
- حياة الموريسكيين الدينية
- بدرو لونغاس
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

VIDA RELIGIOSA DE LOS MORISCOS

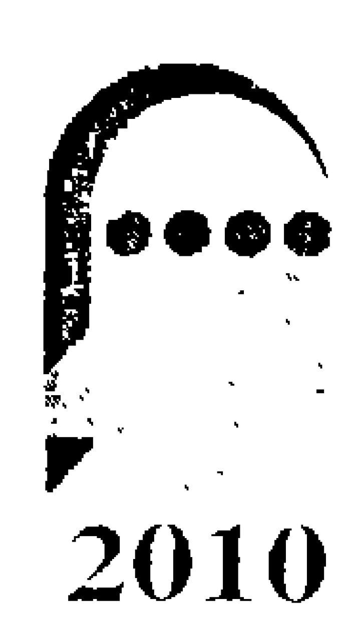
Por: PEDRO LONGAS BARTIBAS

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo.
E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com **Tel.:** 27354524 - 27354526 **Fax:** 27354554

حياة الموريسكيين الدينية

تأليف : بدرو لونغاس
ترجمة وتقديم: جمال عبد الرحمن



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

لونغاس؛ بدرو
حياة الموريسكيين الدينية؛ تأليف: بدرو لونغاس؛
ترجمة وتقديم: جمال عبد الرحمن
ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠
٢٨٨ص؛ ٢٤ سم
١- الأدب العربى الدينى
٢- الأندلس - تاريخ
(أ) عبد الرحمن، جمال (مترجم ومقدم)
(ب) العنوان ٨١٠,٨٠٣

رقم الإيداع ٢٠١٠/١٣٦٤٠
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 704 - 145 - 4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المترجم

بعد أن أصدر المجلس الأعلى للثقافة فى مصر عدة كتب عن تاريخ الموريسكيين وظروفهم المعيشية من حق من يطّلع على فهرس هذا الكتاب أن يطرح سؤالا: إذا كان الموريسكيون قد أقاموا شعائر الإسلام من فرائض وسنن، فأين الاضطهاد الذى تتحدث عنه كتب التاريخ؟ وأين محاكم التفتيش؟ أترك الإجابة على مثل هذه الأسئلة المشروعة إلى ما بعد.

نشر المشروع القومى للترجمة على مدى سنوات عدة كتب حول تاريخ مسلمى الأندلس بعد سقوط دولتهم فى غرناطة، وبنشر هذا الكتاب نكون قد دخلنا فى مجال جديد من مجالات الدراسات الموريسكية: مجال الأدب الألخميادو. ولعل من المناسب أن نتوقف بعض الشىء عند هذا المصطلح. كلمة "أدب" هنا ليس المقصود بها الكتابات الإبداعية التى يشكل الخيال جزءا منها، وإنما تعنى كل ما كتبه المدجنون والموريسكيون، وما كتبه هؤلاء يدور فى معظمه حول شرح معنى آية أو حديث نبوى أو تفاصيل شعيرة من الشعائر الدينية. وعليه فإن الأدب الموريسكى يندرج كله فى إطار الكتابات الدينية، فحتى الجزء القليل الذى يبرز فيه إبداع المؤلف يدور حول الدين الإسلامى بشكل أو بآخر، إذ نجد فى القصة أو فى القصيدة إشارة إلى آية أو حديث أو مبدأ فقهى إسلامى. وكلمة "ألخميادو" معناها الأعجمية، وهى هنا تعنى الكتابة بلغة إسبانية لكن بحروف عربية، وهى طريقة لجأ إليها المدجنون والموريسكيون لأسباب اختلف حولها الباحثون. المهم الآن هو أننا نتعامل لأول مرة مع كتابات الموريسكيين بعد أن تعاملنا فى السابق - فى كل كتب الدراسات الموريسكية التى نشرها المجلس الأعلى للثقافة والمركز القومى للترجمة - مع ما كتبه الباحثون حول القضية الموريسكية.

نحاول فى السطور التالية الإجابة على تساؤل مشروع قد يطرحه القارئ. بعد سنوات من سقوط غرناطة أخلّت السلطات الرسمية الإسبانية بشروط معاهدة التسليم[١]، التى كانت تنص على حرية العقيدة، وشرعت فى تنصير المسلمين طوعا أو كرها، وانتهى بها المطاف إلى حظر كل ما يمت للدين الإسلامى بصلة. كانت اللغة العربية من بين المحظورات، وقد أدى ذلك إلى وجود جيل من مسلمى إسبانيا لا يعرف اللغة العربية. لم يكن من الممكن شرح تعاليم الإسلام لأبناء ذلك الجيل باللغة العربية، ولهذا اضطر الفقهاء إلى وضع كتب دينية باللغة الإسبانية. على أن فقهاء الموريسكيين لم يبدأوا عملهم من الصفر، بل اعتمدوا على ما خلّفه المدجنون، إذ كان هؤلاء قد وضعوا كتبا إسلامية باللغة الإسبانية. يقول عيسى بن جابر مفتى سيغوبيا إنه اضطر إلى وضع كتاب "مختصر السنة" باللغة الإسبانية لأن أقرانه من المدجنين لم يكن بمقدورهم قراءة كتاب فقه باللغة العربية، ويعتذر لذلك، بل يحاول أن يدفع عن نفسه تهمة أن يكون قد ارتكب فعلا محرما عندما كتب بلغة غير العربية. هكذا نفهم أن المخطوطات الألخميادية لم تكن من ابتداع الموريسكيين، بل كانت من عمل المدجنين الذين كان بإمكانهم ممارسة شعائر الإسلام بحكم القانون الذى تنظمه "لائحة المدجنين".

لنا أن نتخيل إذن أن بعض المخطوطات التى ترد فى الكتاب ليست موريسكية، بل مدجنة. هذا بالضبط - وهذا وحده كما نظن - يشرح لنا كيف يتضمن الكتاب فصلا عن شعائر الحج، وكيف يتضمن الكتاب شرحا لشعائر كان أداؤها بالنسبة للموريسكى لا يعدو كونه حلما جميلا.

كان على الموريسكى إذا أراد أداء الصلاة أن يتأكد من أن أحدا من القساوسة أو من المسيحيين القدامى لن يداهم بيته فجأة. كان عليه أن يكلف من يراقب باب منزله حتى ينبهه بقدوم زائر غريب. كيف كان للموريسكى أن يؤذن للصلاة إذا لم يكن بمقدوره أداء الصلاة نفسها دون أن يعين من يراقب له الشارع خوفا من زيارة مفاجئة

(١) انظر بعض نصوص معاهدة تسليم غرناطة فى كتاب "الموريسكيون الأندلسيون" تأليف مرثيديس غارثيا أرينال، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.

لأحد يمكن أن يشى به أمام محكمة التفتيش؟ إذا كان الأمر كذلك، فهل كان الموريسكى يفكر فى صلوات غير مفروضة؟ هل كان الموريسكى يحلم بصيام يوم واحد بعد انتهاء شهر رمضان؟ إن الشعائر الإسلامية المشروحة فى الكتاب لا تعبر عن "حياة الموريسكيين الدينية"، بل عن أداء المدجنين لشعائر الإسلام. إن الحديث عن الأذان فى هذا الكتاب يعنى بالضرورة أن المتحدث لا يمكن أن يكون موريسكيا.

لكن الكتاب وثيق الصلة بالموريسكيين، فهو يعرض قضايا نظرتها محاكم التفتيش ضد مسلمين اتهموا بأداء الشعائر الإسلامية الممنوعة بحكم القانون. والقارئ يدرك بسهولة الفرق بين شعائر الإسلام التى يعرضها الكتاب، وممارسة الموريسكى للشعائر كما يرد وصفها فى ملفات محاكم التفتيش. إن هذا الكتاب يحمل فى طياته دليلا على أنه لا يعرض شعائر الإسلام كما أداها الموريسكيون.

نشأة الأدب الألخميادو: النظريات

يخطئ من يتحدث عن مسلمى إسبانيا بعد سقوط غرناطة على أساس أنهم كيان واحد لهم ملامح واحدة[٢]. إن من يدرس تاريخ الأندلس فى الفترة التى سبقت سقوط غرناطة يدرك أن المسلمين كانوا يعيشون فى مناطق مختلفة تحت ظروف مختلفة من حيث مستوى استيعاب اللغة العربية. صحيح أنه لم يكن هناك حظر للغة العربية قبل سقوط غرناطة، لكن الصحيح أيضا هو أن ثقافة الأغلبية تؤثر كثيرا فى ثقافة الأقلية. ذكرنا أن عيسى بن جابر – قبل عقود من سقوط غرناطة – كان يتحدث بأسى عن وضع اللغة العربية فى سيغوبيا، وأنه اضطر اضطرارا إلى شرح تعاليم الإسلام بالإسبانية حتى يتمكن المسلمون من فهمها والعمل بها. حدث ذلك وقت أن كانت اللغة الرسمية السائدة فى مملكة غرناطة هى العربية. لهذا يمكن الحديث عن تفاوت فى

(٢) هذا ما تذهب إليه الزميلة لوثى لوبيث بارالت فى كتابها الأخير "الأدب السرى لمسلمى إسبانيا الأواخر" (مدريد ٢٠٠٩)، إذ تنادى بالحديث عن "قضايا الموريسكيين" لا عن "القضية الموريسكية".

مستوى اللغة العربية بين مسلمي ممالك فالنسيا وغرناطة وأراغون. الأمر الطبيعي هو أن يكتب المؤلف كتابه باللغة العربية، ونظن أن ذلك كان يحدث في غرناطة حتى بعد سقوطها بعقود. في مناطق أخرى سقطت مبكرا أخذت اللغة العربية تتلاشى تدريجيا في الحياة اليومية ثم في أوساط المؤلفين، وهنا كانت اللغة الإسبانية هي البديل المنطقي للعربية. لكن المؤلفين الذين وضعوا كتبا باللغة الإسبانية اختاروا أن يكتبوها بحروف عربية. هنا تختلف آراء الباحثين عند تبرير ما فعله المؤلفون: فمنهم من يقول إن المؤلفات كانت ذات موضوعات إسلامية مقدسة، ومن ثم كان لابد أن تكتب بحروف مقدسة، ومنهم من يقول إن السبب يعود إلى الرغبة في السرية لتفادي ملاحقة محكمة التفتيش. لكن هذا الرأي لا يصمد كثيرا أمام النقد العلمي، فمن المعلوم أن المراسيم الملكية كانت تحظر اللغة العربية كتابة وقراءة وتحدثا، فلو نجا "المتهم" من مشكلة النص الإسلامي المحظور قانونا فإنه يدخل هكذا في مشكلة أخرى هي مشكلة اللغة العربية المحظورة كذلك. وهناك من يقول إن الموريسكي أراد أن يحافظ على سرية الموضوع الذي يطرحه في الكتاب، ولنا هنا تحفُّظان: الأول هو أن الدولة الإسبانية لابد أنها كانت تضم مترجمين إلى اللغة العربية حتى تعرف أسرار عدوها في شمال إفريقيا. والتحفظ الثاني هو أن محتوى تلك النصوص لم يكن ممنوعا على المدجنين، وهم فيما نظن مؤلفوها الأصليون. لم نصل بعد إلى نتيجة حاسمة، لكن أقرب التفسيرات إلى تفكيرنا هو رغبة المدجنين ثم الموريسكيين من بعدهم في المحافظة على شيء يميزهم عن مجتمع الأغلبية المسيحية. إن اللغة العربية كانت وسيلة من وسائل المحافظة على هوية المدجنين ثم الموريسكيين. كانت هناك عناصر أخرى تعبر عن الهوية، منها الملابس والأسماء. من ناحية أخرى فإن النصوص الألخميادية نصوص مترجمة عن أصول عربية بالتأكيد، وإذا كان المترجم يضع نصب عينيه دائما متلقي النص في صورته الجديدة، فإن بإمكاننا أن نقول بأن مجموع القراء المدجنين ثم الموريسكيين كانوا يستخدمون الحروف العربية، إما حفاظا على الهوية، وإما لجهلهم بالحروف الإسبانية. (ليس الأمر مستبعدا، فمن المعلوم أن بعض من يتعاملون مع أجانب قد يكون بإمكانهم التحدث بلغة ما دون أن يستطيعوا الكتابة بهذه اللغة).

علينا أن نضع فى اعتبارنا عند قراءة النصوص التى يعرضها الكتاب أن الحياة الثقافية لمسلمى الأندلس كانت فى تدهور مستمر لأسباب بدهية، ولا يجب أن يظن أحد أن المسلم الأندلسى فى ذلك الحين كان يستطيع أن يضع كتابا فى الفقه. وعليه فإن النصوص الواردة فى الكتاب ما هى إلا مجرد ترجمات لنصوص عربية كتبت فى "دار الإسلام".

أهمية الكتاب:

يعتبر داريو كابانيلاس[٣] كتاب لونغاس مصدرا لا غنى عنه لدراسة الجانب الدينى فى حياة الموريسكيين، وتؤكد الدراسات الحديثة هذه الرؤية.

بذل المؤلف جهداً كبيراً فى دراسة المخطوطات الألخميادية لكى يتمكن من وضع الكتاب، فأصبح على هذه الصورة يمثل مرجعًا أساسيًا لكل باحث أوروبى يتعرض لدراسة ممارسة الموريسكيين لشعائر الإسلام. لعل السبب فى كونه يحتل هذه المكانة أن من الصعوبة بمكان أن يقوم باحث أوروبى آخر بجهد مماثل ويدرس هذا الكم الهائل من المخطوطات. أما الباحث المسلم فقد يكون له رأى مختلف فى الكتاب على ضوء معلوماته عن الشعائر الإسلامية.

الكتاب عبارة عن دراسة لبعض المخطوطات الألخميادية التى تتناول الشعائر الإسلامية، وكذلك ملفات محاكم التفتيش التى نظرت قضايا موريسكيين متهمين بممارسة شعائر الإسلام المحظورة بحكم القانون. استنادا إلى كل هذه الوثائق يشكل لونغاس صورة للحياة الدينية التى مارسها الموريسكيون، ويخلص إلى نتيجتين: الأولى هى أن الموريسكيين ظلوا يمارسون الإسلام بشكل صحيح، والنتيجة الثانية هى أن الدين يجب أن يعرض لا أن يفرض، فقرارات الحظر كانت كثيرة ومتلاحقة،

(٣) انظر دراسته فى مقدمة طبعة جامعة غرناطة لكتاب لونغاس، عام ١٩٩٠.

وكانت عقوبة من يخالفها شديدة، ومع ذلك فالوثائق تثبت أن الموريسكيين ظلوا يمارسون الشعائر الإسلامية حتى يوم رحيلهم من إسبانيا.

أما النتيجة الثانية التي توصل إليها لونغاس فنظن أنه محق فيها تماماً، فالشواهد كلها تبين أن الدين لا يمكن أن يكون نتيجة إكراه، وما لم يقتنع المرء بدين ما فليست هناك جدوى لفرضه عليه. ونذكر هنا أن السلطان المملوكي أراد أن يحول المسيحيين في مصر إلى الإسلام قسرا - ردا على ما فعله الكاثوليك الإسبان[٤] - لكن فقهاء المسلمين أثنوا السلطان عن ذلك العزم، على أساس أنه لا إكراه في الدين.

لا يستطيع الباحث المسلم أن يتفق مع لونغاس في الجانب الأول، وسنحاول توضيح وجهة نظرنا بشيء من التفصيل.

إسلام الموريسكيين كما يعرضه الكتاب:

نريد في البداية أن نعيد التأكيد على أن النصوص الواردة في الكتاب ليست موريسكية بل مدجنة، وعليه فإننا نتحدث هنا عن الشعائر التي كان يمارسها مسلمو الأندلس قبيل سقوط غرناطة. إذا استخدمنا مصطلح "موريسكي" هنا فهو استخدام مجازي.

المطالع للنصوص الواردة في هذا الكتاب يدرك على الفور أنها تتدرج من الإسلام الصحيح إلى الشعائر التي لا نجد لها أصلا في الكتاب والسنة، مرورا بتفاصيل مأخوذة فيما نظن عن الكاثوليك الإسبان، ونحاول فيما يلي أن نتحدث بشيء من التفصيل.

---

(٤) Alonso de Palencia Guerra de Granada, Archivum, Universidad de Granada, 1998.

الإسلام الصحيح

الشعائر المعروضة فى الكتاب تتفق فى معظمها مع صحيح الإسلام، فصلاة الظهر تتكون من أربع ركعات، وصوم رمضان يبدأ عند رؤية الهلال، وهناك فرق بين زكاة المال والتصدق، والحج فرض على من استطاع إليه سبيلا... إلخ.

ترك الأيسر:

تشير بعض المخطوطات إلى أن الموريسكى كان لا يفطر بعد غروب الشمس مباشرة كما تقضى السنة، بل كان ينتظر حتى ظهور النجوم فى السماء، وإلى أنه كان يحرم نفسه من طعام وشراب لم يقل أحد بتحريمهما.

البدع:

ابتدع الموريسكيون عبادات، مثل صلاة وداع رمضان وصلاة خاصة بالمولد النبوى، وصيام العقوبة والتواسع، وغير ذلك من أدعية طويلة مسهبة، ففى الفصل السابع من هذا الكتاب حديث عن صلاة تؤدى بين وقتى الظهر والعصر فى يوم عاشوراء، وكانت صلاة من أربع ركعات يسبقها طهور ووضوء، وفى كل ركعة كانوا يقرءون سورة الفاتحة مرة وسورة " قل هو الله أحد " خمسين مرة مع تسليمتين. أغلب الظن أن الموريسكيين لم يبتدعوا تلك "العبادات"، وإنما وجدوا تراثا يجمع بين الغث والسمين وعجزوا عن التمييز بينهما. وكان على الموريسكى أن يؤدى فى شهر رجب ثلاثين ركعة: (عشر ركعات فى أوله، وعشرا فى نصفه، وعشرا فى آخره). وفى الليلة التى تسبق اليوم الخامس عشر من شعبان كانت تؤدى "صلاة الخير"، وهى تتكون من مائة ركعة يسلم بعد كل ركعتين فيها. تُقرأ فى كل ركعة منها سورة الفاتحة مرة واحدة وسورة "قل هو الله أحد" عشر مرات. بعد انتهاء التسليمة الأخيرة – وقبل النهوض– يجب أن يردد المسلم جملة "لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم" سبعين مرة.

الأثر المسيحى فى إسلام الموريسكيين:

كان من نتائج فترة التعايش بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس أن تأثر كل فريق بثقافة الفريق الآخر. نستطيع أن نؤكد أن أصل الاحتفال بالمولد النبوى كان تقليداً لاحتفال المسيحيين بميلاد السيد المسيح عليه السلام(٥). حدث تأثير مسيحى فى الفترة الأندلسية، واستمر ذلك التأثير بعد سقوط غرناطة. إن من يطالع كتابات لاجئ تونس يجد فيها أثراً مسيحيًا واضحًا (القول بعذرية السيدة مريم عليها السلام بعد الولادة، والزعم بأن عليا بن أبى طالب يخرج من قبره لكى يحارب فى صفوف المسلمين)(٦).

أدت عزلة مسلمى الأندلس عن إخوانهم فى العالم الإسلامى إلى بروز شخصية الإمام أو الفقيه، الذى كان يمثل المسلمين فى الاتفاقيات التى تعقد مع الممالك المسيحية. من ناحية أخرى كان الفقيه مصدرا رئيسا لمعرفة أحكام الشرع بعد حظر استخدام اللغة العربية قراءة وكتابة. وقد أسهم ذلك كله فى أن تقترب مكانة الإمام الموريسكى - بالنسبة للمسلمين - من دور القسيس فى الدين المسيحى. فى المخطوطات التى يعرضها الكتاب نقرأ أن الفقهاء كانوا يحضرون فى بعض الأماكن مرتدين القمصان المطرزة بالحرير والذهب وفى أيديهم عصا كالقساوسة. نقرأ كذلك أنه عندما كان الموريسكيون يشرعون فى الأكل فى حضور مسيحيين قدامى، كانوا يقلدون صيغة المسيحيين فى مباركة المائدة فيقولون: "ربنا إنك تنعم علينا فى الأرض فهب لنا نعمة فى السماء، آمين". عندما يتحدث الموريسكى عن ابن سيدنا إبراهيم الذى كان ينوى التضحية به فإنه يذكر سيدنا إسحاق لا سيدنا إسماعيل، وفى ذلك أثر توراتى واضح. ثم نراه يذكر أنبياء لم يرد ذكرهم فى التراث الإسلامى، بل فى العهد القديم. هذا بالإضافة إلى تناول قصة سيدنا داود عليه السلام كما وردت فى التوراة، لا كما عرضها المفسرون المسلمون.

---

(٥) انظر دراسة فيرناندو دى لاغرانخا فى كتاب "دراسات أندلسية وموريسكية" لنخبة من المؤلفين، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨.

(٦) انظر دراستنا "ثقافة موريسكى: قراءة فى المخطوطة ٩٦٥٤ بمكتبة إسبانيا الوطنية"، فى كتاب "دراسات أندلسية وموريسكية"، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨.

نقد الكتاب:

الكتاب، كما ذكرنا، ثمرة مجهود شاق بذله المؤلف فى وقت طويل، ولهذا يعتبره الباحثون الأوربيون مرجعا أساسيا. أما الباحث المسلم فيدرك دون مشقة أن المؤلف قد جانبه الصواب فى غير موضع من الكتاب، وقد يعود ذلك إلى أن لونغاس لم يوفق فى اختيار المصادر المناسبة للحكم على مدى مطابقة شعائر الموريسكيين للإسلام الصحيح، ونراه قد أخطأ كذلك عندما لم يفرق بين "الركوع" و "الركعة" التى تشمل قراءة الفاتحة وسورة أخرى ثم الركوع و السجود. لهذا نراه يتحدث عن قراءة القرآن فى أثناء الركوع، وهو خطأ دون شك. يخلط المؤلف كذلك بين النظافة والطهارة، ويخلط بين الصلاة والدعاء مما يشوش الفكرة لدى القارئ الإسبانى. من ناحية أخرى لم يضع المؤلف فى اعتباره أن الموريسكيين كانوا مقتنعين بالإسلام، فحاول تصوير الأمر على أنه تقليد لتراث آبائهم. لم يضع فى اعتباره كذلك قضية التقويم الهجرى، مما أوقعه فى خطأ لا يليق بباحث مدقق حين حدد تواريخ ميلادية لمناسبات إسلامية. من المعلوم مثلا أن عيد الأضحى المبارك لا يوافق رأس السنة الميلادية بشكل دائم، كما أن عيد الفطر – الذى يسمى عيد العصير فى النص الإسبانى – لا يوافق موسم جمع العنب بشكل دائم، قد تكون المخطوطة التى استند إليها المؤلف كتبت فى عام توافقت فيه هذه التواريخ. لم تكن السلطات المسيحية تفرق أحيانا بين شعائر الإسلام وشعائر اليهودية، وبالتالى نهت الموريسكيين عن توقير يوم السبت، وهو يوم عادى عند المسلمين، وكان على المؤلف أن ينبه إلى هذا الخلط.

إن ما أوقع المؤلف فى هذا الخلط هو اعتماده على مصادر غير مناسبة بالمرة لموضوع البحث، فقد استقى معلوماته عن الإسلام من كتابات بعض المستعربين غير المدققين ومن ملفات محاكم التفتيش التى تعرض "ما يفعله" المسلم، لا "ما يجب أن يفعله"، هذا إن كان الاتهام صادقا. لا شك فى أن تجاهل المصادر الإسلامية كان من شأنه تكوين فكرة خاطئة لدى المؤلف، إذ يقول بعد ذلك إن إسلام الموريسكيين لم يكن يختلف كثيرا عن الإسلام الذى يمارسه مواطنو دول العالم الإسلامى، وهو قول يجانبه الصواب فى كثير من الأحيان.

لم يكن المؤلف محايداً حين طرح قضية الموريسكيين. كان مسلمو الأندلس يتمسكون بحقهم فى أداء شعائر الإسلام طبقا لاتفاقية تسليم غرناطة، وعلى الجانب الآخر كان من الواضح أن الطرف المنتصر قد أخل بالاتفاقية. المؤلف – فى تبرير غريب لما فعله الملكان الكاثوليكيان – يقول إنهما كانا يريان أن الزمن كفيل بأن يتخلى المسلمون عن دينهم ويعتنقون المسيحية، فلما لم يحدث ذلك كان من الضرورى أن يفرضا المسيحية فرضا.

بين يدى القارئ كتاب يعرض جانبا آخر من جوانب القضية الموريسكية وهو المتعلق بالأدب الذى حرره مسلمو إسبانيا بلغة إسبانية وبحروف عربية نرى أنه يلقى مزيدا من الضوء ويدعونا إلى قراءة جديدة لتاريخ الإسلام فى الأندلس بعد سقوط غرناطة.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

جمال عبد الرحمن

بنى مجد فى أول مارس ٢٠١٠

مدخـــل

يتضمن هذا الكتاب دراسة عن حياة الموريسكيين الدينية معدة استناداً إلى ثلاث مجموعات من المخطوطات الألخميادية: المجموعة المحفوظة لدى جمعية تطوير الدراسات بمكتبة مركـز الدراسات التاريخية[١] ومجموعة المكتبة الوطنيـة، ومجموعة باسكوال دى غايا نغوس المحفوظة فى مكتبة أكاديمية التاريخ الملكية[٢].

ولما كـان الهدف من هذه الدراسـة هو توسيع إطار التـعريف بالحـياة الدينيـة الإسلامية، فقط كما كان موريسكيو القرن السادس عشر يمارسونها، فقد تعمدتُ تجاهل دراسة المصادر العربية التى كانت أساسا لهذه النصوص الألخميادية، وكذلك تجاهلتُ الدراسات العربية التى تتناول الدين الإسلامى أو ممارسته الحالية فى الدول الإسلامية[*]، اقتصرت على قراءة المصـادر العـربية - بقـدر ما تمكنت، إذ أنها ليست كلها محفوظة - لتوضيح فقرة ما غامضة فى النصوص الألخميادية، وقرأت الدراسات العربية التى تتناول الإسلام لكى أوضح فى بعض الأحيان - بشكل غير تام ومن خلال ملاحظات مختصرة - المظاهر المختلفة لحياة الموريسكيين الدينية من خلال مقارنتها بالحياة الدينية التى تُمارس حاليا فى شمال إفريقيا، يجب أن أنبه أيضا إلى أنه لما كنت لا أقصد التحليل النقدى للتشابه والاختلاف بين الشعائر الدينية عند الموريسكيين و عند المسلمين بصفة عامة، فقد اقتصرتُ فى كثير من الأحيان على أن أقدم للقارئ هذه الشعائر بشكل موثق، وهكذا قدمتُ المادة العلمية التى يمكن أن تفيد من يحاول

(*) شك فى أن تجاهل هذه المصادر كان من شأنه تكوين فكرة خاطئة لدى المؤلف، إذ يقول بعد ذلك إن إسلام الموريسكيين لم يكن يختلف كثيرا عن الإسلام الذى يمارسه مواطنو دول العالم الاسلامى، وهو قول يجانبه الصواب فى كثير من الأحيان. (المترجم)

القيام بعمل هذه المقارنة، ومع ذلك فمن الملاحظ أنه لما كانت بعض هذه المصادر العربية، وهى أساس النصوص الألخميادية، غير محفوظة فإن المهمة - مهمة المقارنة - ستتعرض للقصور حتما، وغالبًا - للسبب الموضح آنفا - لا أذكر نصوص القرآن والأحاديث التى تشير إليها المخطوطات الألخميادية.

وفيما يتعلق بالنقل التزمتُ إلى أقصى حد بالنصوص الألخميادية التى استعملتُها وعدّلت ما وجب تعديله حتى تكون قراءة النص ممكنة[٢]، والمنهج المتبع فى هذا الكتاب هو الشكل الإفتائى أو القانونى الذى تُعرض به الواجبات الدينية فى حياة المسلم فى النصوص الألخميادية، وكذلك فى الكتب العربية التى تعتبر مصادر لهذه النصوص. وقد توخيت الوضوح بقدر الإمكان حتى ولو على حساب جمال الأسلوب، وجمال الأسلوب أمر صعب المنال من ناحية أخرى نظراً لطبيعة الموضوع الذى لا يطلق العنان للخيال.

لا تختلف حياة الموريسكيين الدينية جوهريا عن الحياة الدينية للعرب والشعوب الأخرى التى تدين بالإسلام: فالإيمان فى الإسلام له شكل واحد يقبله جميع المسلمين، والطقوس واحدة وإن اختلفت فى بعض التفاصيل نظراً لتعدد المذاهب وهى المالكى والشافعى والحنفى والحنبلى. من المعلوم أن المذهب المالكى هو المذهب الذى اعتنقه مسلمو إسبانيا وهو المتبع فى المراسم الدينية الموريسكية كما توضح المخطوطات الألخميادية.

ولدت النصوص العربية الألخميادية بين الموريسكيين إما لأنهم بدأوا ينسون اللغة العربية، وإما كمهرب بعد أن منع المرسوم الملكى استعمال اللغة العربية، ومن حسن الحظ أن الجزء المحفوظ من هذه النصوص - وهو ليس كبيراً - يمدنا بمادة كافية لإعادة تكوين صورة الحياة الدينية التى كانت تمارَس بشكل خفى: لم تكن هناك وسيلة أخرى أمام من تم تعميدهم وبدأوا يمارسون شعائر الدين المسيحى ظاهريا، مع أن الإسلام يكمن فى نفوسهم حيا سليما. الاختلافات الطفيفة أو حذف الموريسكى لبعض شعائر الديانة المحمدية ليس دليلا ضد شعورهم الدينى المستفيض، وإذا وضعنا فى

الاعتبار القيود التى كانت تحول بينهم وبين حرية ممارسة الشعائر الإسلامية، فإن ذلك يؤكد عمق وأصالة الإسلام بينهم(٤).

ورغبة منى فى توضيح الشعائر الدينية التى كان الموريسكيون يمارسونها فقد اطلعت على مصادر أخرى لا تقل أهميتها التأريخية: ملفات محاكم التفتيش ضد الموريسكيين، وهى محفوظة فى الأرشيف التاريخى الوطنى وقد استعملها دانفيلا فى الجزء الذى يخدم دراسته(٥). إن أهمية هذه الملفات كمصدر تاريخى تكمن فى أنها تصوّر أدق تفاصيل الحياة الخاصة والشعائر الدينية للموريسكيين.

وبديهى أن نشك أحيانا فى صدق (رواية) المسيحيين القدامى المذكورين كشهود إثبات عند اتهام أحد الموريسكيين بالدعوة إلى الإسلام، إذ أن الشهادة قد تكون مبنية على عداء شخصى بعيد كل البعد عن الأسباب الدينية، ومع ذلك فهذه الشهادات تعتبر أدلة – على الأقل- لإثبات أن الشعائر موضع الاتهام كان ينُظر إليها على أنها إسلامية وأنها – من ناحية أخرى – كانت حقيقية ومنتشرة.

إذن فدراسة هذه الملفات يمكن أن تؤكد أن صورة الحياة الدينية، التى ترسمها الشعائر الموريسكية، قد انتشرت بالفعل خلال القرن السادس عشر كله، بل وحتى لحظة الطرد النهائى نفسها عام ١٦٠٩–١٦١٠م. كان من الممكن عرض مادة هذا الكتاب طبقا لملفات محاكم التفتيش، ولكن لما كانت هذه الملفات لا تختلف جوهريا عند تقديم أنماط طقوس هذه الشعائر، فقد فضّلت استعمالها كحواشى، فوضعت فى نهاية كل فصل عن الحياة الدينية "حالة" مستخرجة من الملفات، وقد اخترت الحالات المميزة ونقلتُ المخطوطات حرفيا – لم أسمح لنفسى إلا بالتزام قواعد الكتابة الحالية – بهدف أن تعطى هذه المخطوطات دليلا حيا على واقع، لم أكن أنا لأصل إليه لو أننى أجريت تعديلا. ربما كان هذا التعديل يرضى الذوق الأدبى لكنه يخلو من الحيوية التى تقدمها لشهادة الشهود أو دفاع المتهمين ببساطة الراوية وطرافة اللغة والتلقائية التى تكشف لنا أفكار وشعور الموريسكيين.

وخلال البحث عن مصادر لهذا الكتاب اضطررت إلى تجاهل المخطوطات التى تتحدث عن الشعوذة، رغم أن المعلومات الخاصة بالشعوذة تبدو فى أغلب الأحيان مختلطة بالبيانات الخاصة بالحياة الدينية. إن هذه المعلومات وفيرة لدرجة أنها تتطلب دراسة مستقلة عن هذا الكتاب.

فى النهاية أذكر أن الفصول المخصصة للحياة الدينية تسبقها بعض الملاحظات، وقد استعنت فى كتابتها بالبيانات التى قدمها مؤرخون عديدون عن السياسة التى اتبعت مع الموريسكيين فيما يتعلق بالحياة الدينية، أى درجات القمع والتسامح التى مر بها الموريسكيون منذ أول القرارات التى اتخذها الملوك الكاثوليك وحتى لحظة الطرد النهائى، ولما كانت المراجع التاريخية التى تتحدث عن الموريسكيين كثيرة جداً - مع خلوها من تأريخ عام لهم - فقد حاولتُ ألا أستعمل إلا تلك المصادر محل الثقة، مع عدم تجاهل مصادر أخرى كُتبت بعد عملية الطرد وحُمِّلت بطابع مذهبى، لكنها تحتوى على بيانات عظيمة الأهمية بالنسبة للهدف الذى أسعى إليه: إنها البيانات التى حصل عليها معاصرو الموريسكيين، بينما كان هؤلاء يقيمون شعائر الإسلام خفية[٦].

وفيما يتعلق بتوزيع الفصول اتبعت التوزيع الذى تقره الحياة الدينية الإسلامية، وهكذا أستهل الدراسة بعرض أركان الإسلام الخمسة وهى: الشهادتان، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج. من الملاحظ أن الجزء المخصص للصلاة كبير جداً مقارنة بالفصول الأخرى، ولا غرابة فى ذلك لأن الجزء الأكبر من حياة الموريسكيين الدينية - كما هو الحال عندنا - متعلق بالصلاة الواجبة أو التطوعية، فهناك صلوات مفروضة بصفة يومية، وهناك صلوات أخرى تؤدى خلال العام وفى الأعياد.

لم يكن من المناسب إذن اختصار الموضوع وفقا لتوزيع فصول الكتاب (بالتساوى) على الفرائض الخمس. من ناحية أخرى نعلم أن وصف الشعائر التى تتضمن أفعالاً يتطلب مساحة أقل من وصف تلك الشعائر التى تتكون من كلمات وأدعية منقولة بالنص. والفصل المخصص للصلاة يسبقه فصل مخصص للطهارة والوضوء.

وقد أدخلت فى الفصل المخصص للصلاة صلاة الاستسقاء، وهى شعيرة كان الموريسكيون يؤدونها كثيراً، كما تحدثت عن خطبة عيد الأضحى. وبعد الفصول التى تتناول أركان الإسلام الخمسة تحدثتُ عن بعض الشعائر المتعلقة بالدين، خاصة تلك الشعائر التى كانت تؤدى عند الإنجاب والزواج والوفاة.

ونشرتُ فى النهاية قائمة بالمفردات ذات الأصل العربى التى استعملتُها فى هذا الكتاب وأشرت إلى معنى كل كلمة، وأشرت كذلك إلى بعض المفردات الدارجة القديمة والحديثة والتى لا يتضمنها معجم الأكاديمية الملكية الإسبانية.

الهــوامــش

(١) توجد قائمة بهذه المخطوطات فى كتاب ريبيرا وأسين.

Manuscritos arabes y aljamiados en la Biblioteca de la junta, (Madrid, 1912).

(٢) أجرى سابيدرا تحليلاً لمحتوى المجموعتين، وذلك فى الخطاب الذى ألقاه لدى التحاقه بالأكاديمية الملكية للتاريخ (مدريد عام ١٨٧٨).

(٣) إن اللهجة التى استعملها موريسكيو أراغون لكتابة هذه المخطوطات تستحق دراسة متأنية ومنهجية لا أستطيع أنا أن أقوم بها . ويلاحظ عمومًا أن الكلمات المستخدمة تتضمن مفردات عربية اتخذت الشكل الإسبانى أو مستخدمة بشكل يعكس بوضوح تأثير اللهجة الأرغوانية، كما تتضمن الكلمات المستخدمة أيضا مفردات ذات أصل لاتينى يطرأ عليها تغير كبير بحيث لا يمكن البحث عن معناها فى المعاجم العادية ولا حتى فى المعاجم التى تتضمن الكلمات القديمة. فى الحالة الأولى أقوم بترجمة الكلمة العربية. وفى الحالة الثانية أبحث عن معنى الكلمة عن طريق التحديث ومراعاة سياق النص وتعوُّدى على هذه الكلمات نتيجة لطول فترة مطالعتى لهذه النصوص؛ مما جعل فى إمكانى تفسيرها بشكل تقريبى. والشىء نفسه بالنسبة للمصطلحات التى يظهر فيها أثر النحو العربى بوضوح، ويمكن للقارئ المهتم بالقضايا الخاصة باللهجة الأراغونية أن يطّلع على دراسة رامون منينديث بيدال:

Poema de yucuf (Materiales para sue studio) RABH , tercera ep. T. VII , ps . 91-129, 276- 309, 347 - 362.

(٤) كان الموريسكيون يصلّون أحيانا دون أن يسبق الصلاة الأذان الواجب بمقتضى الشريعة، وكانوا يؤدون الوضوء بالانغماس فى الماء دون أن يغسلوا أعضاء الجسم عضوا عضوا، وذلك خوفا من أن يراهم أحد فيبلغ محاكم التفتيش. ولم يكن بإمكان الموريسكيين اتباع التعاليم الخاصة بالجهاد، وذلك لخضوعهم لحكم شعب يدين بدين آخر. وباختصار فإن وضعهم الظاهرى كمتنصّرين كان يؤدى بهم إلى تبسيط الشعائر الإسلامية. انظر فى هذا الصدد ملحق هذا الكتاب الذى يتضمن وثيقة تكشف بوضوح عن تحمس الموريسكيين لأداء الشعائر الإسلامية وتبسيطهم لهذه الشعائر.

(٥) انظر كتاب دانفيلا "طرد الموريسكيين الإسبان" ويمكن لمن يريد دراسة مصادر محاكم تفتيش طليطلة أن يطالع كتاب:

Catalogo de las causas contra la fe seguidas ante el tribunal del santo oficio se la inquisicon se Toledo.

وقد نشره الأرشيف التاريخ الوطنى (مدريد عام ١٩٠٣م) وقام فرانثيسكو فريسكا، موظف الأرشيف، بفهرسة الجزء الأكبر من الملفات التى يشير إليها الكتاب.

(٦) استعملت أيضا بعض الوثائق المهمة غير المنشورة، ولكننى أعتمد أساسا على دراسات غير دى لوركا، ومارمول، وغودالاخارا، وبيرموديث دى بيدراثا من القدماء، وعلى دراسات خانير ودانفيلا وبورونات من المعاصرين. انظر عناوين دراساتهم فى مراجع هذا الكتاب.

مقــدمة

أحاول فى الصفحات التالية أن أقدم للقارئ - كتمهيد لفهم محتوى هذا الكتاب - بعض الاعتبارات: فى المقام الأول أتحدث عن السياسة التى اتبعها الملوك الإسبان مع الموريسكيين منذ الاستيلاء على غرناطة وحتى لحظة الطرد النهائى فى القرن السابع عشر. وأتحدث بعد ذلك عن تمسك الموريسكيين من أبناء غرناطة و فالنسيا وأراغون بالدين الإسلامى خلال تلك الفترة، رغم القرارات التى كانت تحد من حرية العبادة والتى أصدرها الملوك والأساقفة، ورغم مراقبة محاكم التفتيش لهم. وأتحدث أيضا عن بعض الفروق الاجتماعية بين الموريسكيين طبقا لما يرويه معاصروهم، وبعد ذلك أتحدث أيضا عن عدم فعالية الوسائل التى اتُبعت معهم لتعليمهم الدين الحقيقى(*) واعتناقه، وأبيِّن فى النهاية الأسباب التى قد توضح تمسكهم بالإسلام وكذا الأسباب التى أدت إلى طردهم.

السياسة التى اتبعها ملوك إسبانيا مع الموريسكيين (١٤٩٢-١٦٠٩) :

بعد مرور عدة سنوات على احتلال غرناطة (١٤٩٢) كرَّس كل من الكاردينال خيمينيث دى ثيسنيروس والأسقف تالابيرا نشاطهما التبشيرى لتنصير المسلمين المقيمين بإسبانيا. ربما لم يكن هذا الأمر قد نوقش بدرجة كافية عند إبرام اتفاقية

(*) يقصد المسيحية. لاحظ خطأ من يتحدثون عن حياد المؤلف. (المترجم)

تسليم غرناطة(*). كان من الضرورى حينذاك أن تنضم إلى التاج الإسبانى بقايا الأراضى التى سيطر عليها المسلمون، وربما ظن البعض أن الزمن كفيل بأن يفرض على المسلمين الخاضعين وضعًا أسوأ من الوضع الذى اعتُرف لهم به فى اتفاقية التسليم(*)[1]. لقد ذُكر أن الملكين الكاثوليكيين كانا يأملان فى أن المسلمين - بتعايشهم مع المسيحيين فى ظل الوضع الجديد- سينتهى بهم الأمر إلى الدخول طواعية فى الدين الحقيقى[2]. بدأ تعليمهم أمور الدين الحقيقى على يد ثيسنيروس وتالابيرا: الأول بحماس لا يخلو دائما من التسرع فى إجراءات التنصير. أما تالابيرا فكان يمثل الغيرة على الدين بمفهومها الجيد. كان يتصرف بحذر، وكان صبوراً إزاء بطء عمليات التنصير. لم تكن عمليات التنصير بالنسبة لثيسنيروس تمثل هدفًا دينيًا يؤدى إلى وحدة الكاثوليكية فحسب، وإنما كان يراها أيضا وسيلة من وسائل الحكم، أما تالابيرا فكان يصل إلى عمق الأمور وكان يرى - كخبير بشئون نفسية الموريسكيين - أن الأهم من عرض الدين هو تقبله بصدق، ولهذا كان يرى ضرورة التخلى عن كل الوسائل التى يصاحبها العنف بأشكاله المختلفة لكى تتحقق عملية التنصير[3].

ويحكى مارمول[4] أن ثيسنيروس كان فى غرناطة عام ١٤٩٩م ومعه الأسقف يحاولان تنصير المسلمين. كانا يتحدثان مع الفقهاء ويقدمان لهم الهدايا. وقد استطاعا أن ينصرا ثلاثة آلاف شخص فى يوم واحد، من بينهم الزعتور Azaator من قبيلة الثغريين zegri وهو أحد زعماء المسلمين فى حى البيازين، واستغل ثيسنيروس تلك الظروف وجمع عدداً كبيراً من الكتب العربية أرسلها إلى جامعة القلعة Alcala. كان على صواب حين رأى أن تلك الأعمال الأدبية تزيد من تمسك الموريسكيين بشعائر الإسلام.

(*) اتفاقية تسليم غرناطة لا تتحدث عن تنصير المسلمين، بل تؤكد حق المسلم فى ممارسة شعائر دينه. نرى فى هذه الجملة تبريراً غريبًا لنقض معاهدة، ولو أن كل من وقّع معاهدة التزم هذا النهج لما ظلت معاهدة واحدة سارية المفعول. (المترجم)

ومع ذلك فلم يكن من المكن أن تتم عملية التنصير فى وقت قصير، ولا كان من الممكن أن يتحول التنصير فى فترة قصيرة إلى اتجاه عام، فبينما كان آلاف المسلمين يتحولون إلى المسيحية كان المسلمون عموما يرفعون شكواهم إلى سلطان مصر، ويقولون له إن الإسبان يريدون تنصيرهم بالقوة وهو أمر يخالف الاتفاقية، وقد هدد السلطان بأن يحول كل رعاياه المسيحيين إلى الإسلام(*)، وهكذا كان على الملكين الكاثوليكيين أن يخيرا المسلمين بين التحول إلى المسيحية أو الرحيل إلى شمال إفريقيا.

خلال تلك الفترة كانت تتم حالات تنصير عارضة، وكان هناك صراع دموى: ففى عام ١٥٠٠ م قامت ثورة فى غرناطة بسبب التنصير، بينما تحول إلى المسيحية كل مسلمى مدن البشرات والمرية وباثا وغواديكس، بالإضافة إلى مسلمى مدن أخرى، وفى عام ١٥٠١ م ثار المسلمون مرة أخرى، ولم تهدأ ثورتهم إلا عند قدوم الملك الكاثوليكى إلى غرناطة. سُمح للمسلمين الذين لا يريدون التنصر بالرحيل إلى بلاد البربر، وتحول الباقون إلى المسيحية، وقلدهم فى ذلك المسلمون الذين كانوا يعيشون فى أبيلا و تورو و ثاورا وبعض مناطق قشتالة، كان يتبع مع هؤلاء المسلمين أسلوب متسامح لم يكن من الممكن استمراره إزاء الإجراءات الجديدة التى أقرتها الحكومة.

وقررت السيدة خوانا "المجنونة" أن يُمنح الموريسكيون فترة ست سنوات يتخلون فيها عن زيهم. وقد امتد العمل بهذا الإجراء عشر سنوات كبادرة طيبة من الحكومة، وفى عام ١٥١٨م أصدر كارلوس الأول المرسوم نفسه، لكنه أوقف العمل به فى نفس العام بناء على طلب الموريسكيين، وفى أبريل علم ١٥٢٥م أمر كارلوس الأول بتعليم الدين المسيحى لمن تحولوا إلى المسيحية ولمن لم يكونوا قد تحولوا إليها بعد حتى ذلك الوقت(٥)،

(*) من المعلوم أن فقهاء المسلمين قد أثنوا السلطان عن ذلك العزم، على أساس أنه لا إكراه فى الدين. (المترجم)

وبعد ذلك بخمسة أشهر أصدر مرسوما يوضح فيه الإجراءات المتبعة لتنصير الموريسكيين ويأمر بتنفيذ ما يلي:

– منع الموريسكيين من مغادرة أماكن إقامتهم وإلا يكونوا عبيدا لمن يلقى القبض عليهم.

– منعهم كذلك من بيع الذهب والفضة والجواهر والحرير والدواب والأغنام وأية سلع أخرى.

– أن يتم وضع هلال أزرق على قبعاتهم وأن يكون الهلال فى حجم نصف البرتقالة.

– منع الموريسكيين من العمل فى أيام الأعياد التى تحددها الكنيسة.

– على الموريسكيين أن يخلعوا غطاء الرأس وأن ينحنوا عند مرور القساوسة أو عندما يدق جرس الكنيسة.

– ألا تصدر عنهم إشارات بهدف الاجتماع للصلاة.

– أن يتولى حكام مدن الموريسكيين إغلاق المساجد والعمل على تنفيذ الأوامر السابقة.

ولما كان الإمبراطور مقتنعا بأن تحوُّل الموريسكيين إلى المسيحية ليس صادقا، فقد حاول اتباع كل السبل لمواصلة تعليمهم الدين الحقيقى ومعاقبتهم بشدة على حوادث الاعتداء التى كانوا يقومون بها والاستعداد لاتخاذ قرار الطرد إذا ثبت عدم فعالية الوسائل السابقة.

وقد أصدر البابا كليمنتى السابع فتوى يعتبر فيها مرتدا عن المسيحية كل من يخالف أوامر الإمبراطور، وأمر بأن يحضر الموريسكيون الصلوات فى الكنيسة دون تأخير وأن يتم تعميدهم فى ٨ ديسمبر وإلا فعليهم مغادرة إسبانيا خلال وقت محدد، وبعد عدة أيام نُشر مرسوم ملكى يقضى بطرد جميع موريسكيى فالنسيا فى اليوم

الأخير من شهر ديسمبر عام ١٥٢٥ م وطرد موريسكيي المدن الأخرى خلال شهر يناير عام ١٥٢٦م.

لما أدرك الموريسكيون خطورة القرارات المتخذة ضدهم استعدوا للمقاومة وحمل كثير من موريسكيي فالنسيا السلاح، وطلبوا تعميدهم، لكنهم تقدموا إلى كارلوس الأول بالطلبات الآتية:

- ألا تتعرض محاكم التفتيش لممتلكاتهم ولا لأرواحهم خلال أربعين عامًا لا يُجبرون فيها على التخلى عن زيهم ولا عن لغتهم.

- أن يكون للمسيحيين الجدد مقابر خاصة بهم بين مقابر المسيحيين القدامى.

أن يسمح بتزواج الموريسكيين والموريسكيات من الأقارب حتى الدرجة الثانية خلال فترة أربعين عاما.

- أن يُمنح الذين كانوا فقهاء الأراضى والأمتعة التى جمعها الموريسكيون كصدقة وأن تُخصص بقية الأراضى لبناء كنائس جديدة.

- أن يُسمح للموريسكيين بحمل السلاح.

وعند عرض تلك الطلبات لم ينس الموريسكيون تذكير الإمبراطور بولائهم له، وهو أمر ثبت خلال حرب الجماعات Germaniias. لم يوافق الإمبراطور على طلبات الموريسكيين، ربما لأنه كان مقتنعا بأنه استعمل معهم كثيراً سياسة الترغيب والتسامح لتحقيق أهدافه، ومنذ ذلك الحين سيطر عليهم بالقوة. وفى عام ١٥٢٦م تقدم ثلاثة نواب من غرناطة بمذكرة إلى الإمبراطور عرضوا فيها المظالم التى تعرّض لها الموريسكيون على يد القساوسة والرهبان، فأمر المجلس الملكى بتعيين لجنة كنسية لزيارة غرناطة. وبعد تقصى الحقائق أمرت لجنة مشكلة من الأساقفة والقساوسة بما يلى:

- أن يتخلى الموريسكيون عن استعمال اللغة العربية والزى الخاص بهم والحمامات.

- أن تظل أبواب منازلهم مفتوحة خلال أيام الأعيـاد ويومى الجمعة والسبت(*) من كل أسبوع.

- أن يتخلى الموريسكيون عن العادات التى كان المسلمون يتبعونها عند الزواج.

- ألا يستعملوا ألقابا إسلامية وما يشابه ذلك(٦).

وقد ألغى الملك هذه الأوامر بناء على طلب الموريسكيين. وفى عام ١٥٣٠م طالب البعض بتنفيذ الأوامر السابقة، لكن تنفيذها تعطّل مرة أخرى. على أن الموريسكيين لم تكن تنقصهم الحماية كليةً ضد إجراءات محاكم التفتيش التى كانت تسعى إلى تحقيق الأهداف التى أنشئت من أجلها، فقد ذهب نواب أراغون وقطالونيا وفالنسيا إلى الإمبراطور يشكون إليه تصرفات قساوسة هذه المحاكم، وتم ذلك خلال المجلس المنعقد فى مونثون عام ١٥٢٨م، وطلبوا ألا يتعرض القساوسة للموريسكيين - مهما تصرفوا كمسلمين - حتى يتم تعليمهم الدين المسيحى بدرجة كافية(٧). ولا شك فى أن هذه الشكوى لم يكن مبعثها خطورة الأوضاع ولا صدق الرواية وإنما دوافع أخرى لم يعرضها النواب، ربما لأنهم اعتقدوا أن تلك الدوافع لم تكن كافية لكى يتصف موقفهم بالشرف وهم يطالبون بالتسامح مع الموريسكيين، كانوا يرون أن تجنب نقص مواردهم وخلو أراضيهم من السكان - وهى أراضٍ كان الموريسكيون يزرعونها - أمر ذو أهمية قصوى، فى حين كان الإمبراطور يولى هذا الأمر درجة أقل من الاهتمام ويقدم عليه أمورا أخرى أكثر أهمية بالنسبة لإدارة الدولة (٨).

فى عام ١٥٦٦م - العام الذى تنتهى فيه فترة الأربعين عامًا التى أجّل خلالها تنفيذ الأوامر الخاصة بالموريسكيين - عُقد فى مدريد مؤتمر لمناقشة هذا الموضوع واتفق على تنفيذ الأوامر الصادرة فى عام ١٥٢٦ وهى:

- إجبار الموريسكيين على استعمال اللغة الإسبانية خلال فترة ثلاث سنوات.

(*) أما يوم السبت فهو يوم عادى عند المسلمين، لكن السلطات المسيحية لم تكن تفرق أحيانا بين شعائر الإسلام وشعائر اليهودية. (المترجم)

– منعهم من التحدث أو القراءة أو الكتابة باللغة العربية علانية أو خفية.

– إلغاء العقود المحررة باللغة العربية.

– تسليم الكتب العربية إلى رئيس محكمة غرناطة الملكية.

– عدم صناعة أزياء موريسكية، أما الأزياء الموجودة فعلا والمصنوعة من الحرير فيمكن استعمالها خلال سنة، كما يمكن استعمال الملابس المصنوعة من القطيفة خلال سنتين.

– ألاّ ترتدى النساء أزياءهن على الطريقة الموريسكية وأن يكشفن وجوههن(٩).

– منع إقامة الشعائر الإسلامية المتبعة عند الزواج.

– أن يترك الموريسكيون أبواب منازلهم مفتوحة خلال أيام الجمع والزفاف.

– أن يتخلوا عن استعمال أسماء إسلامية.

– منع الحمامات.

ورغبة فى أن يكون تنفيذ هذه الأوامر ذا فعالية فقد دعا قسيس حى البيازين – ويدعى ألونسو دى أوروثكو – الموريسكيين إلى تنفيذها، لكن مساعيه لم تكلل بالنجاح. وفى أول يناير عام ١٥٦٧م نُشرت هذه الأوامر فى غرناطة، وبدأت عملية هدم الحمامات، مما ترتب عليه غضب الموريسكيين، ولفت القساوسة نظر الموريسكيين إلى حلول وقت التخلى عن ارتداء الأزياء الموريسكية وضرورة تسجيل أسماء أبنائهم من سن ثلاثة أعوام إلى خمسة عشر عامًا، بهدف إرسالهم إلى المدارس لتعليمهم اللغة الإسبانية والعقيدة المسيحية. ولما كان كل ذلك يصاحبه أمر بأن يغادر الموريسكيون القادمون من القرى مدينة غرناطة، فقد احتجّ هؤلاء وقالوا إنهم مضطرون إلى البقاء لكى يعلموا أبناءهم حرفة يكسبون منها لقمة العيش. وقد ساند خوان إنريكيث هذه المطالب أمام الملك فأمره الملك بمناقشة هذا الموضوع مع الكاردنيال إسبينوسا، وذكر الكاردينال أن القرارات المتعلقة بالموريسكيين قد عالجت الأمور بشكل حاسم.

إننا لا نحاول هنا – ولا عن طريق الاختصار – الإشارة إلى ثورة موريسكيى غرناطة التى سرد قصتها أورتادو دى ميندوثا فى كتابه "حرب غرناطة"(١٠)، فهذا لا يهم موضوع دراستنا: يكفى أن نشير إلى أن الشعور الدينى – الذى تأجج على إثر القرارات الصارمة – كان دافعا قويا لهذه الأحداث(١١).

فى النهاية نذكر أن سياسة فيليبى الثانى الخاصة بالموريسكيين معروفة، كانت القضايا الخارجية تشغل اهتمامه ونشاطه، فلم يتخذ قرار الطرد رغم أنه حاول ذلك فى عام ١٥٨٢م بعد قياس الرأى العام. أجّل هذا القرار لكى يتخذه بعد ذلك فيليبى الثالث، وكان من عوامل اتخاذ القرار سياسة إنريكى الرابع ملك فرنسا الذى كان يبذل كل جهده لحث الموريسكيين على التمرد(١٢).

تمسك الموريسكيين بممارسة شعائر الإسلام:

موريسكيو غرناطة:

بعد صدور قرار طرد الموريسكيين فى ٩ ديسمبر عام ١٦٠٩ م أجرى غريغوريو لوبيث مادريا – عضو المجلس الملكى وعمدة العاصمة – تحقيقا تبين منه أن موريسكيى غرناطة و مرسيه وجيان كانوا يمارسون عادة ختان أبنائهم بعد ولادتهم بقليل وكانوا يحافظون على كل شعائر الدين الإسلامى وخاصة صوم شهر رمضان، وكانوا يحتفلون بعيد العصير(١٣) طوال شهر سبتمبر، وخلال هذا الشهر كانوا يتركون منازلهم ويقيمون فى بيوت أخرى لهم، تحيطها أشجار العنب فى سلاسل الجبال، وكانوا لا يحضرون الصلوات فى الكنيسة بحجة صناعة الزبيب، وكانوا يمضون الوقت فى الحفلات والرقص مرتدين أبهى الحلل، وكانوا يعتبرون الأبناء الذين يولدون وسط هذا الجو البهيج سعداء محظوظين، وكان لهم عيد آخر – عيد الأضحى – (١٤) فى أول أيام عيد السنة الميلادية(*)

(*) من المعلوم أن عيد الأضحى المبارك لا يوافق رأس السنة الميلادية بشكل دائم، كما أن عيد الفطر – الذى يسمى عيد العصير فى النص الإسبانى – لا يوافق موسم جمع العنب بشكل دائم، قد تكون المخطوطة التى استند إليها المؤلف كتبت فى عام توافقت فيه هذه التواريخ. (المترجم)

وكانوا يأكلون القمح المسلوق مضافًا إلى اللبن لأن هذا أول شيء أكلته آمنة أم محمد بعد أن وضعت[١٥].

كانوا لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر، كانوا يأكلون لحوم الأغنام ويمتنعون عن أكل لحم الحيوان الذى لم يذبح وهو متجه إلى القبلة حسب الشريعة. لم يكونوا يعترفون (باقتراف) ذنب كبير، ولا يحضرون الصلوات فى الكنيسة إلا مجبرين، ولا يطلبون الصلاة (المسيحية) على أرواح موتاهم ولا يؤمنون بوجود المطهر purgatorio، وعند الوفاة كانوا لا يطلبون مساعدة القساوسة، وكانوا يتوضأون ويمارسون شعائر الإسلام الأخرى ويرتدون زى المسلمين ويتحدثون اللغة العربية[١٦].

وهناك رواية لمؤرخ معاصر للأحداث يدعى بيرموديث دى بيدراثا[١٧] تلقى مزيدا من الضوء على تمسك موريسكيي غرناطة بممارسة الشعائر الدينية، يقول "كان الملكان - بصفتهما مسيحيين كاثوليكيين - يسعيان إلى الحصول على منافع روحية لرعاياهما أكثر من سعيها إلى منفعتهما الشخصية المؤقتة. كانا يودّان لو أن الموريسكيين تمسكوا بالدين المسيحى ولهذا اختصاهم بالأفضال والمعاملة الحسنة وأوصيا بهم رجال القضاء خيرا، ولكن ذلك كان زرعا فى الرمل، بل فى الصخر. لقد اعُترف بأن هذه الأعمال كانت عديمة الفائدة، فقد كان الموريسكيون مسيحيين فى الظاهر ومسلمين حقيقة. كانوا يهتمون بممارسة شعائر وأعياد طائفتهم[*] أكثر من اهتمامهم بدين المسيح ربنا، رغم أنهم كانوا يلقون من الملكين معاملة أفضل من تلك التى كانوا يلقونها من ملوكهم. تخففوا من الأعباء والضرائب، وأساءوا فهم المعاملة الحسنة فاشتاقوا إلى سابق عهدهم، إلى أغنامهم، إلى صلاتهم ورقصهم. لم يكونوا مسلمين علانية، بل كانوا ملحدين مستترين ينقصهم الإيمان رغم تعميدهم المتكرر، وكانوا يقومون ببعض الأعمال الحميدة من الناحية الأخلاقية. كانوا صادقين فى التجارة والتعاقدات و كانوا يعطفون على الفقراء ولا يحبون الدعة بل يعملون جميعًا،

(*) كان الإسبان فى ذلك الوقت - حتى الأدباء منهم - يطبقون لقب طائفة على الدين الإسلامى. (المترجم)

لكنهم كانوا لا يواظبون على صلوات الأحد ولا يراعون أعياد الكنيسة، خاصة عيد القداس Santo Sacramento، بل كانوا يحضرون الصلاة خوفًا من العقوبة، وكانوا يعملون فى أيام الأعياد وأبوابهم مغلقة، يعملون برضا يفوق رضاهم فى الأيام العادية، كانوا يحترمون يوم الجمعة أكثر مما يحترمون يوم الأحد، كما كانوا يستحمون حتى لو فى شهر ديسمبر ويؤدون الصلاة، ويعمدون أبناءهم تنفيذا للقانون، وعندما يعودون إلى منازلهم كانوا يزيلون العلامات المقدسة بالماء الساخن. وكانوا يقيمون شعائرهم ويطلقون على أبنائهم أسماء إسلامية، كما كانت عرائسهم يذهبن إلى الكنيسة لكى يُباركن وهن يرتدين أزياء مسيحية مستعارة، وعندما يعدن إلى منازلهن كن يخلعنها ويرتدين الزى الإسلامى ويحتفلن بالزفاف بآلات موسيقية وأغنيات موريسكية. كن يتعلمن الصلوات المسيحية الخاصة بالزواج، لأن القساوسة كانوا يمتحنونهن فيها، وبعد الزواج كن ينسينها. كانوا يعترفون بخطاياهم، وكانت اعترافاتهم وجيزة، وكانوا يعترفون اليوم بما اعترفوا به بالأمس. كان أحد الموريسكيين على فراش الموت فذهب إليه القسيس وأخذ منه القربان، ولما رأى القسيس أن الموريسكى لم يتقبل الزيت المقدس بعد، ذهب لإحضاره من الكنيسة. كان الموريسكى حزينا إزاء كل ذلك فقال: "إذن هى ثلاثة أنواع من التعذيب فى يوم واحد: الاعتراف والقربان والزيت المقدس". وفى قرى البشرات والساحل، كانوا يلقون القبض على الأتراك ومسلمى البربر الذين يسرقون الأطفال ليلا، وكان الموريسكيون - كلصوص منازل - يقومون بهذه السرقات بشكل أفضل، وبعد ذلك كانوا يرحلون إلى بلاد البربر ليلا ومعهم الأطفال المسيحيون(١٨). كانوا يعلمونهم دينهم وكانوا يجرون لهم عمليات الختان ويجعلونهم مسلمين، وهو أمر يعود بأكبر الضرر على المملكة، أما بالنسبة لهم فهو عظيم الفائدة.

موريسكيو فالنسيا:

كان موريسكيو فالنسيا بعد تعميدهم يواصلون إقامة الشعائر الإسلامية علنا رغم أن إقامة الشعائر كانت ممنوعة سراً وعلانية(١٩)، إذ أنها تتعارض مع العقيدة المسيحية التى اعتنقوها حديثا. كانوا يجرون عمليات الختان لأبنائهم حديثى الولادة،

وكانوا يطلقون عليهم أسماء إسلامية، وكانوا لا يتركون العمل فى أيام الأعياد(٢٠)، وكانوا - بصفة عامة - يحتقرون الشعائر المسيحية، فكانوا يعقدون الزواج طبقا لدينهم وعاداتهم وكانوا يدفنون الموتى طبقا لطقوسهم، وكانوا يدعون المسيحيين القدماء إلى اعتناق الإسلام(٢١) وكانوا يذبحون الماشية وهى متجهة إلى القبلة. وبصفة خاصة كانوا يقيمون الصلاة والوضوء وصيام شهر رمضان(٢٢).

كانت ممارسة الموريسكيين لشعائر الديانة المحمدية تتم بتأييد من السادة (المسيحيين) الذين يتبعونهم كرعايا أو كمواطنى مستعمرات، إن قصة سانشو دى كاردونا البحار الأراغونى لهى قصة فريدة حقا(*)، كان متسامحا جدا مع الموريسكيين، ولذلك قدم لمحكمة التفتيش فى عام ١٥٦٩م، يحكى عنه أنه لما زار وادى غواداليت التابع له والذى يسكنه الموريسكيون، وصل إلى قرية أثانيتا فرأى بناية متهدمة كانت بمثابة مسجد اعتاد الموريسكيون أن يجتمعوا فيه فى أيام محددة لإقامة شعائرهم. عندما سأل سانشو عن نوع المبنى المتهدم، أجابه الموريسكيون المرافقون له بأنه مسجد وهنا عنَّفهم على تركهم له على هذه الحالة السيئة، فقال الموريسكيون إنهم لا يجرؤون على ترميمه حتى لا يخالفوا القوانين الملكية. هنا أمرهم سانشو "بترميمه لأنه يسمح بذلك". وكانت النتيجة إعادة بناء المسجد وإحاطته بالأروقة اللازمة لممارسة شعيرتى الوضوء والصلاة الإسلاميتين. كان الموريسكيون يزعمون أن ذلك المكان فى قرية أثانيتا(٢٣) يحتوى على رفات قديس مسلم تعودوا منذ القدم أن يزوروه بحرية. و" كما لو كان فى فاس"، اعتاد كثير من موريسكيى القرى المجاورة وغرناطة وأراغون وقطالونيا ممن يزيد عددهم أحيانا على ستمائة، أن يزوروه حافيى القدمين "كما لو كانوا فى موسم حج"(**) وحدث أن قام أحد المفوضين - نيابة عن أسقف فالنسيا - بزيارة إلى المنطقة وشاهد بنفسه فضيحة إقامة شعائر الديانة المحمدية فى المسجد المذكور، فلما رأى أن سلطته لا

(*) ترجمنا ملف قضية سانشو دى كاردونا كاملا. انظر مرثيديس غارثيا أرينال "الموريسكيون الأندلسيون" ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢.

(**) لا يقصد المؤلف هنا الحج فى الإسلام بالذات، وإنما فى بعض الاحتفالات المسيحية. (المترجم)

تكفى لإصدار أمر بهدم المسجد، اكتفى بوضع علامات الصليب على بعض الأماكن فى المسجد لكى يفهم خدم سانشو والموريسكيون عامة أنه يجب الامتناع عن إقامة الشعائر المحمدية فى ذلك المكان، وفى النهاية تم هدم المسجد بأمر من الملك فيليبى الثانى، ومع ذلك استمر الموريسكيون فى إقامة الشعائر كصوم رمضان والشعائر الخاصة بالأعياد والزفاف والختان، وكان سانشو المذكور يحثهم على ذلك بل على التمرد، إذ كان يقنعهم بأنهم لم يعمدوا جيدا وبأنهم فى حالة التمرد لا تنقصهم الأسلحة، وفى قرية بتشى Bechi التابعة لسانشو وفى مقر إقامته بإقليم كاستيون، كان الموريسكيون يعيشون "كمسلمى الجزائر" إذ كان لديهم مبنى مخصص لإقامة الشعائر جماعة على الملأ. وقد نسب إلى السيد سانشو محاولة أن يرسل إلى روما شخصيات مهمة لإعلام البابا بأن موريسكيى فالنسيا، قد عمدوا قسرا حتى يقرر لهم البابا حرية العيش كما يحلو لهم، وإذا ما فشلت مساعيه لدى البابا كان يزمع الكتابة إلى سلطان تركيا حتى يكتب إلى البابا وإلى ملك إسبانيا رسائل يستنكر فيها الأسلوب المتبع مع موريسكيى فالنسيا فيما يتعلق بأمور الدين(*)(٢٤).

موريسكيو أراغون:

كان موريسكيو أراغون يعيشون فى قلق وخوف منذ أن علموا بأمر طرد موريسكيى فالنسيا، ومنذ أن تأكدوا من سعى محاكم التفتيش إلى إلقاء القبض على أبرز الشخصيات فى الجماعات الموريسكية، وكان موريسكيو أراغون عرضة لكل أنواع السباب والتهديد من قبل المسيحيين القدامى، ومع ذلك يجب أن نلاحظ أن موريسكيى أراغون الذين تمتعوا بأكبر قدر من التسامح كانوا من أشد المعارضين لحركة التنصير، وكانوا من أشد الناس تمسكا بممارسة شعائر الديانة المحمدية طبقا لما

(*) انظر تفاصيل قضية سانشو دى كاردونا فى كتاب غارثيا أرينال "الموريسكيون الأندلسيون" ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣. (المترجم)

تشير إليه رسالة الملك فيليبى الثالث إلى ماركيز أيتونا Aytona حاكم أراغون والخاصة بطرد الموريسكيين.

وهناك بعض الوثائق التى تقدم لنا دليلا واضحا على تمسك موريسكيى أراغون بممارسة شعائر الإسلام خلال القرن السادس عشر وحتى لحظة طردهم عام ١٦٠٩م. فى ١١ أكتوبر عام ١٥٥٣م قدم أرياس غاييغو عضو محكمة التفتيش بإقليم سرقسطة تقريرا إلى دييغو تابيرا رئيس المجلس العام لمحكمة التفتيش عن أحوال موريسكيى أراغون الذين يصرون على اعتقاداتهم وعلى ممارسة الشعائر الإسلامية، ويحتقرون شعائر المسيحية ويصومون رمضان علنا ويعلّمون أبناءهم الدين الإسلامى بإصرار، ويجاهدون فى سبيل نشر الإسلام بين المسيحيين القدامى أنفسهم متبعين الوسائل العنيفة أحيانا[٢٥].

وفى ٣١ مايو عام ١٥٨٢م قدم كل من فرانثيسكو غاسكا سالاثار ومارتين دى بياتورييل عضوى محكمة التفتيش بإقليم سرقسطة إلى غاسبار دى كيروغا كاردينال طليطلة والمفتش العام على المناطق التابعة لجلالة الملك تقريراً حول أوضاع موريسكيى أراغون، قال فيه إن كل الجهود المبذولة من أجل تعليمهم الدين المسيحى، قد باءت بالفشل كما باءت بالفشل أيضاً الوسائل التى اتبعتها محاكم التفتيش، إذ لا يمكن ذكر حالة واحدة لتحول صادق إلى الدين المسيحى، وعلى الجانب الآخر شاعت بينهم ممارسة شعائر الإسلام علنا، بل والتضحية بالنفس مما يؤدى إلى اعتبارهم شهداء بين إخوانهم فى الدين[٢٦].

وقد ظلت روح التشدد متقدة حية بين موريسكيى أراغون حتى آخر لحظات وجودهم فى أرض المملكة، وهناك دليل بالفعل على حزنهم عندما علموا بأمر طرد موريسكيى فالنسيا، وهناك دليل أيضاً على أنهم مارسوا شعيرة الصوم الإسلامى لكى يطلبوا من الله ألا تنجح الخطط التى كان المسيحيون يدبرونها ضدهم[٢٧]. لنتعرف الآن على مجموع الشعائر الإسلامية التى كان يمارسها موريسكيو أراغون طبقا لما يرويه ماركو دى غوادالاخارا[٢٨]:

"ننهى هذا الفصل بعمل خاتمة لبعض إلحادهم المشين وشعائرهم الحيوانية وشعوذتهم الهمجية، وهى كلها أمور تمكنتُ من جمعها من شهاداتهم فى سرقسطة وطنى.... كان هؤلاء الكلاب(*) يسخرون ويهزأون من القرابين ومن المسيحيين الذين يتلقونها. كانوا ينفرون من التعميد المقدس فيغسلون أبناءهم (من آثاره) بمياه قذرة. كانوا لا يهتمون (بتقديم) قربان التأكيد، كانوا لا يقدمون قربان الزواج حتى انتهاء شهر رمضان. كانوا لا يطلبون قربان الورع إطلاقا. كانوا يحافظون بدقة على تعاليم القرآن، كانوا ينفذون أوامر الكنيسة (ما لم يمكنهم تجنب ذلك) ويرفضون فى داخلهم ما يفعلونه مكرهين. كانوا يعتقدون أن كل إنسان بإمكانه النجاة من عذاب الآخرة إذا اتبع الديانة المسيحية أو اليهودية أو الإسلامية بإخلاص.

لقد عبروا عن إلحادهم برفضهم أكل لحم الخنزير وشرب الخمر. كانوا يراعون عدم أكل لحم الخنزير، لدرجة أن أحدهم إذا أخطأ ولمس خنزيرا بثيابه فإنه لا يضعها على جسده مدى الحياة. وفى إحدى القرى الإسبانية قام العمدة بدهن أشجار تين، أهداها إليه موريسكى ثرى، بشحم الخنزير فغضب الموريسكى ولم يكتف بعدم جنى الثمار، بل قطع الثمار وحرقها. إن هذه الشعوذة الخاصة بالخنزير قد انتشرت لدرجة أن كثيرا من الموريسكيين كانوا لا يأكلون الفجل واللفت والجزر، لأنها تشبه جزءًا معينا من لحم الخنزير. لقد بلغ إصرارهم درجة أن يحملوا الطعام إلى مقابر موتاهم. وحتى يستريح الموتى فى وحدة القبر، كانوا يضعونهم على جنوبهم. كانوا يعتقدون أن الروح لا تفارق الجسد إلا بعد أن يسألهم فى القبر مكير ونكيرى[٢٩]. كانوا يغتسلون بطريقة معينة معتقدين أن ذلك يذهب عنهم الذنوب. كانوا يعتقدون أن من حسن الحظ أن يُدفن أحدهم فى أرض بكر وأن يتوسد الميت حجرين باركهما الفقهاء. كانوا لا يأكلون الدم ولا لحم الحيوان الغريق أو الميت أو الذى عضه حيوان آخر، وكانوا يسمون هذه اللحوم "حرام" Holgaraahan[٣٠] أى لحوم ملعونة، كانوا لا يوقرون أيام الأعياد (المسيحية) ولا صيام الكنيسة وكانوا - إذا استطاعوا - يأكلون اللحوم فى تلك الأيام.

(*) لاحظ الأسلوب المتدنى لبعض أصحاب السلطة المسيحيين. (المترجم)

كانوا يجدون غضاضة فى دفع الأعشار والبشائر. كانوا يعتقدون فى سوء حظ من تُطلق عليهم أسماء القديسين وفى حسن حظ من تُطلق عليهم أسماء إسلامية مثل موسى وحامد وسليمى وعلى وهاجر وفاطمة وكميلة وزرقاء وعائشة وزهرة... إلخ. كانوا لا يصلِّبون وإذا فعلوا ذلك ظاهريا، فإنهم يفعلونه بطريقة يظهر فيها غضبهم لا إيمانهم الكاثوليكى. كان من النادر أن يعطى أحدهم إشارات المسيحيين عندما يموت، كانوا إذا دخلوا الكنيسة لا يشربون من الماء المقدس ولا يصلبون، كانوا - كالشياطين - أعداء الصليب المقدس، وعند سماعهم الوعظ فى الكنيسة كان عدم سكونهم مشيناً، ولولا الإجبار والخوف لتبين زيف اعتناقهم المسيحية عند رفع القربان المقدس، إذ كانت تصدر عنهم إشارات معينة، وكانوا يخفضون أبصارهم ويشيحون بوجوههم، وكانوا يجعلون أبناءهم يبكون لإفساد الجو. كان من النادر أن يحمل أحدهم مسبحة، أو أن يوقر القديسين، أو أن يذكر اسم المسيح العذب".

طبقات الموريسكيين:

كان من بين الموريسكيين من يعيشون أحرارا لا يعترفون بسيادة شخص معين رغم أنهم يعيشون فى مناطق تتبع سلطانه. هكذا كان وضع الموريسكيين الذين خرجوا من غرناطة وأقاموا فى أراضى قشتالية مثل أبيلا Avila أولميدو Olmedo أورناتشوس Hornachos... إلخ، وكان بعض الموريسكيين الآخرين تابعين لسادة معينين كما هو الحال بالنسبة لملكتى أراغون وفالنسيا.

كانت الطبقة الأولى تعيش بين المسيحيين وترتدى زيهم، وكان معظمهم يتحدث الإسبانية بشكل جيد، أما فيما يعلق بممارسة الشعائر الإسلامية، فكانوا مسلمين كمسلمى فالنسيا: كانوا خاضعين لمراقبة أقل، إما لأنهم يعيشون فى مناطق منعزلة خاصة بالموريسكيين، وإما لأن عملهم فى مجال النقل كان يسهِّل لهم الاتصال بإخوانهم فى الدين. ويقسم عالم اللاهوت غيرا دى لوركا[٢١] الموريسكيين الغرناطيين إلى أربع طبقات حسب درجة ارتباطهم بالإسلام.

ينتمى إلى الطبقة الأولى أولئك الذين ظلوا – بعد تعميدهم – يحافظون على الزى واللغة والأسماء والاحتفالات والشعائر الخاصة بتلك الطائفة. يقولون فى الظاهر إنهم مسيحيون ولا أدرى ما إذا كانوا مسلمين فى الخفاء. وينتمى إلى الطبقة الثانية أولئك الذى تخلوا بسهولة عن كل أنواع الشعائر الخارجية وبذلوا جهودا لكى يتوافق وضعهم مع وضع المسيحيين. فى الطائفة الثالثة يجب أن يندرج أولئك القادمين من الجزيرة العربية وإفريقيا ممن لهم جدود مسلمين، وقد حافظ هؤلاء على بعض الشعائر الإسلامية كتقليد عائلى تذكراً لطائفتهم القديمة. والطبقة الرابعة تضم أولئك الذين وُلدوا لأب مسلم وأم مسيحية قديمة، وكان يُطبق عليهم قانون اتباع أفضل الأبوين وضعا، وهذا القانون ينطبق أيضا على حالات زواج المسيحى بمسلمة.

وقد تميز موريسكيو أراغون بإخلاصهم للملك وللسادة الذين يزرعون لهم أرضهم، وعليه فليس من المستغرب أنه عند الإحساس بأن طردهم قد أوشك – كما حدث مع موريسكيى فالنسيا – ذهب نواب أراغون إلى الملك وعرضوا عليه مذكرة تستند إلى أسباب عادلة يطلبون فيها أن يُستثنى الأراغونيون من قرار الطرد. فى الحقيقة لم يكن بمقدور الملك الاستجابة للطب لما فى الاستجابة من معارضة لإجراءاته الخاصة بإدارة المملكة، لكن البساطة التى عرض بها النواب طلبهم تدل على أنه فى تلك المملكة لم يكن هناك أى خطر من بقاء الموريسكيين(٣٢).

تعليم الموريسكيين الدين المسيحى:

بعد صدور قرار منع ممارسة الشعائر المحمدية والعادات ذات الصفة الإسلامية كانت قضية تعليم المسيحية للموريسكيين تمثل إحدى القضايا التى تركز حولها اهتمام السلطات المدنية والكنسية خلال القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، ولم يكن هناك إجماع على رأى واحد، وهو نفس ما حدث بعد ذلك عند مناقشة قضية طرد الموريسكيين نهائيًا، فقد دافع البعض عن ضرورة أن تُتبع سياسة التسامح حتى يتم اعتناقهم الدين الجديد، وإليه كانوا يعتبرون الوسائل المتبعة معهم فى هذا الصدد غير

كافية، ولهذا كانوا يعتبرون عملية الطرد لا مبرر لها. والبعض الآخر - من بينهم الراغبون فى إخضاعهم - كانوا يرون أن جهودهم التبشيرية لم تثمر عن شىء، فكانوا غير مقتنعين بعملية التعليم ولهذا كانوا من أشد المناصرين لعملية الطرد(٣٣).

يجب أن نذكر فى هذا الصدد رأى خوان دى ريبيرا الذى قال عن موريسكيى إقليم فالنسيا - فى تقريره المرفوع إلى فيليبى الثالث -: "إنهم لا يعترفون، لا يتناولون القربان، لا يقربون الزيت المقدس، لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ولا يفعلون الأشياء الأخرى التى يفعلها المسيحيون". وقد عرض الأسباب التى جعلته يشك فى تحولهم الصادق إلى المسيحية فقال: " إن عدم الإخلاص العام هذا لا يرجع إلى نقص فى تعليمهم العقيدة، وإنما إلى قرارهم أن يكونوا مسلمين كآبائهم وأجدادهم. إن أعضاء محاكم التفتيش يعلمون أن الموريسكيين - بعد سجنهم عامين أو ثلاثة وتعليمهم أمور العقيدة - يخرجون من السجن دون أن يعرفوا كلمة واحدة(*).

فى النهاية أقول إنهم لا يعرفون العقيدة، لأنهم لا يريدون معرفتها ولأنهم يفتخرون بأنهم لا يفعلون شيئا له مظهر مسيحى، "ويجب بأن نضع فى الاعتبار جيدا أن بطريرك فالنسيا قد استنفذ كل الوسائل التى يمكن أن تؤدى إلى تعليم الموريسكيين الديانة المسيحية، ورغم ذلك يقول: إذا قلت الحقيقة فيجب ألا نسميهم موريسكيين بل مسلمين"(٣٤).

لا يمكن أن يكون نقص تعليم الدين (المسيحى) إذن هو السبب فى عناد الموريسكيين. وعلى سبيل المثال سأذكر التعليمات الصادرة بخصوص تعليمهم المسيحية، ففى اللائحة التأسيسية التى أصدرها أسقف إشبيلية(٣٥) عام ١٦٠٤م، هناك أمر بأن تسجل كل كنيسة كبيرة جميع الموريسكيين المقيمين فى دائرتها وأن تعين لهم الكنيسة

(*) الدراسات الحالية تؤكد أن البطريرك ريبيرا لم يكن مقتنعًا تمامًا بقرار طرد الموريسكيين وأنه اكتفى بتأييد القرار ثم ندم على ذلك. انظر كتاب ماركيث بيانويبا "القضية الموريسكية من وجهه نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥م. (المترجم)

أو الصومعة أو المستشفى الذى يجب التوجه إليه لسماع الوعظ يوم الأحد وفى أيام الأعياد الأخرى، كما يوصى كبير القساوسة بتعيين رجل دين مناسب متخصص لإلقاء الوعظ ولتعليمهم العقيدة المسيحية ولامتحانهم فى الدين. ويجب على كل موريسكى أن يقدم عملة مساهمة فى راتب رجل الدين. ويجب فرض غرامة قدرها ثمانى عملات، ونصف ريال، وريال على من يتغيب عن حضور الوعظ، بالإضافة إلى العقوبة التى يقررها القسيس على المتمردين. ويكلف كبير القساوسة بإعداد قوائم للموريسكيين الأسرى وتوصية آسريهم بمراعاة حضورهم الوعظ والاعتراف وتعلم الديانة المسيحية. وفى النهاية يأمر بتعيين رجل طيب ليراقب عملية التعليم الأولى لأبناء الموريسكيين من سن الخامسة إلى سن الثامنة، وأن توقع على الطفل غرامة قدرها نصف ريال عن كل يوم يتغيب فيه[٣٦].

ولا شك فى أن مهمة الإشراف كان لا يمكن أن تؤدى عمليا إلا وهى معرضة للصعوبات المتعلقة باللغة ونقص رجال الدين المناسبين وعدم كفاية النصوص المناسبة لشرح العقيدة[٣٧].. إلخ. ولكن فى المناطق التى لم تكن فيها إحدى هذه الصعوبات – إقليم أراغون لم تكن به مشكلة اللغة، لأن موريسكيى أراغون كانوا يتحدثون لغة الإقليم – لم تتحقق النتائج المرجوة كذلك. لم تكن الصعوبات إذن ناتجة عن نقص تعليم العقيدة، ولم يكن من السهل القيام بمهمة جعل الموريسكيين يتركون دينهم وشعائرهم ويحلون محله – بصدق – الدين المسيحى.

خاتمة:

مضى أكثر من قرن من الزمان منذ أولى محاولات التنصير وحتى لحظة الطرد النهائى عام ١٦٠٩م. لقد أدى طرد اليهود عام ١٤٩٢، أن يتمنى الرأى العام أن يشمل قرار الطرد المسلمين أيضًا، ففى ذلك العام انتقل إلى السيادة المسيحية ذلك الركن الذى كان مسلمو إسبانيا يلجأون إليه، فقد أصبحت مملكة غرناطة تتبع مملكتى قشتالة وأراغون الموحدتين، منذ ذلك التاريخ لم يكتف الملكان الكاثوليكيان بتحقيق وحدة

الوطن فى المجال السياسى وإنما رغبا - ومجلساهما أيضًا- فى توحيد الحياة الاجتماعية الإسبانية. ولما رأيا أن الدين كان يشكل العائق الذى يؤدى إلى انفصال عناصر المجتمع المختلفة فقد كافحا من أجل انضمام المسلمين إلى الدين الحقيقى، محاولين بذلك تحقيق الوحدة فى المجال الدينى أيضًا. وقد ساندته فى ذلك محكمة التفتيش التى تزايدت سلطتها بدرجة كبيرة، كما ساهمت فى ذلك أيضًا السلطات القوية التى مارسها ثيسنيروس وبعض القساوسة الآخرين ونفوذهم لدى المجالس الملكية. وبدأت تلوح فى الأفق فترة عظمة المملكة الإسبانية من خلال نشر الدين المسيحى، وكان العالم الجديد الذى اكتشفه كريستوبال كولون بمثابة تربة خصبة لراهبينا. كان من الحكمة فى تلك الظروف اتباع سياسة موحدة تستمر بعد فترة حكم الملكين الكاثوليكيين خلال القرن السادس عشر كله، لكننا رأينا أنه لم ترسم خطة معينة، بل ولم تتبع سياسة ثابتة.

إن أولى تحولات المسلمين قد أعقبتها مباشرة حركات تمرد، وكان المسلمون المتمردون يُخيَّرون بين اعتناق المسيحية أو الرحيل عن شبه الجزيرة(*)، وكانت محاكم التفتيش تمارس سلطاتها ضد الموريسكيين بصفة خاصة، لأنها كانت تعلم أن النبلاء - الذين يعملون لديهم - يساندونهم كثيرًا.

إن تأييد النبلاء للموريسكيين هو الذى أثر على الملوك الإسبان فلم يطردوهم جماعة، وهذا ما يفسر لنا سياسة الوفاق التى اتبعها كل من كارلوس الخامس وفيليبى الثانى، بالإضافة إلى أنه لم يكن من المناسب خلق نزاعات داخلية فى فترة انشغالهما بحروب خارجية.

وفى منتصف القرن السادس عشر تزايد الشعور الدينى، ففى عام ١٥٤٥م عُقد مؤتمر ترينتو الدينى الذى ضم كثيرا من التقارير المؤيدة لعملية وحدة ونقاء العقيدة.

(*) كان خيار الرحيل موجوداً من الناحية النظرية فقط، إذ كان ممنوعًا على الموريسكى بيع ممتلكاته وحمل نقوده إلى خارج إسبانيا، وكان أصحاب السفن يشترطون أن يدفع الموريسكى تكاليف السفر. (المترجم)

ولنفس الهدف عقدت فى إسبانيا مؤتمرات إقليمية، وعندما كان الرهبان الإسبان فى أمريكا يجنون ثمرات نشاطهم التبشيرى وضحت داخل الوطن صورة تمسك الموريسكيين بشعائرهم الإسلامية التقليدية. ولا يجب أن ننسى أن القراصنة الأتراك والبربر كانوا يجدون فى الجواسيس الموريسكيين عونا لهم(*)، وكان الموريسكيون يأملون فى الدعم المسلح من قبل هؤلاء، وشاعت بين الفريقين تكهنات عن تحالفهما مستقبلا وانتصارهما على المسيحيين، بنفس الطريقة الشفوية التى كانت تنتقل بها الأغنيات الشعبية الخاصة بمحاربينا خلال العصور الوسطى بين الشعب المسيحى والتى كانت تتحدث عن استرداد إسبانيا.

إن حركات التمرد الموريسكية المتعددة التى ظهرت خلال القرن السادس عشر فى عدة أقاليم إسبانية، وخاصة ثورة أهل غرناطة بمذابحها الرهيبة، قد عمقت الكراهية بين المسيحيين القدامى والمسيحيين الجدد أو الموريسكيين، هذا بالإضافة إلى حالات الاغتيال الفردية التى ارتكبها موريسكيون بدافع الانتقام الشخصى والتى كان العامل الدينى يؤثر فيها كحافز.

لقد ثبت بوضوح إذن كيف كان التعايش بين المسيحيين والمسلمين خلال الفترة التى نتحدث عنها عنيفا، تتخلله المشاكل الخطيرة. كيف نفسر ذلك التغير الكبير الذى طرأ على الحياة الإسبانية؟ ما هى الأسباب الكامنة وراء ذلك العداء بين الطرفين؟ أليس ذلك الأمر غامضا، إذا تذكرنا الهدوء الذى تميز به التعايش بين المسلمين والمسيحيين فى الممالك المسيحية خلال العصور الوسطى؟. من المحتمل أن يكون مواطنو الممالك المسيحية المسلمون قد تعلموا من تجاربهم الماضية وكان يحدوهم الأمل فى ألا تتأثر معتقداتهم بقرارات حكومية يمليها الوضع السياسى على الملوك ومجالسهم. إن اعتقاد الموريسكيين فى سلامة تصرفاتهم وسلوكهم الخلقى - الذى اعترف به معاصروهم

(*) يؤكد ماركيث بيانويبا فى كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" أنه لم يكن من الممكن استيلاء الأتراك على سواحل إسبانيا فى ذلك العصر وأن تلك الأقاويل قد أطلقت لتبرير تصرفات سياسية. (المترجم)

المسيحيون(٣٨) – كان يؤكد لهم عدم تعرضهم لقوانين صارمة تمس أقدس ممتلكاتهم – أعنى العقيدة – التى ورثوها ككنز، والتى حافظوا عليها كل المحافظة. كان هذا الأمل تعززه حقيقة ثبتت وهى إمكانية التعايش بين عناصر اجتماعية تدين بأديان مختلفة. ولهذا – إزاء القوانين الأولى التى تحد من حريتهم الدينية – لم يكن بإمكانهم الاستسلام بسهولة للتنصير، وهم يعلمون أن أجدادهم قد احتفظوا – فى ظل التسامح – بدينهم وفقهائهم ومارسوا كل شعائر الديانة المحمدية علانية.

ظهرت عوامل جديدة عقَّدت الوضع. لما عاش المسلمون خاضعين للسلطة المسيحية ينعمون بحرية العقيدة لم تكن هناك مبررات للثورة. وقد تقبلهم الجانب المسيحى، ولكن عندما تحول المسلمون إلى مسيحيين فى الظاهر فقط – كنتيجة للسياسة التى اتبعها معهم الملكان الكاثوليكيان – بدأ المسيحيون القدامى يبغضونهم ويرون فيهم خونة لعقيدتهم يسعون إلى عودة السلطة الإسلامية على تلك الأراضى. وبالفعل استطاع الموريسكيون الظهور بمظهر من غيَّر دينه، لكن ذلك لم يصل إلى قلب الموريسكى إلا نادرا. كانوا يحافظون على الدين المسيحى ظاهريا حتى لا تقدم ضدهم شكوى. أما فى ثنايا ضمائرهم وفى أعماق قلوبهم فكانوا ينفرون من الجانب التمثيلى الذى تضفيه الديانة المسيحية على العبادة، وكانوا يحلون محلها التراث الذى تتضمنه الديانة المحمدية. كان الموريسكيون ملتزمين بتعاليم دينهم الذى يسمح لهم بالتظاهر باتباع المسيحية –إذا اضطروا إلى ذلك مكرهين ولم يبتعدوا حقيقة عن الإسلام – وقد ظلوا بعد تحولهم الظاهرى مسلمين أوفياء. أما قدامى المسيحيين – المنتشون بلذة النصر على المسلمين فى ميدان الحرب بعد كفاح طويل – فقد أظهروا همة تزداد يوما بعد يوم فى أن يمارس الموريسكيون المعمدون شعائر الدين المسيحى الذى اعتنقوه. وكان من الشائع أيضًا ألا يكتفى الموريسكيون بالإعراب عن اتباع الديانة المحمدية لأنها دين آبائهم(*)، فكانت الغيرة الدينية تدفعهم إلى نشر الإسلام بين المسيحيين القدامى مما كان يقدم سببا آخر للخلاف.

(*) لا يضع المؤلف فى اعتباره أن الموريسكيين كانوا مقتنعين بالإسلام، ويحاول تصوير الأمر على أنه تقليد لتراث آبائهم. (المترجم)

وهناك سبب آخر يصعّب من مهمة تحويل المسلمين إلى المسيحية. إذا كانت الديانة المعتنقة فى أى بلد - بدرجة متفاوتة من الحماس - تترك أثرا فى العادات، فإن الشعوب التى تدين بالإسلام يحدث معها نفس الشيء ولكن بشكل خاص، فكل مظاهر حياة هذه الشعوب متعلقة بالشعور الدينى. وعليه فإن كثيراً من عادات مسلمى إسبانيا، كان مصدرها الديانة المحمدية. وعندما سعى البعض إلى تخليهم عنها أظهروا رفضاً حيًا أثبت بوضوح تأصل الشعور الدينى فيهم.

ولمواجهة المشكلة الخطيرة فكر البعض فى تنصير المسلمين واستهل ذلك بتعليمهم الدين المسيحى. وعندما اقتنع الرهبان والمبشرون وأعضاء محاكم التفتيش بأن الجهود المبذولة فى هذا الشأن لا تؤدى إلى تحقيق الهدف المنشود تولدت لدى الملوك الإسبان فكرة الطرد(٣٩)، كانت عملية الطرد إلى جانب ذلك تؤدى إلى تفادى خطر عدو منزلى إزاء النزاعات التى قد تنشأ فى الخارج، لكننا لا نعتقد أن تلك هى الأسباب الرئيسية. إن الرغبة فى نقاء العقيدة وتجنب تأثر المسيحيين القدامى - لم تتخذ عبثا الوسائل الصارمة ضد البروتستانت أيضاً - هى الفكرة الأساسية التى تكمن وراء علمية الطرد النهائى.

من كل ما سبق عرضه يتبين أن الدين يجب أن يُعرض لا أن يُفرض. ولما كان الاعتقاد يجب أن يكون اختياريا حرا، فإن عرض الدين وتعليمه يجب ألا يفرض إطلاقا على من سيدخل فيه. إن وظيفة المبشر يجب أن تقتصر على تثقيف العقل وتحريك العقل عن طريق الإقناع والتقوى، ويجب أن يترك للعناية الإلهية أمر النجاح النهائى. إذا كان الله يكافئ الأعمال الحسنة، لأنها تطوعية حرة، فمن العدل أن نطلب أن تكون الأعمال المؤدية إلى اعتناق الدين تطوعية حرة. يجب أيضاً أن تصل هذه الأعمال إلى أعلى درجات التبجيل الممكنة والتى تتناسب مع صدق الرغبة وصفاء النية اللتين تكمنان وراءها.

لن نؤكد، مع ذلك، أن اتباع سياسة اللين والحكمة من قبل المبشرين كان سيؤدى إلى اعتناق الموريسكيين للمسيحية. يكفينا أن نشير إلى عدم فعالية الوسائل التى اتُبعت معهم.

الهــــوامـــش

(١) فيما يلى أهم البنود الواردة فى اتفاقية تسليم غرناطة والمتعلقة بدارستنا: "يلتزم الملكان ومن يليهما بترك الرعايا المسلمين يحتفظون بدينهم وبمساجدهم وبقضاتهم وبمؤذنيهم ومآذنهم، وأن يُسمح للمؤذنين برفع أصواتهم كما جرت عادتهم من قبل" "يلتزم الملكان ومن يليهما بالأ يدخل أى مسيحى مساجد المسلمين ويمعاقبة من يفعل ذلك" "أى مسيحى - رجلا كان أو امرأة - يعتنق الإسلام لا يتعرض له المسيحيون بسوء ولا يطلب منه أن يعود إلى المسيحية، وأن يعاقب من يخالف ذلك، إلا إذا أراد المسيحى أن يعود إلى المسيحية طواعية وبحضور شهود من مسلمين ومسيحيين". انظر خطاب غاسبار ريميرو فى جامعة غرناطة صفحات ٥٢، ٥٤، ٥٥.

(٢) هذا ما يؤكده المؤرخ مارمول فى دراسته ص ٢٧، إلا أن ذلك التأكيد يتناقض مع تعليمات الملكين الكاثوليكيين الموجهة إلى روى دياث دى مينـدوثا المكلف بإبلاغهـا إلى أسقف طليطـلة وإلى كونت تينـديا Tendilla فى أعقاب ثورة مواطنى البيازين فى غرناطة (١٤٩٩-١٥٠٠)، وتكشف هذه التعليمات عن أن الملكين كانا يعلّقان أملا كبيرا على التنصير وعن تسامحهما مع المسلمين الذين عارضوا التنصير، إلا أن التعليمات تكشف أيضًا عن عزمهما تجنب التعايش بين المسلمين والمتنصرين دفعا لخطر العدوى. هذا هو نص الوثيقة التى أشير إليها:

الملك والملكة.

ما يجب أن تقوله أنت يا روى دياث دى ميندوثا من قبلنا إلى أسقف طليطلة وإلى كونت تينديا - ردًا على ما نقلته إلينا من طرفهما - هو ما يلى: أن كل ما فعلاه عند حدوث ثورة البيازين والطريقة التى اتبعاها لكى يتولى مسلمو البيازين وجهتنا يبدو لنا أمر حسنًا، وفيما يتعلق بعبادة ربنا وانتشار ديننا الكاثوليكى المقدس (نقول): بما أن رغبتنا هى استثمار عملية التنصير على أفضل وجه، فإن التدابير التى اتخذناها هى الأمر بتوجيه رسالة نعفو فيها عن الذين أدينوا فى تلك الأحداث ممن تحولوا على المسيحية ومعاقبة المذنبين ممن لا يريدون التنصير بالشكل الذى نراه. لهذا (نأمر) بأن يكتب إلينا أسقف طليطلة وأسقف غرناطة برأيهما فى ذلك".

"ولما كان المتنصرون ليسوا بمأمن من (أثر) المسلمين نظرا لحاجتهم إلى تعُلم أمور ديننا، فقل لهما من قبلنا أن يكتبا إلينا برأيهما فى عدم إقامة هؤلاء المتنصرين بين المسلمين وكيف يمكن تفادى الإضرار بعملية التنصير".

انظر:

MBUC, proced, UA , tit, Conversion de los moriscos de Granada, doc, n 4, minuta sin fecha.

(٣) انظر فى هذا الصدد ما يرويه خوان دى بابيخو فى كتابه:

Memorial de la vida de Fray Francisco Jimenez de Cisneros, (Madrid, 1913) pp. 32- 35.

وقد نشره أنطونيو دى لا تورى ديل ثيرو أستاذ التاريخ بجامعة فالنسيا مع مقدمة مراجع قيمة. يقول فى صفحتى ٣٣، ٣٤: "والنسبة للبعض من المتمردين والمتمسكين بدينهم السيئ كان (ثيسنيروس) يأمر بالقبض عليهم وتكبيلهم بالقيود وإيداعهم السجون حتى يتعلموا وتبدر منهم الرغبة فى طلب ماء التعميد ويتنصروا. وحتى يكونوا موجودين دائما ويمكن وعظهم ووضع أقدامهم على طريق ديننا الكاثوليكى المقدس كان قد عين أشخاصا لذلك، خاصة أحد مساعديه ويدعى ليون وهو اسم على مسمى(*) كان يعامل من يأتى إليه بوحشية لدرجة أنه مهما كانت درجة عناده أو عدم إيمانه كان يعبِّر عن رغبته فى اعتناق المسيحية فى اليوم الثالث أو الرابع".

(٥) أعلن الإمبراطور فى مرسوم صدر فى الرابع من إبريل، وبناء على رأى المجالس الملكية، "أن المسلمين الذين تم تعميدهم يجب اعتبارهم مسيحيين" إذ إنهم عند تقبلهم ماء التعميد كانوا فى كامل قواهم العقلية ولم يكونوا مجانين".

(٦) "أمر ببناء الكنائس اللازمة فى البشرات وألا يستعمل الموريسكيون اللغة العربية وإنما الإسبانية وأن تُكتب كل التعاقدات بالإسبانية وعدم الإتيان بإشارات إسلامية، وعدم تواجد المسيحيين الجدد فى الحمامات ويصرح تواجد المسيحيين القدامى. ألا تستعمل الموريسكيات الملحفة ولا الملايات، وألا تغطى المسيحيات القدامى وجوههن. ألا يقوم الأطباء أو الجراحون بإجراء عمليات الختان. أن تُكتب الشهادات وتعاقدات المهر أمام مسيحيين قدامى. أن يقوم المسيحيون القدامى بذبح الحيوانات. ألا يتزاوج الموريسكيون المسموح لهم إلا إذا اطلع القسيس على الإذن ووافق عليه. ألا "تكون لهم أسماء ولا ألقاب إسلامية وإنما مسيحية، أن تنشأ مدارس فى أنحاء غرناطة و المرية وغواديكس لتعليم الأطفال من أبناء الموريسكيين".

انظر كتاب بيرمودريث دى بيدراثا: Historia eclesiastica... de Granada, fol, 213 V 214

(٧) انظر كتاب خانير:

Condicion social de les moriscos de Espana, p. 51

(٨) يبدو مما لا شك فيه أن خطط سادة الموريسكيين الأراغونيين كان مبعثها المنفعة، وذلك على ضوء وثيقة نورد نصها تباعا. إنها رسالة بعث بها أرياس غاييغو عضو محكمة تفتيش سرقسطة إلى مفتش عام الممالك الإسبانية فى ٢١ نوفمبر عام ١٥٥٣م. تقول الرسالة:

"إن سادة الموريسكيين فى هذه المملكة يستغلونهم ويستغلون متاعهم كما لو كانوا عبيداً، لأنهم يأخذون منهم ما يزيد على ثلث أو ربع ما يتقاضون وهم – الموريسكيون – مثقلون بالأعمال لدرجة أن بعضهم يقول من اليأس إنه بما أنهم يدفعون ويعاملون كمسلمين فليس بكثير أن يعيشوا كمسلمين. وبما أن

(*) كلمة ليون Leon فى الإسبانية معناها أسد. (المترجم)

السادة ليس لهم مصدر دخل أساسي آخر يعيشون منه فهم يأسفون، لأن محاكم التفتيش تعاقب رعاياهم في أشخاصهم أو في أموالهم، ومن هنا تأتي الشكاوى غير العادلة من محاكم التفتيش وممن يعملون بها" انظر:

MIA, S, A 227 (proced, AHS) AHN.

(٩) فقد فهم أنهن – لكيلا يتخلين عن عاداتهن في ستر الوجه أثناء السير في الشوارع – "فسيتركن الملحفة والملاءة وسيرتدين أغطية وقبعات كما كان الحال في مملكة أراغون عندما منع الزي الموريسكي فيها". انظر دارسة مارمول المذكورة ص٣٦.

الملحفة: كانت غطاء تستعمله الموريسكيات وهي من القطن أو الحرير..... كان عرضها ثلاثة أذرع وطولها ثمانية أو تسعة أذرع، وكانت تزينها شرائط مطرزة تسقط على الصدر و تثبت فيها بدبوس أو بجواهر على شكل حلقة. وكانت الملحفة في غرناطة بمثابة الإزار في المغرب.

انظر: Dict..... des nomes des vestements, ps 33 y 401

انظر أيضاً: Eguilaz, Glos, p, 211

(١٠) من المعلوم أن لوكاس دي توري يشك في نسبة هذا الكتاب إلى مينوثا، وذلك في الدراسة التي نشرها في:
Bol. de la R. Acad. de la Historia. t. LXIV, ps. 461, 501, 557- 596 y t. LXV ps. 28-47, 273- 302.

(١١) نذكر هنا شهادة قيّمة تسهم في توضيح أسباب ثورة موريسكيي البشرات. إنها شهادة فرانثيس دي ألابا سفير إسبانيا في باريس وموضع ثقة فيليبي الثاني، وهو – كما يقول خوليان باث – كان على علم تام "لأنه تواجد في غرناطة سبع أو ثماني مرات واطلع على رأي أعضاء المحكمة والعمد ورجال العدالة". وفيما يلي كلماته:

"أردت الذهاب لرؤية بعض أماكن في البشرات للإطلاع على تصرفات هؤلاء الناس، وفي الحقيقة وجدت أن كل الموريسكيين مضطهدون وروحهم المعنوية منخفضة، ورأيت بعض المسجيين القدامى وهم أناس قليلو الحظ يعملون في شئون العدالة وتوزيع أموال جلالة الملك، وأفزعني (أنهم) متكبرون ومتسيدون على الموريسكيين، ورأيت أن ذلك الوضع لا يمكن أن ينتهي على خير. وتواجدت في كثير من الكنائس خلال أيام الأعياد وفي أيام أخرى واستنكرت ما رأيت كثيرا، فقد رأيت القساوسة لا يعاملون هؤلاء الناس بلطف ولا بالطريقة المناسبة لاجتذابهم. ورأيت القساوسة أيضا يديرون وجوههم إلى الوراء لمراقبة ما إذا كان الموريسكيون يركعون أم لا، بالإضافة إلى توجيه كلمات قبيحة ومتغطرسة لهم، مع شيء من عدم اللياقة والجرأة الكبيرة على الله فارتعد جسمي. وكان القساوسة عند خروجهم من القداس يسيرون في الطرقات بغطرسة وتكبر على الموريسكيين وتهديد وتعنيف مستمر لهم، فبدا لي ذلك طريقا سيئا لتعليمهم. ورغم أن معظم الأشخاص الذين تحاورت معهم في غرناطة يقولون إن تمسك الموريسكيين بارتداء نسائهم الزي الموريسكي .... هو السبب في الثورة فإنني أرى أن المعاملة التي ذكرتها سابقا هي السبب الرئيسي في ثورتهم "انظر":

Paz (julian), Archivo General de Simancas, Catalogo IV,
Secretaria de Estado (capitulaciones con Farancia y negociaciones diplomaticas de los Embajadores de Espana en aquella Corte, seguido de una serie cronologicas -de estos) I. ps. 684-685 (Madrid, 1914).

(١٢) Mathorez, Notes sur les espagnols en France, en Bull. Hisp, 1914, ps. 337- 371.

(١٣) هو وقت جنى الثمار. انظر: Dozy, suppl. Aux Dictar

(١٤) كان يُحتفل بعيد الأضحى فى يوم العاشر من شهر ذى الحجة.

(١٥) لا يوجد هذا الحديث فى صحيح البخارى.

(١٦) انظر دارسة مارمول المذكورة ص١٢٣.

(١٧) مرجع مذكور ص٢٣٨.

(١٨) أى مجموعة الأطفال المسيحيين الذين سرقوا.

(١٩) عام ١٥٩٣، ملف قضية إيسابيل بونى الموريسكية من بلدة بينيت (فالنسيا)، شهادة بدور ميمون، فلاح من قرية بينيت: "إنه منذ شهر ذهب إلى منزل رافائيل ميمون ووجد زوجته إيسابيل تؤدى الصلاة على مصلية ووجهها نحو القبلة، وكان رأسها قد غُسل بالماء وأنها كانت قد توضأت، وقد رآها وهى ترفع رأسها وتخفضه، ولما رأته ارتبكت، وأن الشاهد قال: لها لا تحزنى، فلن يعلم بذلك أحد". انظر:

MIV, leg. 49, exp. 15. AHN.

(٢٠) عام ١٥٨٢. قضية ألونسو ثاماردان، موريسكى من فالنسيا يذكر أحد الشهود أنه "فى أيام الأحد والأيام التى تحددها الكنيسة (كعطلة) كان يعمل فى مطحنه مثل الأيام العادية" انظر:

MIV, leg. 49. exp. 27. AHN.

(٢١) انظر ملحق هذا الكتاب ص٢٠٢.

(٢٢) انظر كتاب برونات إى باراتشينا: "الموريسكيون الإسبان وطردهم"، الجزء الأول ص٢٢٥.

(٢٣) هى قرية غير آهلة بالسكان حاليا وتتبع وادى غواداليست بمحافظة أليكانتى.

(٢٤) انظر:

MIV, leg 50, exp. 4. AHN.

فى ١٦ يوليه عام ١٥٨٢ قام عضو محكمة تفتيش الكوى Alcoy بإعلام المفتش العام مستخدما هذه التعبيرات: "إن قداستكم ستفزعون إذا علمتم الفائدة التى تجنى من وراء هؤلاء الناس المساكين بطرق مشروعة وغير مشروعة. وهم يقاسون كل ذلك عن طيب خاطر فى مقابل احتفاظهم بعاداتهم".

AHp. Envio 91. doc. 330.

(٢٥) "إن نشاط المتنصرين حديثا فى هذه المملكة يتقدم. إن هؤلاء الموريسكيين، بعد حروب الأتراك، يخرجون أعناقهم. يثورون ظنا منهم أن الحل الذى ينتظرونه يأتى الآن، ويهينون الله علنا الآن أكثر من أى وقت مضى. وفى رمضان قبل الماضى - الذى وافق شهر أغسطس - صاموا علنا. ومعلوم للعامة أنهم يعيشون كمسلمين ولا يكتفون بذلك بل يحاولون أن يتحول المسيحيون إلى مسلمين مثلهم. وقد قام البعض منهم، ممن تزوجوا بمسيحيات قديمات، بتحويل زوجاتهم إلى مسلمات. وقد عوقب بعضهم على ذلك ولا يزال يوجد من يقوم بذلك. وبالإضافة إلى ذلك نجد أن أبناءهم صغار السن يتعلمون أمور دينهم لدرجة أن فتى موريسكيا أجبر أحد الفتيان المسيحيين عنوة على التخلى عن يسوع المسيح بعد أن هدده بسكين

وقال إنه سيقتله لو لم يتحول، وهناك شخص أراد تقديم أضحية لمحمد فقتل طفلا مسيحيا من المسيحيين القدامى. وبالإضافة إلى ذلك قام البعض بإزالة علامات مسيحية فى إحدى البلديات بحضور موريسكى كان يقوم بعمل الفقيه. وهناك من يسخر عندما يرفع القداس فى الكنيسة". انظر:

MIA. S. 227, n7 (proced. AHS) AHN.

(٢٦) "رغم مرور أكثر من ستة وخمسين عاما على تعميدهم يبدو أنهم أسوأ حالا وأكثر عنادا الآن من أى وقت آخر، إذ يُرى بوضوح أن من وُلدوا بعد ذلك تعلموا أمور طائفة محمد ويسيرون عليها كما لو أن فيهم فقهاء وكما لو أن لديهم مساجد علنية. وبالنسبة للأمور التى يجب أن يفعلوها ظاهريا حتى يبدوا كمسيحيين فإنهم يتهاونون بحيث يُفهم بوضوح أنهم يفعلون ذلك عن خوف وبدون تدين. وعندما يحين شهر رمضان والعيدان والمناسبات الأخرى التى كانوا يحتفلون بها عندما كانوا مسلمين فإنهم يصومون ويحتفلون بذلك علانيةً. ويبدو أنه لم يؤثر فيهم كثيرا الحزم الذى استعملته محاكم التفتيش فى إنزال العقوبة بهم، فبينما كان الكثير منهم فى السجون.... كانوا يصومون رمضان ويصلون ويقيمون شعائر المسلمين الأخرى، أما من رأفت بهم المحاكم فقد ماتوا دون إبداء أى برهان على مسيحيتهم. والكثير منهم يعرف عنهم أنهم متمسكون بدينهم، ولوحظ أن الآخرين يتلقون ذلك بفرح عظيم، بل وقد قيل علانية إن من يموت كذلك يقيمون من أجله الاحتفالات كما تفعل الكنيسة مع الشهداء".

"ومع أن الذين ارتضوا (المسيحية) اليوم يعدون بالآلاف فلا يُعرف أحد يمكن التأكيد أنه قد تمت السيطرة عليه جيدا أو أبدى دليلا حقيقا على ذلك". انظر:

AHP. Envio 8. doc. 175.

(٢٧) شهادة بدرو فراتشى، موريسكى "متنصر حديثًا من بلده مويانا" أنه قد جاء من فالنسيا موريسكى من فوينتيس يدعى خوان دى الفامين، مرَّ بالمدينة وقال لهم إن الموريسكيين ضائعون ويُطردون من تلك المملكة وإن موريسكيى أراغون سيحدث لهم نفس الشىء، وإن المجلس قد اجتمع فى بيت مورينو دى بريا لمناقشة الإجراءات التى يجب اتخاذها، وذلك فى منتصف الليل حتى لا يعرف بذلك أحد من مواطنى المنطقة. ولما كان الأب لاغوناس قسيسا ونائبا كنسيا عن منطقة رومين، وهو شخص لا يشك فيه الموريسكيون فقد دعوه وحضر الاجتماع مع الموريسكيين الآخرين فى رودين، ومن هذا الاجتماع الذى حضره الأب لاغوناس قرروا أن يصوموا الأيام الثلاثة التالية للاجتماع وأن يصوموا دون أكل ولا شرب طوال اليوم منذ الفجر حتى ظهور النجوم ليلا، وأن يتوضـأوا ويصلوا خلال الأيام الثلاثة ويتلوا سور المسلمين ويدعوا الله ألا يعطى المسيحيين الغلبة عليهم" انظر:

MIA,s. 227 (proced. AHS) AHN.

(٢٨) مرجع مذكور ص١٣٢، ١٥٨.

(٢٩) هما منكر ونكير.

(٣٠) تقرأ alharam الحرام، أى الشىء الذى يحظره الدين.

(٣١) انظر: Catecheses, fol. 20 v.

(٣٢) "وألا يفصل بهذا البتر بين مملكتين مجتمعتين، فقد كانت مملكة أراغون هى المملكة التى استخلصت مملكة فالنسيا من الوثنيين، ولم يكن بها مسيحى واحد، وكانت هناك القدرة على الاحتفاظ بذلك المكسب وطرد المسلمين من المملكة وكسبها......"

إن من يعرفهم ويتعامل معهم ويعلم ما يمكن اتخاذه معهم يعلم أيضا ليس فقط عدم وجود مانع في ذلك وإنما أن هناك فائدة منهم إذ أنهم عندما كانوا مسلمين كانوا مسالمين هادئين ومطيعين، والآن وقد فقدوا القوة في كل شيء فلا يجب الخوف منهم. وإذا كنا نرى في المسيحي القديم - لأنه تربى في جبال إسبانيا - جهلا وعيوبا كبيرة فيما يتعلق بعمل إرساليات وأشخاص ترشد الناس، فهناك حاجة كبيرة إلى زرع الأرض البكر لهؤلاء الناس، ومن الضروري والمفيد أن نساعد هؤلاء الإسبان الذين ولدوا وتربوا بيننا والذين يتكلمون لغتنا وهم على طبيعتنا وشاكلتنا، ليسوا مختلفين ولا يتحدثون العربية كأهل فالنسيا - حرس أهل البربر وجواسيسهم لأسر المسيحيين - ..... من المفيد جدا أن نتعامل على أساس السيطرة على هؤلاء الناس ...... لا أن نجبر جلالتكم - وقد سلمتم مائة ألف إسباني إلى أعداء الله وأعدائكم - على أن تسلموا إليهم الآن عشرين ألفا آخرين لا يريدون الرحيل وليس هناك خطر من بقائهم للأسباب التي ذكرناها ولأسباب أخرى أهم سنبوح بها حينما يجب".

Apud. Guadalajara, ob, cit. fol. 126-128 v.

(٣٣) أخبر عضو محكمة التفتيش خيمينيث دي رينوسو الكاردينال رئيس محكمة التفتيش في عام ١٥٨٢ عن مشروع طرد موريسكيي فالنسيا وممالك أخرى مستعملا هذا الأسلوب:

"لن نفقد شرفا، فمن المعلوم في روما أنهم مسلمون هنا وسيكونون مسلمين في بلاد البربر وفي أي مكان يذهبون إليه".

AHp, tit. Moriscos. Caja 2 a.

(٣٤) انظر:

Ximenez (Fr. Juan) Vida del Beato Juan de Ribera (Valencia, 1793) ps ,444-473, y Boronat y Barrachina (D. pascual) : El B. Juan de Ribera y el R. Colegio de Corpus Christi (Valencia, 1904) ps. 85-180.

(٣٥) انظر:

Constituciones del Arcobispado de Sevella, hechas i ordenadas por el Ilustrissimo, Reverendissimo senor Don Fernando Nino De Guevara, I Arcobispo de la s. Iglesia de Sevilla en el Synodo que celebro en su Catedeal año de 1604 (Sevilla, 1069)

(٣٦) مرجع مذكور صفحات ٢٠-٢١.

(٣٧) أعد كتابًا عن "العقيدة المسيحية" في فالنسيا لتعليم المسلمين، والكتاب به عيوب من أخطاء نحوية وفساد الذوق بحيث لا يمكن أن يكون وسيلة للإيمان بالمسيحية لمن يراه تعليمهم(*).

(*) لدينا نسخة من هذا الكتاب الذي وضعه مارتين دي أيالا، وهو نموذج لسوء الترجمة، ولا يفهم منه شيء. (المترجم)

(٣٨) تنسب إلى أسقف غرناطة إيرناندو دى تالابيرا هذه الكلمات "لكى نكون وهؤلاء الموريسكيون مسيحيين حقا يجب أن يأخذوا هم منا العقيدة ونأخذ نحن عنهم أخلاقهم الطيبة". انظر:

Bermudez de Pedraza : Antiguedad y excelencias de Granada, fol.91

(٣٩) "لقد فهمتم محاولاتى على طول السنين تنصير هذه المملكة ومملكة قشتالة والمزايا التى تمنح لهم والتسامح المتبع معهم لتعليمهم ديننا المقدس وأن ذلك لم يفد إلا قليلا، فقد اتضح أنه لم يتنصر منهم أحد، بل ازداد عنادهم".

انظر: رسالة فيليبى الثالث إلى حاكم فالنسيا حول طرد موريسكيى تلك المملكة.

Apud, Guadalajara, ob. Cit. fol. 110.

الفصل الأول

الإيمـــان

رأيت من المناسب أن أقدم فكرة بسيطة عن الإيمـان الإسـلامى وتعـاليم هذه الشريعة قبل عرض فرائض الإسلام. وكانت النصوص الإلخميادية هى المصدر الوحيد الذى اعتمدت عليه، وقد نقلتها حرفيا فى بعض الأحيان.

عن الإيمـان[1] :

الإيمان هو الشيء الذى يدل الإنسان على معرفة الله، والاعتقاد بأنه أفضل النعم، الذى خلق الإنسان من العدم ووهبه الحياة وفقا لإرادته العلية، ووفقا لإرادته العلية كذلك يسلبه الحياة ويعطيه فى الآخرة الجزاء الذى تستحقه أعماله. يجب على الإنسان أن يبنى كل أعماله على الإيمان، فهو أساس القوة الغالبة، وأن يضع أمله القوى فى الله وألا ييأس من رحمته أو يفقد الثقة فى سلطانه حتى لو تعرض لنوائب الدهر كثيرا. هذا هو الإيمان: الاعتقاد والأمل فى ذلك الخالق والحكم الأعظم الذى - وإن كنا لا نستطيع أن نراه أو ندركه فى الحياة الدنيا - بإمكاننا أن نعرفه بالأعمال التى أداها ويؤديها إذا تأملنا فيها. ومن المناسب أيضا أن يكون الإيمان لا يخالطه أى شك وأن يستقر فى القلوب من خلال الأعمال الصالحة والعادات السليمة.

أركان الإيمان الإسلامى:

أركان الإيمان الإسلامي الأساسية ثلاثة عشر:

١- الإحساس فى القلب والنطق باللسان والتأكيد الاختيارى على أن الله الأعلى واحد، خالق كل شيء، مهيمن على كل شيء، لا إله إلا هو، خلق الكون من العدم ليس له شبيه، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد.

٢- أن الله قد أرسل نبيه الكريم محمدا بالقرآن - شريعة الله المقدسة - الذى أوجده بنعمته، عدلّ به كل الشرائع السابقة، وأبعد الناس به عن الشك والخطايا التى كانوا يعيشون فيها، وهداهم إلى الخير الدائم، مما يلزم المسلمين باتباع سنة النبى الكريم محمد. إن الأعمال دليل الإيمان، وحتى يتقبل الله الأعمال يجب أن تكون الأعمال متفقة مع شريعته.

٣- ستموت كل المخلوقات إلا الله، فهو دائم. سيقبض ملك الموت أرواح الموتى، وهؤلاء سيكون لهم المصير الذى حدده الله القدير الذى لا تخفى عليه خافية وفقا لأعمالهم. هناك ملكان: ملك اليمين وملك الشمال يعرضان الأعمال علنا يوم الدين تنفيذا لأمر الله:

تأمل فى الموت

وفكر فى أنه سيأتى،

فى أن ساعته تقترب

ولن تتأخر

وأنك ستدفن وحيدا

معزولا تماما

وستحاسب حسابا طويلا

على كل ما فعلته

٤- الإيمان بحساب القبر، أى أن ملكين سيسألان من يموت عن ربه ونبيه وشريعته. إذا كان الإنسان صالحا سيقول: ربى الله، ومحمد نبيى، والقرآن شريعتى. وتستحق روحه حينئذ نعيم الله فى السماء حتى يوم الدين. وإذا كان الإنسان ليست له أعمال (حسنة) سينكر السؤال وسيشك عند الإجابة، فيظل هكذا فى الظلمات فى الدرك الأسفل من النار حتى يوم الدين.

تذكّر الحساب

الذى ستقدمه

فهو حساب طويل مرير

تأمل وتذكر ضيق (القبر)

الحزين الكئيب

لمن لا يأمل

فى صديقنا المحبوب (محمد)

وبعد الحساب

تذكر تلك الحجرة

إنها ضيقة مظلمة

إن قلبى يرتعد من ذكرها

ليس فيها سلوى

إلا ما قدمتَ من أعمال.

لهذا فعليك أن تكون يقظا

إن الصالح تزوره ملائكة السماء

وسيمنح أيضا

السلام والكرامة

ينظر من هناك إلى المملكة

التى هى بيت السلطة

الذى سيسكن فيه

فى سعادة ورضاء

أما المسئ فسيجده مظلما

أسود، كثير الشرور

مليئا بالعقارب

لكى يدفع ثمن آثامه

بالآلام والتعب

وسيعذب بالعقاب

عندما يرى اللهب

الذى سيُقذف إليه

٥- كل الكائنات ستموت إلا الله الدائم، وسيحدث ذلك عند نهاية العالم، عندما تدق طبول القيامة. سيكون ملك الموت المكلف بقبض الرواح هو آخر من يموت.

٦- الإيمان بالبعث، أول من سيبعث هو ملك البوق وبأمر إله واحد ستعود كل الأرواح إلى أجسادها، وسيظل الصالحون فى نعيم دائم. أول من سيبعث على الأرض هو النبى الكريم محمد. ستغزو النار الأرض حينئذ، وسيلجأ الناس إلى منتصف العالم فرارا من النار التى تبدأ فى أطراف الكون، وسيحدد الله فى مركز الكون ساحة فسيحة يحاسب الناس فيها على أعمالهم.

ففى يوم القيامة

صعب المخرج

شديد الألم والمجهود

قوى الصياح

سنخرج جميع

عارين، مجردين

وسنترك هناك

ثلاثمائة عام، دون كلام

حتى يُسمع صوت توسل

نبينا المحبوب

٧- الإيمان باليوم الآخر حين يضع الله الناس جميعا فى مكان فسيح وقت الظهيرة حتى تظهر قوة الله وعدله أمام الجميع. سيحاسب الله كل أمة ومعها نبيها، وسيحاسب كل فرد أمام الجميع، وسيرى الصالحون وجه الله يومذاك، وسيرى كل واحد كل الأعمال الصالحة والخبيثة. سيقف الصالحون إلى اليمين، وسيقف المسيئون إلى الشمال فى أماكن قبيحة متفرقة، وسيكون ذلك اليوم يوم الألم والنحيب والبلاء الذى لا حصر له.

٨ - الإيمان بشفاعة محمد النبى الكامل الذى سيدعو ربه وسيستجيب له. سيطلب منه أن يخرج من جهنم أبناء أمته الذين آمنوا بوحدانية الله، وبناء على هذا الرجاء سيدخل الجميع الجنة الخالدة.

٩- سيُحاسب الجميع على أعمالهم، وأول الناس فى ذلك هم أمة محمد.

١٠- ستوزن الحسنات والسيئات، فإذا كانت الأعمال الحسنة أثقل وزنا من الأعمال السيئة يدخل الإنسان الجنة، وإذا زادت السيئات يدخل النار. إذا تساوت الأعمال فى الميزان يوضع الإنسان فى مكان بين الجنة والنار حيث يكافأ على أعماله الصالحة ولا يدخل الجنة ولا النار. هؤلاء المؤمنون سيدخلون الجنة بشفاعة أخرى للنبى الكريم محمد، برحمة الله بعد أن يكون قد عاقبهم.

١١- الاعتقاد بأن كل إنسان سيمر على الصراط (المؤدى إلى الجنة). سيمر عليه المؤمنون بسرعة البرق، أما الكفار والملحدون ومن ضعف إيمانهم وضمائرهم لقلة أعمالهم الحسنة، فلن يستطيعوا المرور وسيسقطون فى النار.

١٢- الإيمان بوجود الجنة للمكرمين المؤمنين الذين ساروا على شريعة الله، وهم سيتمتعون - بصحبة النبى محمد - باللذات السماوية فى النعيم الدائم وبرؤية الله.

١٣- الإيمان بوجود النار للمسيئين والكفار والمتكبرين ومن أخلوا بشريعة الله ومن لعنهم الله. هؤلاء كان أفضل لهم ألا يولدوا. إن النار باردة مثلجة وكل ما فيها عفن وسم ودمل جهنّمى وثعابين وديدان ووحوش ضارية تعض. هناك يعذب المسيئون بكل أنواع التعب والآلام التى لا نهاية لها.

وصايا الشريعة الإسلامية(٢):

فيما يتعلق بوصايا الشريعة الإسلامية يجب أن ننوه إلى أنها كانت معروفة ليس فقط على هيئة بنود موجزة مكتوبة نثرا، وإنما أيضا فى أبيات شعرية تسهّل لعامة الموريسكيين تذكرها. هذه هى الوصايا:

- اعبد الله وحده دون أن تصوره برسم، وكرّم النبى الكريم المختار محمد.
- حب الخير للغير كما تحبه لنفسك.
- **عش دائمًا نظيفًا بالوضوء والطهارة وصل الصلوات الخمس:**

حافظوا على الصلاة

فهو أمر لازم.

عندما تصل إلى السن(*)

حافظ عليها بدقة

وإخلاص كبير

وبتكريم وورع

نظرا لمن تناجيه فيها

- أطع أباك وأمك حتى لو كانا كافرين:

والأركان الخمسة

واجبات لازمة

كلها لابد أن تنفذ بإخلاص

الأول طاعة الوالدين بخضوع

من يفعل ذلك جيدا

سيتمتع بعمره جيدا

- لا تحلف بالله كذبا

- لا تقتل ولا تسرق ولا تزن:

امتنع عن قتل السلم

فمن يفعل ذلك

(*) يقصد سن البلوغ حين تكن الصلاة واجبة شرعاً. (المترجم)

سيدخل النار

خالدا فيها

حزينا سجينا

تستنزفه الآلام

لا مخرج له.

امتنع عن الزنا

فهو ذنب محزن

يقتل الحب

ويجلب الفقر

هكذا شرع الله العلى.

فى صحف إبراهيم

نجده كذلك

- ادفع الزكاة:

ادفع الزكاة أيضا

فهى واجب كريم

يطهر المال

ويمتع القلب.

أحسن إلى الفقراء

المحتاجين،

فقد أمرنا

بأن نعطى مما نملك

– صم شهر رمضان المقدس:

صوم رمضان

واجب مقدس

من صامه كما يجب

خرج منه طاهرا،

والعطش الذى يشعر به خلاله،

كما تقول الشريعة،

يخفف من حر

يوم الحشر

– أدّ فريضة الحج:

حجوا إلى مكة

بطاعة كاملة

وزر الأماكن (المشاعر)

بقلب نقى

وبكل إخلاص

كما أمرَنا

من له القدرة

العـزيز

- لا تجامع امرأتك إلا وأنتما فى حالة طهارة شرعية.

- حافظ على يوم الجمعة، وخاصة على العيد، فى نظافة كاملة، بصلاة تقية وبزيارة علماء الدين والمحتاجين.

- أكرم العلماء.

- دافع عن دينك ولو بالمال والنفس.

- أكرم جارك سواء أكان قريبا أم غريبا أم كافرا.

- أكرم الفقير وابن السبيل.

- لا تحنث يمينا، ولا تخلف وعدا ولا نذرا إلا إذا كان ضد الشرع، وإذا فعلت ذلك يجب عليك إصلاح ما أفسدت.

- كن أمينا، ولا تشتر شيئا تظن أنه مسروق.

- لا تفعل الذنب ولا ترض به (بمن يفعله) فتتساوى به.

- لا تُخسرِ الميزان ولا المقياس، ولا تغش، ولا تخن، ولا تكن مرابيًا.

تجنب الربا

وربحه وبريقه

فهو زيادة فى المتاع

لكنه ضيق على النفس

- لا تشرب الخمر ولا أى شىء مسكر

امتنع عن الخمر

والاقتراب من رائحتها،

فهى تفقد الشرف

وطعمها مر

ويوم الدين

يخرج شاربها مخزيا

أسود، حزينا مظلما

تشوّه القذارة معالمه

– لا تأكل لحم الخنزير ولا الدم ولا الميتة ولا ما تشك فيه وما لم يذبح جيدا ولا ما أُهلَّ به لغير الله.

– إذا لاقيت مسلما فألق عليه التحية وساعده على طاعة الله. عده إذا مرض، وكفنه إذا مات.

– اعترض على أى مسلم يريد مخالفة أمر شرعه القرآن أو السنة.

– من أراد أن يتحدث فليقل خيرا، فليس من البر التحدث بسوء حتى لو كان صدقا أو فى أمور قانونية بين متنازعين.

– إذا حكمت فكن حكما أمينا لا تكن طماعا. كن مخلصا لسيدك ولو لم يكن مسلما، ووفه حقه. أكرم الأغنياء ولا تحتقر الفقراء. اتق الحسد والغضب. كن صبورا ولا تتبع السحرة والعرافين والمنجمين، ولا تطع إلا خالقك.

اتق الحسد والغيبة

فهما معصية لله

ومهلكة للضمير.

لا تقل كان أو سيكون

بسوء

لكن تمنَّ

بطيبة وإخلاص

– لا تعش فى أرض الكفار أو بلد يحكمه الظلم ولا بين جيران خبيثين ولا تكن رفيقا لمن ساء إسلامه.

– عش بين الصالحين. أنفق ثلث مالك أو أكثر إذا استطعت ولا تندم على ذلك.

– لا تلعب النرد ولا ما شابهه.

– لا تستعذب الحرام. لا تتطلع إلى ملك الغير. احترس من عدوك. اعف عمن ظلمك، واطلب عفو من ظلمت. ابتعد عن الكبر وأطع الرؤساء. اعطف على من هو أصغر منك وآخِ من يساويك:

تجنب الحرام

فى الملبس والمأكل

حتى لو عشتَ فقيرا

ضعيفا ذا حاجة

وتذكَّر الأنبياء

الذين أعطوا المثل

فمن اهتدى بهم

سيكون مكرما

– لا تكن بوجهين. أصلح بين الناس. قدم النصيحة للمخطئين، رضّ الغاضبين وأرضى الله.

– افد الأسير بمالك. قدِّم النصح لليتيم والأرملة فهكذا تشبه خالقك:

حاول أن تمتنع

عن أن يصل إلى مالك

مال اليتيم الصغير

فهو فى النهاية حزن وبكاء

وإذا فعلت النقيض

فسوف تُحاسب

عندما تكون وحيدا

منعزلا فى القبر

- تعلم الشرع وعلِّمه للناس، وإذا لم تفعل فستدخل النار يوم القيامة.

- امنع بكل قواك عمل من يخالف الشرع، فالمذنب ومن يرضى به مذنبون بنفس الدرجة، وهكذا ترضى الله.

- تب توبة حقيقة تستحق بها الثناء الدائم.

- ازهد فى الدنيا وأمل خيراً، ولك النعيم الدائم.

- لا تستعمل لغة أو عادات المسيحيين ولا أزياءهم أو تماثيل المذنبين حتى لا تقع فى الإثم.

- حافظ على كلمات وتعاليم وعادات محمد الكريم وصحبه، فهكذا تكون يوم القيامة أحد الذين يدخلون الجنة بلا حساب.

الشهادة الإسلامية[٣] :

أول ركن من أركان الإسلام الخمسة هو الإيمان الذى يعتبر أساس التحول إلى الديانة المحمدية، وهو يكفى وحده لنجاة المسلم عند الموت.

وإعلان الإسلام يتكون من الكلمات الآتية فقط: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وهى الصيغة الأساسية التى تكفى للدخول فى الإسلام. كانت هذه الصيغة موجودة بين الموريسكين بشكل إجبارى، لكن جرت عادتهم أن يضيفوا إلى هذه الصيغة ابتهالا معينا يتضمن النطق بالشهادتين ويعدد الصفات الإلهية. ها هو الابتهال الذى نقصده:

اعلم - حمانا الله والرسول - أن على كل إنسان أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى واحد في ملكوته، خلق جميع الأشياء الموجودة في الدنيا: المرتفع والمنخفض، العرش وكرسي الركوع، السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، كل المخلوقات تشكلت بقدرته. لا شيء يتحرك إلا بإذنه، ليس هناك إله للمخلوقات غيره ولا شريك له في علاه. يسهر دائما على سير الحياة، لا ينام ولا يغفل في سهره، يعلم الغائب والحاضر. لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. يعلم ما في الأرض وما في البحر، ولا تسقط ورقة واحدة إلا وهو يعلم، ولا حبة - خضراء أو جافة - في ظلمات الأرض إلا ويعلم بوجودها. يعلم كل شيء. يعرف كل شيء بعدده. يفعل ما يشاء فهو على كل شيء قدير، له الملك وله الحمد، حسنت أسماؤه. ليس هناك من يعترض على حكمه ولا من يمنع تصرفه في ملكه. يفعل ما يشاء بعباده. لا يطمع في رضا ولا يخشى أي عقاب. ليس عليه التزام ولا يطمع، فكل نعمة من نعمه فضل، وكل عقوبة يوقعها عدل. ليس قبله شيء وليس بعده شيء ولا فوقه ولا تحته ولا عن يمينه ولا عن شماله ولا أمامه ولا خلفه. لا يقال متى وُجد ولا أين وُجد ولا كيف وجد. قد وُجد وليس في مكان بذاته. كان رب المكان ونظَّم الزمان، لكنه لم يكتسب صفات الزمان والمكان. لا يدركه الخيال ولا يفهمه العقل ولا يشرحه المنطق. لا يُدرك بالحواس ولا بالروح، لا يمكن أن يكون هدفا للخيال (لا يمكن أن يتخيلّ) أو للمنطق. يختلف عن كل شيء، فلا يدركه الخيال أو الفكر. يسمع من يدعوه في أي وقت. هو الأول والآخر والظاهر، وهو بكل شيء عليم.

هوامش الفصل الأول

(١) Bc, publicado en el Me HE, t, V. ps. 253 y sigs-MCG, t-13, fol. 166 y sigs. BRAH.

(٢) Bc, publicado en el Me HE, t, V. ps. 25. y sigs-MCG, t-13, fol. 166 y sigs. BRAH.

(٣) MBN, n 5228 (Sa Gg, 51) fol. 17-20.

الفصل الثانى

الوضوء - الطهارة

بعد أن عرضنا أول أركان الدين الإسلامي، وهو نطق الشهادتين، نتعرض الآن للركن الثانى وهو الصلاة. وبما أنّ الصلاة يجب أن تؤدى والإنسان فى حالة نظافة شرعية، فمن المناسب أن نشرح كيف يتطهر المسلم عندما يستعد للصلاة أو لأداء شعائر أخرى.

الطهارة[1] :

كان الموريسكيون - كبقية المسلمين - يميزون نوعين من الطهارة: الأول يتمثل فى غسل جميع أجزاء الجسم والثانى - ويُسمى الوضوء - يقتصر على غسل بعض الأجزاء.

النوع الأول - المسمى Tahor - يتمثل فى غسل اليدين أولاً ثم تنظيف ما اتسخ من الجلد كله، ويشمل أيضا كل الأجزاء التى تُغسل عند الوضوء - الذى سنتحدث عنه بعد ذلك - بنفس الطريقة التى يتم بها قبل الصلاة: تُدخل الأصابع فى الماء - الذى يوضع مسبقا فى إناء على اليمين - ويُذكر اسم الله ثم تدلك وتنظف جذور الشعر. يصب الماء ثلاث مرات على الرأس، ثم يصب الماء ثلاث مرات على جانب الجسم الأيمن، ثم تكرر العملية مع الجانب الأيسر ثم يصب الماء فى النهاية على الجسد كله "اقتداء بالنبى". يجب أن يدلك الجسد كله وينظف من كل القاذورات، فإذا لم ينظف تجب إعادة الصلاة المؤداة على حالة عدم الطهارة هذه، وإذا لم يستطع الإنسان أن

ينظف جزءا من جسده بيديه يمكن أن يفعل ذلك باستعمال قطعة قماش أو بمساعدة زوجته أو جاريته (إن كانت له جارية). ومن ليس عند زوجة أو جارية يكفيه أن يصب الماء على الجزء الذى لا يصل إليه الماء باليد أو بقطعة قماش[٢]. إذا ترك الإنسان درنا على جسده مع علمه به أو كسلا فعليه إعادة الغسل والصلاة التى قد أداها، أما إذا كان قد ترك الدرن ناسيا، فلا يجب عليه إلا إعادة غسل الجزء الذى عليه الدرن وإعادة الصلاة.

المرأة التى تتواجد بين رجال من غير محارمها ولا تجد مكانا منعزلا صالحا للوضوء يمكن أن تتطهر بغسل الوجه واليدين حتى الرسغين. هذا ما يجب أن يفعله الرجل أيضا إذا كان فى صحبة نساء لا تحل له رؤيتهن ولا يجد مكانا منعزلا[*]. كانت الطهارة واجبة طبقا للسنة فى أيام الجمعة وفى أول أيام عيد رمضان وفى أيام عيد الأضحى و- كتوبة - عند الدخول إلى مكة.

الأيام التى يؤجر فيها من يتطهر[٣]:

الأيام التى يستحق الإنسان على الطهارة أجرًا أكبر هى الأيام التالية:

(أ) كل أيام الجمعة كما شرّع محمد كفرض إلهى.

(ب) أو أيام العيدين.

(ج) يوم عاشوراء.

(د) فى اليوم الأول والمنصَّف والأخير من شهرى رجب وشعبان.

(هـ) اليوم الأول والسابع والعشرون والأخير من شهر رمضان.

(و) يوم نصف ذى القعدة واليوم الأخير منه.

(ز) اليوم الأول والتاسع والمنصف والأخير من شهر ذى الحجة.

(*) هذه الفقرة غير واضحة ونظن أنه يقصد الطهارة لا الوضوء. (المترجم)

والليالى التى يستحق فيها الإنسان على الطهارة فيها أجرا أكبر هى ليلة عاشوراء، وليلة أول جمعة فى شهر رجب، وليلة النصف من شهر شعبان، وأول ليلة من شهر رمضان، وليلة القدر (٢٧ رمضان). فى الأيام والليالى المشار إليها يؤجر كل من تطهّر وهو حر وفى صحة جيدة، أما إذا كان الإنسان يخشى أن يوشى به فيمكنه الاستغناء عن هذه الشعيرة دون أن يضيع أجره فالله سيكافئه حسب نيته(*).

الـوضـوء(٤) :

ذكرنا سابقا أن الوضوء يكل جزءًا من الطهارة، وسنتحدث الآن عن الوضوء. الوضوء هو أول شعيرة دينية يمارسها كل مسلم وقت الفجر يوميا. ويجب أن يسبق الوضوء الصلاة، فبدونه لا تصح الصلاة. عندما يبدأ اليوم يبدأ المسلم عبادة الله، ويجب أن ينوى القيام بواجباته الدينية وان يفعل الخير - بكل ما يملك من وسائل - وخاصة الصلوات الخمس اليومية التى يفرضها الدين(٥).

الوضوء عبارة عن غسل أجزاء مختلفة من الجسم مع قراءة أدعية معينة وينص الشرع على غسل الوجه واليدين حتى المرفقين والرأس - مع التدليك - والرجلين حتى الكعبين(**) وليس من الواجب - بل هو مستحب - إتمام الوضوء مع مراعاة ترتيب غسل الأعضاء التى سنحددها. اقتضت السنة وجوب ما يلى: المضمضة والاستنشاق، ومسح الأذنين، وتعد المضمضة والاستنشاق فى حكم الواجب عند الوضوء والطهارة كما تنص السنة، ويمكن ممارستها فى وقت واحد أى بأخذ الماء مرة واحدة، وتركهما سهوا لا يوجب إعادة الوضوء أو الطهارة، ففى هذه الحالة يكفى تدارك ما نُسى.

(*) يلاحظ أن هذا النص كتبه موزيسكى وراعى فيه وضع المسلمين، نلاحظ كذلك أن النص الإسبانى لا يعبّر بدقة عن المعنى المراد فى اللغة العربية، فهو يستخدم مصطلح deseo (رغبة)، بدلا منه intencion (نية) هو الأصح. (المترجم)

(**) يعتمد المؤلف هنا على نص الآية ٦ من سورة المائدة، يراعى أن النص القرآنى لا يشير إلى وجوب غسل الرأس بل المسح على الرأس. (المترجم)

عندما يشرع الإنسان فى الوضوء يتجه إلى القبلة إذا أمكنه ذلك ويتخذ إناءً نظيفًا من الفخار أو الخشب أو الصفيح ويضعه على يمينه ثم يضع قدميه على يسار الإناء ويحاول أن يكون الإناء مائلا بحيث لا يسقط الماء المستعمل فى الوضوء فى الوعاء. ويجب أن يكون المكان نظيفا إلى أقصى حد. عندما يبدأ المسلم الوضوء، يقول "بسم الله الرحمن الرحيم"، وقبل أن يُدخل يديه فى الإناء يجب أن يغسلهما ثلاث مرات قائلاً:

"اللهم نظفنى من الخبائث ومن الشيطان الرجيم. اللهم أعوذ بك أن يتمثل لى أو يظفر لى يا رب العالمين"، ثم يغسل العورة حتى تنظف جيد قائلا: "اللهم طهر عورتى من الحرام والخبائث، ونظف عملى من الكبر والغرور، ونظف لسانى من الكذب، ونظف قلبى من الرياء والنفاق، ونظف نظرى من الأمور السيئة القبيحة، فأنت تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور يا رب العالمين" ثم يغسل المسلم وجهه ثلاث مرات مبتدئا بأعلى الجبهة حتى طرف الذقن مهما كانت اللحية طويلة، ويدلكها جيداً حتى يصل الماء إلى البشرة. وأثناء غسل الوجه يجب إعلان نية الوضوء من أجل الصلاة التى ستؤدى بعده مباشرة. بعد ذلك يذكر الدعاء التالى:

"اللهم أنر وجهى بنورك يوم تضئ وجوه عبادك المختارين المكرمين، اللهم لا تسوّد وجهى بظلمتك يوم تسوّد وجوه أعدائك المغضوب عليهم يا رب العالمين"، ثم يغسل الذراع الأيمن ثلاث مرات مبتدئا بأطراف الأصابع حتى المرفق والعكس مع تخليل الأصابع وترديد:

"اللهم أعطنى كتابى بيمينى يوم القيامة(٦) وحاسبنى حسابا يسيرًا يا رب العالمين"، ثم يغسل الذراع الأيسر بنفس الطريقة مع ترديد:

"اللهم لا تعطنى كتابى بشمالى ولا من خلفى يوم القيامة يا رب العالمين، ثم ينظف الرأس مع التدليك مرة واحدة بأن يأخذ الماء بيده ويصبه على رأسه(*)، بعد ذلك يضع

(*) النص القرآنى فى سورة المائدة يأمر بمسح جزء من الرأس لا بغسله كله. (المترجم)

يديه على مقدمة الرأس ويمررهما حتى المؤخرة كما يمررهما بأطراف الشعر والقفا - مع رفع راحة اليد - لكى يدلكا الرأس حتى يعودا إلى الاستناد إلى راحة اليد، وحينئذ تفصل أصابع اليدين وفى أثناء ذلك يقال:

"اللهم استر برحمتك رأسى وجسدى، اللهم أرسل إلىّ رحمتك و ظلنى تحت ظلك يوم لا ظل إلا ظلك يا رب العالمين"، ثم تمسح الأذنان مرة واحدة بحيث يصل الإصبعان إلى الداخل، مع أن ترك هذه العملية لا يوجب تكرارها. ولم يكن يكتفى بتنظيف الأذنين من فوق الخمار أو الحنّاء أو الغطاء. فى أثناء ذلك يردد الدعاء التالى:

"اللهم أسمعنى الأذان وكلماتك الطيبة بصحبة من رضيت عنهم، وأرض عنى يا رب العالمين". ثم تغسل القدم اليمنى حتى الكعبين ثلاث مرات، مع فصل الأصابع والبدء بالأصبع الخنصر وترديد: "اللهم ثبت قدمى على الصراط يوم تزل الأقدام لتهوى فى النار يا رب العالمين". ثم تغسل القدم اليسرى بنفس الطريقة مع فرق واحد هو البدء بالأصبع الإبهام وترديد: "اللهم أرجو عونك لكى لا تزل قدمى عن الصراط يوم تزل أقدام الكافرين والخبيثين لتهوى فى النار يا رب العالمين".

وعندما تنتهى عملية الوضوء يقول الإنسان وهو ساجد أو واقف، متجها إلى القبلة:

"الحمد لله رب العالمين، أشهد أن لا إله إلا الله، لا مثيل له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، تباركت ربى، أسبّح بحمدك، لا إله إلا أنت. اللهم إذا كنت قد ارتكبت أعمالا سيئة أغضبتك فأرجو عفوك، وأتوب إليك، اغفر لى واقبل توبتى فأنت الذى تغفر ولا يقبل التوبة إلا أنت، اللهم اجعلنى من التوابين والصالحين والطاهرين مع المكرمين، واجعلنى ممن يسبحون- كثيرا وكما يجب - اسمك المقدس ومن الذين يرفعون دعوتهم إليك صباحا ومساء وفى كل ساعة من ليل أو نهار، والحمد لله رب العالمين". وهناك مخطوطة(٧) تقدم لنا رواية أخرى لهذا الدعاء، تقول:

"اللهم كافئ أعمالى الصالحة، وتجاوز عن سيئاتى، واجعلنى مستديما على عبادتك حتى ترضى عنى، واجعلنى من التائبين وطاهرى القلب، واغفر لى بقدرتك فأنت

تغفر برحمتك. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد (ﷺ) نبيا ورسولا، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم".

ونفس المخطوطات التى تتضمن التعليمات السابقة والخاصة بالوضوء تشير إلى حالة الموريسكى الذى يذهب إلى النهر ليغتسل عندما يخاف أن يراه الأعداء فيبلغوا محاكم التفتيش. فى هذه الحالة يكفى الموريسكى أن يغمس جسده ورأسه فى الماء وأن ينوى تأدية هذا الواجب المقدس سواء أكان وضوءاً أم طهارة.

مواصفات الماء الصالح للوضوء[٨]:

يجب أن يكون الماء نظيفا لا طعم له ولا لون ولا رائحة، ويفضل أن يكون جاريا، أى ماء الأنهار، فإذا لم يوجد فماء الينابيع والآبار والبرك. وكان مشروعا بصفة استثنائية استعمال مياه فيضان النهر المعكرة وذات اللون والطعم. لم يكن من المشروع استعمال مياه لمسها كافر أو من سب أبويه مرتين، أو الماء النجس الذى لمسه كلب أو قط أو ذئب أو ثعلب أو طير جارح. وكان يجوز استعمال الماء الذى يخزن فى الآبار نتيجة فيضان النهر بعد مرور التيار. ولم تكن الحشائش التى تنبت داخل المياه تمنع صلاحيتها للوضوء. لم يكن من الواجب غلى الماء أو تسخينه بأشعة الشمس لا باليد ولا فى إناء غير نظيف. ومع ذلك، تثبت الوثائق أن موريسكيى فالنسيا كانوا يستعملون الماء الساخن للوضوء[٩].

الوضوء بدون ماء (التيمم)[١٠]:

التيمم هو النظافة[*] التى تؤدى بلمس التراب أو مادة أخرى مناسبة عند عدم وجود الماء، واستعمال التراب لتدليك الوجه واليدين أمر يقرّه الشرع أو السنة، ويؤدى عادة بالطريقة الآتية:

(*) يخلط المؤلف بين النظافة والطهارة. (المترجم)

تلمس اليدان التراب مع ترديد "بسم الله" ثم تغسل(*) اليدان ويدلك بهما الوجه مرة واحدة بحيث تغطى اليدان الوجه (إذا ترك جزء من الوجه فلا يصح التيمم وتجب إعادة الصلاة) ثم توضع اليدان مرة أخرى فى التراب وتدلك اليدُ اليمنى اليدَ اليسرى بدءا بأطراف الأصابع حتى المرفقين بحيث يشمل التدليك كل المرفقين، بعد ذلك تدلك اليد من المرفق حتى أطراف الأصابع، وباليد اليمنى على اليد اليسرى حتى أطراف الأصابع.

ويمكن أن يكون التيمم بالتراب أو الرمل أو اللبلاب أو الصخر أو العشب أو الشجيرة أو الشجرة التى لها جذور فى الأرض ما لم تُقطع أو تُنزعْ. وإذا كانت الأرض مغطاة بالجليد فيجوز استعمال الجليد فى الوضوء(**)، ولا يجوز أن نستعمل فى الوضوء(***)، المواد المغلية كالجير أو الجبس أو القرميد أو الطوب الأحمر، ولا التراب المخلوط بمواد أخرى كرماد القش أو رماد النخالة ولا تراب اختلط بالدم أو الخمر أو البول إلا اختلط التراب بشىء نظيف(****) أو فى حكم الطاهر.

الحالات التى يجوز فيها التيمم بدلا عن الوضوء[11]:

يمكن أن يؤدى التيمم فى مكان آهل بالسكان أو فى الصحراء أو فى الطريق إذا توافر أحد الشروط الآتية:

(أ) عند عدم وجود الماء وعدم إمكانية إيجاده، أو إذا خُشى فوات وقت الصلاة أثناء إحضار الماء.

(*) يستعمل هنا لفظ "تغسل" بدلا من "تطهر". (المترجم)

(**) يقصد التيمم. (المترجم)

(***) يقصد التيمم أيضا. (المترجم)

(****) أى طاهر. (المترجم)

(ب) فى حالة وجود ماء أو إمكانية إيجاده عند خشية أذى الأعداء أو اللصوص فى النفس أو المال لو كان الوضوء بالماء أو عند خوف الحيوانات المفترسة أو خوف الوحدة عند ذهاب الرفقاء (لإحضار الماء).

(ج) إذا كان الإنسان مريضا أو جريحًا ولا يمكنه الوضوء خوفا من ضرر الماء على المرض أو الجرح كما فى حالة مرض الجدرى أو الحصبة.

(د) إذا كان الإنسان مريضا أو به جرح فى أحد أجزاء الجسم التى تغسل عند الوضوء فيمكن غسل الأجزاء السليمة ثم يدلك الغطاء أو القماش الذى يغطى الجرح.

(هـ) إذا كان الإنسان مريضا وليس معه من يحضر له الماء ويخشى فوات وقت الصلاة.

(و) عند ضرورة شراء الماء إذا طلب من يبيعونه ثمنا أعلى مما يساويه عادة.

(ز) عند وجود الماء الذى، إذا استعمل للطهارة أو الوضوء، لا يتبقى منه قدر للشرب وعدم إمكانية إحضاره ماء غيره، إذا كان هناك خطر عطش من سيتوضأ أو من برفقته من الأشخاص أو الحيوانات.

(ح) أثناء البرد أو الثلج إذا تواجد الإنسان فى مكان خطر ليس به نار لتسخين الماء ويخشى المرض إذا توضأ بالماء (البارد) .

(ط) عند وجود ماء لا يكفى للوضوء: فى هذه الحالة تُغسل العورة أولاً وبعض أجزاء الجسم ثم يؤدى التيمم .

هوامش الفصل الثانى

(١) MGG,T4 - 13,FOL 132- 133 BRAH.

MBCEH, n IV, fol 102 y IX, fol 43 - 45.

MBN, ns 4870 (sa. Gg. 2), fol . 1 y 5306.

(sa. Gg, 85), fol . 50 - 54.

(٢) انظر كيفية وصف تطهير الجسم فى قضية حوكم فيها موريسكى أمام محكمة تفتيش فالنسيا:

"يتجردون من الملابس تمامًا ويقفون فى إناء به ماء ساخن وصابون ويغسلون الجسم كله وبعد ذلك يفرغون الماء ويضعون ماء آخر نظيفا فى وعاء ثم يدخلون أيديهم فيه قائلين "الله أكبر" (ثلاث مرات) "كن شاهدا لى أمام وجه الله" وبهذه الطريقة يغسلون جميع الأعضاء..... ثم يجلسون فى الإناء ويأخذون الماء بكلتا اليدين فيفرغونه على الكتف الأيمن (ثلاث مرات) ثم يضعون اليد اليمنى على الكتف الأيمن واليد اليسرى تحت الذراع الأيسر حتى تلتقى اليدان من وراء الظهر وإذا لم تتصل اليدان يستعملون عصا قصيرة لكى تلتقيا، وعندما تتصل اليدان يقولون: " (اللهم) هكذا صل روحى بالجنة" ثم يفرغون الماء بكلتا اليدين على الكتف الأيسر(ثلاث مرات) وثلاث مرات أخرى على الكتف الأيمن (يجب أن يكون عدد المرات تسع) وبعد ذلك يرتدون ملابس نظيفة".

C.p. Gredilla: Cerimonias de moros que hacen los moriscos. RABM, (la p.), t. IV, ps 165-166.

وقد قرأنا عن موريسكيين كانا يشغلان وظيفة الفقيه فى كوفرينتيس Cofrentes بفالنسيا أنهما – فى أيام الجمعة – كانت ابنة عم لهما تغسل رأسيهما بالصابون والصودا" وكانا بعد ذلك يرتديان ملابس نظيفة ويستعدان للصلاة، وأنهما كانا يغتسلان ثلاث مرات فى الأسبوع فى أيام الاثنين والأربعاء، والجمعة، انظر: MIV, leg. 49 exp. 27 AHN.

(٣) MCG, T- 19, ps. 250- 252.BRAH.

(٤) MBCEH, n XXXVIII, fol.-85-95 y 111, y n XXXIII, fol, ..3.

(٥) كان من الواجب بمقتضى السنّة الوضوء يوم الجمعة ليس قبل الفجر، وإنما عندما يبدأ اليوم، فى نفس اللحظة التى يتأهب فيها المسلم للذهاب إلى المسجد. وكان على المسلم أن يعيد الوضوء – بعد أن يكون قد أداه – إذا تأخر فى الذهاب إلى الصلاة، وكان من المعتاد القيام بالوضوء فى الاحتفال بالعيدين وقبل أن يدخل الحاج إلى مكة.

وكان الوضوء واجبا شرعيا كذلك للمس المصحف باستثناء الفتيان ومن يقومون بنسخ القرآن فهم يستطيعون لمسه شرعا حتى لو لم يكونوا متوضئين.

(٦) انظر "رسالة الموت" التى سنتناولها فى المكان المناسب.

(٧) MBN, n 5301 (Sa. Gg, 180), fol.2.

(٨) MBCEH, n XXXVIII, fol. 108, y n LXII, fol. 21.

(٩) A. 1583. MIV, leg. 49, exp. 1 pr. de Diego de Arcos, decl. de Luisa Caminero AHN.

(١٠) MBCEH, n IX, fol. 45-46.

(١١) MBN, n 5306 (sa. Gg, 85) fol. 52 v y 54

الفصل الثالث

الصـــلاة (الجزء الأول)

الصلاة - أصلها[1]:

يعتقد المسلمون أن آدم هو أول من صلى وقد أدى صلاة الفجر، وأن الله قد أوحى إلى داود صلاة الظهر وإلى سليمان صلاة العصر، التي يجب أن تتلى(*) في الثلث الأخير من النهار، وإلى يعقوب صلاة المغرب التي كانت تتكون من أربع ركعات. ويحكى في هذا الصدد أن يعقوب كان يؤدى صلاة المغرب وكان قد أتم ثلاث ركعات منها عندما قُدّم له قميص ابنه يوسف فلم يستطع تأدية الركعة الرابعة وسلم. وكان يونس هو أول من أدى صلاة العشاء.

ويحكى التراث الإسلامى أيضا أن هذه الصلوات الخمس قد شرعها الله لمحمد وأمته عند صعود النبى إلى السماء وأنه - النبى - عندما نزل إلى الأرض كان يشك فى ماهية الصلاة التى يجب أن يؤديها فظهر له الملك جبريل فى ساعة وقت صلاة العصر والمغرب والعشاء والصبح، وهكذا تعلم محمد طريقة أداء الصلوات الخمس اليومية.

(*) هكذا يخلط المؤلف بين الصلاة والدعاء مما يشوش الفكرة لدى القارئ الإسبانى، نلاحظ أن الخلط نفسه يتكرر فيما بعد. (المترجم)

وقد قورنت الصلاة ببستان به خمس شجرات لا تصل الشمس إلى ثلاث منها طوال اليوم، والاثنتان تصلهما الشمس طوال اليوم، الثلاث الأولى هى صلوات الصبح والمغرب والعشاء والاثنتان الباقيتان هما صلاة الظهر وصلاة العصر.

والنصوص القرآنية التى يبنى عليها الأمر الإلهى بالصلاة هى:

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ سورة رقم ٧ آية رقم ٢٠٤(*). ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ سورة رقم ١٥ آية رقم ٩٩ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الحق﴾ سورة رقم ٢٠ آية رقم ١١٣(**) ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ آية رقم ٢٩ سورة رقم ٤٤(***).

﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ سورة رقم ٢٠ آية رقم ١٣٠.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ سورة رقم ٢ آية رقم ١٣٩(****).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِى يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ سورة رقم ٣٣ آية رقم ٤١-٤٢.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ سورة رقم ٢ آية رقم ٢٣٦(*****).

(*) رقم الآية ٢٠٥ وليس ٢٠٤ كما ذكر المؤلف. (المترجم)

(**) لم نجد فى سورة طه آية بهذا المعنى، ونستغرب اختيار المؤلف لآيات معينة مع وجود آيات أخرى أكثر صراحة فى الأمر بالصلاة. (المترجم)

(***) رقم الآية الصحيح هو ٤٥. (المترجم)

(****) رقم الآية الصحيح هو ١٥٠. (المترجم)

(*****) رقم الآية الصحيح هو ٢٣٨. (المترجم)

﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ سورة رقم ٥ آية رقم ٩(*).

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ سورة رقم ٧ آية رقم ٢٩(**).

﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ سورة رقم ٧ آية رقم ٥٤(***).

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ سورة رقم ٧ آية رقم ٥٣(****)[٢].

مكان الصلاة وما يناسبها من لباس وحذاء[٣]:

يجب أن يُختار لتأدية الصلاة المكان الأنظف والأكثر عزلة، سواء في المناطق الآهلة بالسكان أو في الصحراء. وكان الموريسكي عند الصلاة يقف على سجادة يقبّلها قبل أن يبدأ، وكانت السجادة عادة من نسيج نباتي، أي ما نسميه نحن حصيرة، ولكن كان من المشروع أيضا استعمال نسيج الكتان أو القطن، إذ إنه يفضل دائما على الفرش الذي يحتوي على شعر - والذي كانوا يستعملونه أيضا - فلم يكن مسموحاً لهم بوضع اليدين عليه عند السجود. وكان مباحًا وضع اليد على النسيج النباتي، وكان موريسكيو فالنسيا يستعملون جلد الخروف أيضا للصلاة[٤].

واللباس يجب أن يكون نظيفا على الأقل - إن لم يكن أنيقا - وكان يجب أن يُرش الماء مرتين مع التدليك على أكثر أجزاء الثوب قذارة، ولا يجب تأدية ذلك مع الثياب التي كانت معرضة للشمس أو الهواء أو المطر أو الندى أو متصلة بالأرض أو الخشب.

(*) رقم الآية الصحيح هو ٦. (المترجم)

(**) رقم الآية الصحيح هو ٣١. (المترجم)

(***) رقم الآية الصحيح هو ٥٦. (المترجم)

(****) رقم الآية الصحيح هو ٥٥. (المترجم)

ويلزم كل مسلم بأن يرتدى للصلاة ثوبا كريما، فيجب أن يغطى ثوب الرجل على الأقل سوأتيه وساقيه. ومن المفضل أن يستر الجسد من السرة وحتى الركبتين. وكان على المرأة أن تغطى جسدها كله عدا الوجه واليدين، وإذا كانت المرأة خادمة، تتساوى بالرجل من حيث أعضاء الجسم التى يجب أن تغطى. ومع ذلك كان من المفضل بالنسبة لها ألا تكشف سوى الرأس، ونفس الشيء بالنسبة للأمة التى أزمع سيدها عتقها ولكنه لم يعتقها بعد.

وكان الرجل يغطى جسده بثوب واحد، فإذا كان الثوب واسعا كان يسند إلى الرقبة ويربط عند الأطراف. وإذا كان الثوب ضيقا فيكفى أن يغطى ما بين السرة والركبتين. كان من عادة المرأة أن تستر جسدها بثوب طويل يكفى لتغطية الرأس والجسم والأطراف، ومع ذلك كانت المرأة ترتدى ثوبا قصيرا يسهل حركتها أثناء الركوع والسجود إذا كانت تصلى بمفردها فى بيتها. وكانت الموريسكية الثرية عند انتهائها من الوضوء، ترتدى لباسا يسمى القندرة alcondora من الكتان أو الحرير تزينه رسوم مختلفة الألوان.

وعند عدم وجود ثوب يمكن تأدية الصلاة عاريا، بشرط أن يصلى كل واحد بمفرده نهارا أو فى الليل الذى يضئ فيه القمر، أما إذا كان الليل شديد الظلمة فمن المباح تأدية الصلاة جماعة وإن كانوا عراة، وفى هذه الحالة كان لهم إمام يؤم الصلاة. وفى كلتا الحالتين كان واجب المسلم أن يؤدى الصلاة واقفا ساكنًا، أى بلا ركوع أو سجود، ربّما للتوقير نظرا لحالة العرى. ومن شرع فى الصلاة عاريا ثم أتيحت له فرصة ستر جسده، وجب عليه أن يستر جسده فورا وأن يبدأ الصلاة من جديد. وكان من المفضل فى الصلاة الجماعية استعمال أفخر الثياب، أما فى صلاة الفرد فيكفى أى ثوب يستر السوأتين.

ولم يكن مباحا ربط الحزام أثناء الصلاة ولا تشمير الكم ولا إزاحة الشعر لتفادى الحر، ولكن كان من المشروع قبل أن تبدأ الصلاة استعمال الثياب اللازمة لتفادى الحر أو البرد. ومن يحمل على كتفه سيفا أو قوسا أثناء الصلاة يجب عليه أن يغطيهما بثيابه.

ويمكن أن يكون النعل من الجلد أو الصوف. ويجب أن يكون الجلد مدبوغا بالماء أو بالنار أو بوسيلة أخرى حتى لا يكون نيئا، إذ كان من المحظور أثناء الصلاة استعمال الجلد النيئ للباس أو الحذاء، لأنه نجس. وكانت الموريسكيات أثناء الصلاة يستعملن نعالا من الخشب، ويجب أن يتميز الإمام عن الجميع بنظافة ثيابه وبارتداء سروال وخمار(٥).

أوقات الصلاة(٦) :

لم تكن الصفة الإلزامية للصلوات اليومية [الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء] تقتصر على تأدية الصلاة، وإنما كانت تحدد وقت كل صلاة، ورغم ذلك كان يمكن أن يختلف وقت تأدية الصلاة إذا وجدت أسباب خطيرة. وقت صلاة الصبح هو بين بزوغ الفجر وشروق الشمس، وهكذا كان يمكن أن تبدأ صلاة الصبح مع طلوع الفجر، وكان يجب أن تكون قد أديت عند طلوع الشمس أو قبلها بلحظات، أى - باستعمال جملة كان يرددها الموريسكيون - "فى الوقت الذى تختفى ظلمة الليل ويبدأ وضوح اليوم الجديد وتختفى فيه النجوم"، "قبل أن تخرج أشعة الشمس". كان من المفضل انتهاز أول الوقت لأداء الصلاة، وبعد الانتهاء من أداء صلاة الصبح مباشرة كان من المشروع قضاء الصلوات الواجبة الفائتة أى التى لم يؤدها الموريسكى فى أيام سابقة فى وقتها المحدد. وكان من المحظور فى ذلك الوقت أداء صلاة تطوعية، فهذه لم يكن من المشروع أداؤها حتى ترتفع الشمس فى الأفق "بارتفاع رمح".

ويمكن أن تبدأ صلاة الظهر فى اللحظة التى تصل فيها الشمس إلى منتصف مجراها فى الأفق وتبدأ فى المغيب، ولا بد من الانتهاء من صلاة الظهر "قبل أن يكون طول ظل الإنسان مساويا لطوله الفعلى". ويمكن أن تبدأ صلاة العصر فى منتصف المساء عندما "إذا وقف الإنسان مستقيما يمكن أن يرى الشمس عند رفع عينيه إلى السماء". والوقت الثانى المناسب لأداء هذه الصلاة هو "عندما يكون طول الإنسان المتجه إلى

الشمس مساويا لضعف طوله الفعلى"، ويجب الانتهاء من أداء صلاة العصر "عندما يكتسب لون أشعة الشمس صبغته الصفراء المميزة". بعد هذه الصلاة لم يكن مشروعا أداء أية صلاة تطوعية، وكان من المسموح قضاء الصلاة الفائتة.

يجب أن تؤدى صلاة المغرب بعد غياب الشمس بقليل، ويجب أن يكون المسلم قد انتهى من أدائها - كما تقول الشعائر فى أسلوب جميل معبر - "عندما يختفى من الأفق الشفق الأحمر الذى يظل فيه بعد غياب الشمس ويتحول إلى لون رمادى" أو "عندما يتحول الشفق الأحمر إلى اللون الأبيض".

ويمكن أن تبدأ صلاة العشاء بعد الوقت المحدد للانتهاء من صلاة المغرب ويجب أن تكون قد أديت عند انتهاء الثلث الأول من الليل، أما الأشخاص ذوو الأعمال فيجوز لهم قضاء صلاة العشاء خلال الليل كله بشرط ألا يناموا قبل أدائها. وبعد صلاة العشاء تؤدى صلاة أخرى واجبة بمقتضى السنة كما سنذكر فيما بعد.

هذه هى شروط الشعائر الموريسكية بالنسبة للأوقات التى يجب أداء الصلوات الخمس فيها يوميا. ولا شك فى أن الموريسكيين قد حافظوا بدقة على أداء هذا الواجب، ومن باب الاستثناء فقط - نظرا لجو عدم التسامح الذى كان يحيط بهم - يمكن أن يكون الموريسكيون قد غيروا ساعات صلواتهم، بل ربما ألغوا هذه الصلوات أو اختصروها حسب الأحوال. إن موريسكيى ريليو Relleu بمملكة فالنسيا مثلا قد اعتادوا أداء كل الصلوات فى وقتين: عند الظهر وفى منتصف الليل، أى عند التواجد فى منازلهم.

هوامش الفصل الثالث

(١) MBCEH, n L 11,fol .607.

(٢) انظـر: L'islamisme, p. 79.

(٣) MBCEH, n LXII, fol.27.

MBN, n 19474. fol. 27

Guerra, Catecheses, fol.27

(٤) انظر الرسالة التي كتبها عبد الله بن عبد الملك من Tortoles في Tarazora إلى عمه أو ابن عمه الفقيه يطلب منه أن يرسل فروة تصلح شرعا كمصلية. هذا هو نص الفقرة التي نعنيها: "أرجوكم كثيراً أن تشتروا لي من بورخا Borja أو من أي مكان فروة حلالا Halal لأداء الصلاة، فأنا محتاج إليها جدا، وهذا أمر عاجل. وإذا وجدتم فروة ثعلب، حتى لو غير مصبوغة، لتكن بيضاء فهذا يكفي حتى لا ينكشف الأمر".

Gil, Rib. Y Sanch. Text alj. P. 134.

(٥) في كتاب Catecheses ص٢٦ لعالم اللاهوت بدرو غيرا دي لوركا تُذكر تفاصيل معينة خاصة بالزي الموريسكي: كان الموريسكيون يرتدون أزياء من الصوف والكتان، وهكذا يستعدون جيدا بالزي الخاص بالمبتدئين في الاحتفال بشعائر طائفتهم. يرتدون قمصانا لا تصل إلى ما تحت السرة، ومن السرة حتى الكعبين يرتدون سراويل من الكتان تُعلَّق بأجسادهم عن طريق حبل يسمونه في اللغة العربية شريطة xa-reta ثم يلتحفون بغطاء من الكتان أو الكساء alquicel (نستعمل هنا اللفظ الذي يستخدمونه) واسع جداً. كان نعلهم – من الخشب أو الجلد، يتركونه دون حراسة على باب الجامع aliama – لا يربطونه بأي رباط، وكانوا يغطون الرأس بشريط أبيض عبارة عن لفات عديدة يضعون في الجزء العلى منها ريشة بيضاء أو ملونة. بعضهم – بدافع من الغيرة الدينية أو طبقا لعادات قديمة – يحفرون في الذراع أو الركبة بإبرة ويلقون في مكان الحفر بمسحوق معين فتتكون صور عديدة عجيبة أو حروف أو رموز ثناءً لله حتى يبدون كمتدينين في نظر محمد".

(٦) MBCEH ,N XXXVIII, fol. 103 y n LXII. Fol 26 v.

MIV, leg. 56, exp. I.

Bc, en Me HE , t , V . ps , 269- 270.

الفصل الرابع

الصــلاة (الجزء الثانى)

أركان الصلوات الخمس[1]

قبل أن نعرض أركان الصلاة اليومية الواجبة سنعدّد الشروط الأزمة لها وللصلاة الواجبة بمقتضى السنة، وهذه الشروط هى:

١- نية إتمام الصلاة.

٢- أن يكون الثوب نظيفا لائقا بحيث يغطى الرجل سوأتيه(*) وأن تستر المرأة جسدها كله كما وضحنا.

٣- أن يكون المسلم قد تطهر.

٤- أن يكون المسلم قد توضأ.

٥- أداء الصلاة واقفا إلا فى حالة المرض.

٦- قول "الله أكبر"(**) حين تكون اليدان مرفوعتين بمحاذاة الكتفين وفى اتجاههما بحيث تكون أطراف الأصابع فى ارتفاع الأذنين. هذه الجملة "الله أكبر" تعتبر بداية الصلاة بشكل رسمى كما سنذكر فيما بعد.

(*) هكذا ورد فى النص الإسبانى ونعتقد أن كاتب المخطوطة يشير إلى العورة. (المترجم)

(**) يستخدم المؤلف تعبير "الله كبير". (المترجم)

٧- اتجاه الوجه شطر القبلة أى نحو الشرق فى اتجاه الكعبة بمكة.

٨- قول "الحمد لله".. أى السورة الأولى من القرآن.

٩- الركوع.

١٠- السجود حتى تلمس الجبهة الأرض.

١١- التسليم مع نطق الكلمات الآتية: "السلام عليكم" وهو ما يعتبر نهاية الصلاة.

سنرى الآن ما هى الحركات الخاصة بكل صلاة يومية، أولى الصلوات اليومية هى صلاة الصبح وتتكون من ركعتين(*)، كل ركعة تؤدى بانحناء الجسم نحو الأمام حتى تستند اليدان إلى الركبتين ويصاحبهما قراءة السورة الأولى فى القرآن بصوت عال - وتبدأ السورة الأولى بـ"الحمد لله ...." وقراءة سور أخرى، أطول سورة ممكنة. وقبل الركوع فى الركعة الثانية، يجب أن يقرأ الدعاء التالى المسمى دعاء القنوت ونصه كما يلى:

"إلهى نرجو عونك ورحمتك، نؤمن بك ونتوكل عليك، نسبح بعظمتك الإلهية، نهب إليك أعمالنا الثنائية، لا ننكر أفضالك، نبرأ ممن يبتعد عنك، لا نعبد إلا أنت، ندعوك وحدك، اللهم تقبل سجودنا و تكريمنا (إياك). نرجو رحمتك وغفرانك ونخشى العقاب الذى ستنزله على الكافرين".

وبعد هذا الدعاء يركع المسلم، ثم بعد ذلك يجلس وجانبه الأيمن مستند إلى الأرض - كما سنوضح فيما بعد - ويردد الدعاء التالى وهو على هذا الوضع:

"التحيات والصلوات والطيبات لله، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله، اللهم صلّ على محمد وعلى آله كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وكما رحمت

(*) لا يفرّق المؤلف بين "الركوع" و "الركعة" التى تشم لقراءة الفاتحة وسورة أخرى ثم الركوع أو السجود يستخدم هنا تعبير" ركوع" وهو خطأ. (المترجم)

إبراهيم وباركت على إبراهيم وآله في العالمين. الحمد والعظمة منك ولك، أشهد أني ظلمت نفسي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، اغفر لي وارحمني فأنت الرحيم" وفي النهاية يسلم قائلا: "السلام عليكم".

وتتكون صلاة الظهر من أربع ركعات يقرأ في أول ركعتين السورة الأولى "الحمد لله..." وسورة أخر ليست طويلة كالسورة التي تقرأ في صلاة الفجر ويقرأ السورتين بصوت منخفض بحيث لا يسمعه من يصلي بجواره، وفي نهاية الركعة الثانية يجب أن يقرأ التحيات كما يحدث في صلاة الفجر. بعدها مباشرة - دون أن يسلم - يقوم قائلا "الله أكبر" ويصلي ركعتين بسجودهما ويقرأ بصوت منخفض - السورة الأولى "الحمد لله...." فقط، ثم يسند جانبه إلى الأرض ويقرأ التحيات وهو على هذا الوضع ثم يسلم.

تؤدى صلاة العصر بنفس طريقة صلاة الظهر مع مراعاة أن تكون السورة التي تقرأ أقصر من السورة التي تقرأ في صلاة الظهر. وتتكون صلاة المغرب من ثلاث ركعات، في أوّل ركعتين يقرأ سورة الفاتحة وسورة أخرى بصوت مرتفع ثم يركع ويسجد ويقرأ التحيات. بعد ذلك ينهض المسلم ويؤدى الركعة الثالثة ويقرأ سورة الفاتحة بصوت منخفض ثم يركع ويسجد ويقرأ التحيات ويسلم.

وتتكون صلاة العشاء من أربع ركعات في أوّل ركعتين يقرأ سورة الفاتحة وسورة أخرى بصوت مرتفع ويركع ويسجد. وينتهي الجزء الأول من هذه الصلاة بقراءة التحيات. بعد ذلك ينهض المسلم لأداء الجزء الثاني، أي الركعتين الأخيرتين، ويقرأ فيهما سورة الفاتحة فقط بصوت منخفض، بعد ذلك يركع ويسجد ويقرأ التحيات ويسلم.

كان الموريسكيون يعتقدون أن الله قد وعد أن يدخل الجنة كل من أدى الصلاة الواجبة بشكل دائم ودقيق دون أن يترك ركنا من أركانها، وكانوا يعتقدون أن مصير من لا يؤدى هذا الواجب المقدس غير محدد، وذلك لعدم وجود وعد محدد بشأن هؤلاء (المقصرين)، فمصيرهم يتوقف على إرادة الله الذي يمكن أن يعاقبهم أو يُدخلهم الجنة طبقا لحكمه الذي لا مرد له.

السور التى تقرأ فى الصلاة:

كان من العادة أن تقرأ سور قرآنية فى الصلاة كما أشرنا عند الحديث عن الصلوات المختلفة، ومن أكثر السور شيوعا فى الصلاة السور التى نكتبها فيما يلى:

- السورة الأولى (مكية سبع آيات).

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

- السورة الثالثة: الآيات ١٦-٢٤(*)

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾(**).

(*) الرقم الصحيح للآيات هو ١٨-٢٥ من سورة آل عمران. (المترجم)

(**) نتحفظ على ترجمة الآية ٢٢ (رقم ٢١ فى النص الإسبانى). (المترجم)

– سورة الأعلى (مكية، ١٩ آية).

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ(*) (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى (١١) الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ(**) (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ(***) (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِى الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾.

– سورة الشمس (مكية، ١٥ آية)

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا(٢) (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) ﴾.

– سورة القدر (مكية، ٥ آيات)

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ(٣) (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) ﴾.

(*) النص الإسبانى يترجم الآية الكريمة هكذا: "تذكّر فنصائحك مفيدة". (المترجم)

(**) النص الإسبانى يترجم الآية الكريمة هكذا: "لا يموت فى الله ولا يحى". (المترجم)

(***) النص الإسبانى يترجم الآية الكريمة هكذا: "وذكر اسم ربه فدعاه، أى فطلب منه شيئا". (المترجم)

– سورة النصر (مكية، ثلاث آيات)

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.

– سورة الإخلاص(*) (مكية، أربع آيات)

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾.

سورة الفلق (مكية، خمس آيات)

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿قُلْ(**) أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

سورة الناس (مكية، ٦ آيات)

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾.

(*) في النص الإسباني "سورة وحدانية الله". (المترجم)

(**) النص الإسباني لا يترجم كلمة "قل". (المترجم)

هوامش الفصل الرابع

(١) MBCEH n IX, fol. 47- 48 y 52-53.
Bc, en Me HE, t. V. ps. 273.
Tassy, l'islamisme, ps. 221-222.

(٢) صالح هو اسم النبى الذى أرسله الله إلى الثموديين وهم شعب فى الجزيرة العربية قبل الإسلام.

(٣) هذا هو معنى ليلة القدر – الأحكام التى لا مرد لها – إذ يعتقد أن هذه الليلة هى التى أنزل فيها القرآن على محمد وأن فيها تقدر كل أمور الكون لمدة سنة.

الفصل الخامس

الصــلاة (الجزء الثالث)

الأذان أو النّداء للصلاة[1]

الأذان هو دعوة المسلمين إلى الصلاة، ويــؤديه المـؤذن من على مئذنة المسجد. كان اسمه الأذان" الخارجي" تمييزا له عن الأذان الداخلى – وهو الإقامة – والذى كان يؤدى داخل المسجد كإشارة لبدء الصلاة.

تنص السنّة عل الأذانين الخـارجى والداخلى قـبل كل صـلاة واجبـة تؤدى فى المسجد أو يؤديها مسلمون مجتمعون لتأدية الصلاة فى مكان غير المسجد، أما الصلاة التى يؤديها المسلم بمفرده – وإن كانت واجبة – فلا يسبقها إلا الإقامة. ولم يكن هناك أذان قبل الصلاة التطوعية (النوافل)، وكانت النساء تعفى من الأذان عموما، وإذا تُرك الأذان الداخلى سهوا لا تفسد الصلاة بتركه، أما إذا تُرك عمداً فيجب أن يطلب المسلم مغفرة الله على الذنب الذى اقترفه، وفى هذه الحالة لا تفسد الصلاة كذلك.

كـان على المؤذن أن يؤدى الأذان الخارجى بأن يقف فى مكان مـرتفع من مـئذنة المسجد أو الصـومعة asomua ويتجه نحو المحراب أو الموضع الذى يقف فيه الإمام داخل المسجد. ولذلك كان ممنوعا أداء الأذان من أحد الصفوف التى يشكلها المسلمون داخل المسجد عند الصلاة. ويجب أن يُكلف بالأذان من له صوت قوى ويستطيع نطق كلمـات الأذان بشكل صحيح. وكـان يمكن أن يؤدى الأذان الخارجى شخص ما ثم يؤدى شخص آخر الأذان الداخلى. وكان الوقت المناسب للأذان هو قبل الصلاة مباشرة،

ما عدا صلاة الصبح إذ كان مسموحا أن يؤذّن قبلها بوقت أطول حتى يتوفر للمسلمين الوقت اللازم للاستعداد للصلاة عندما يستيقظون.

وعندما يبدأ المؤذن الأذان كان يُدخل إصبعه الأيمن السبابة في إذنه اليمنى ثم يردد بصوت مرتفع بكل قواه "الله أكبر" (مرتان) ثم يقول بصوت منخفض "أشهد أن لا إله إلا الله" (مرتان) "أشهد أن محمد رسول الله" (مرتان) ثم يردد نفس الكلمات بصوت مرتفع، بعد ذلك يقول بصوت مرتفع "حى على الصلاة"، "حى على الفلاح" (مرتان) "الله أكبر".

(مرتان) "لا إله إلا الله".

وكان على من يسمع الأذان أن يردد: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم"، وفى الأذان الذى يسبق صلاة الفجر - وبعد جملة "حى على الفلاح" - كان المؤذن يقول "الصلاة خير من النوم" (مرتان) وكان من يسمعه يقول "قولك حق وعدل" أو "صدقت يرحمك الله". وعندما يؤذن المؤذن لا يجوز له أن يأكل أو يشرب أو يتحدث أو يرد السلام على من يلقيه عليه. كان مسموحا له أن يستدير ناحية اليمين أو ناحية اليسار أو نحو القبلة حتى لو فى منتصف الأذان، وكان بعض الفقهاء يرون أن راكب الحصان يجوز له أن يؤدى الأذانين(*) (وهناك من الفقهاء من يعترض على هذا الرأى).

كان هذا هو الشكل الرسمى للأذان عند المسلمين عندما كان مسموحا لهم بممارسة شعائر الإسلام علنا فى المساجد. ولما صدرت قرارات الحظر اضطروا إلى التخلّى عن الاحتفالات الرسمية. وهناك بديل عجيب للمؤذن كما يروى أحد موريسكيى فالنسيا أثناء محاكمته. يحكى أنه فى قرية سوتو Soto[٢] كان يعيش شاب فرنسى كُلّف بحماية المواشى، وكان هذا الشاب قد تحول إلى الإسلام، وكان موريسكيو القرية يحترمونه كثيرا لأنه من أهل دينهم فوثقوا به تاما وتعاقدوا معه "على أن يقوم فى

(*) هناك خلاف بين الفقهاء حول كراهة أو عدم كراهة أذان الراكب، أما الإقامة على هذا النحو فلم يرد فيها شىء، ولكننا نتساءل كيف يجوز لراكب الحصان إقامة الصلاة، خاصة إذا كان فى مسجد. (المترجم)

الساعات الأولى من شهر رمضان بنفخ البوق - بحجة أن يحملوا إليه المواشى التى يرعاها- وأن يمر على بيوت الموريسكيين لإيقاظهم لكى يتناولوا السحور ويؤدوا صلاة الفجر، وكان ذلك مقابل حصوله على عملتين أزيد من الأجر المتفق عليه"[٣] يجب أن نعترف بأن الموريسكيين - مع بساطتهم - كانوا يتحايلون للتهرب من تنفيذ الأوامر الملكية الخاصة بمنع إقامة شعائرهم، وكانوا يتجنبون أى تصرف يمكن أن يشى به المسيحيون. كل ذلك دون التفريط فى العبادة الدينية التى كانوا يؤدونها وفقاً لظروفهم.

تتكون الإقامة أو الأذان الداخلى من نفس كلمات الأذان الخارجى مضافا إليها - بعد جملة "حى على الفلاح" - الصيغة المميزة للأذان الداخلى: "قد قامت الصلاة"، ويجب أن يقف المكلف بإقامة الصلاة خلف الإمام وعلى يساره، وعندما يردد عبارة "حان وقت الصلاة(*) يجيب المصلون" أدامها الله ما دامت السماء والأرض "وبعد الإقامة يردد الدعاء التالى:

"اللهم رب هذه الدعوة التامة المفيدة والصلاة المختارة بارك على محمد عبدك ورسولك وآته الفضيلة والوسيلة والمقام المحمود الذى لم تمنحه لأحد يا رحيم يا رب العالمين".

حركات الجسم فى أثناء الصلاة[٤]:

تتعدد أوضاع جسم المصلى، فقد حدد التراث الإسلامى هذه الأوضاع بشكل إجبارى، وكانت التعاليم الموجودة لدى الموريسكيين لا تقتصر على ذكر ما يجب القيام به من ركوع وسجود وإنما تحدد لهم قواعد مفصلة جدا بخصوص كل وضع من أوضاع الصلاة، وكل وضع يصاحبه دعاء أو ورد Jaculatorias.

(*) أعتقد أنها ترجمة - غير دقيقة - لجملة "قد قامت الصلاة". (المترجم)

(١) الإحـرام:

عبـارة عن رفع اليـدين بمسـتوى الكتـفين في اتجـاهـهـمـا - بحيث تكون أطراف الأصابع في مستوى ارتفاع الأذنين - ثم خفضهما بعد ذلك مع ترديد: "الله أكبر".

بعد إقامة الصـلاة تبدأ قراءة القرآن متـأنية وبنطق واضح وفي تواضع كما لو كانت هذه الصـلاة هي الأخيرة و " كما لو كانت الجنة على اليمين والنار على اليسار وكما لو كان الصراط من تحت المصلي(٥).

٢- الركـوع:

عند الركوع في الصـلاة يقـال "الله أكبر" وتوضـع اليدان على الركبـتين، ويكون الجـانبـان في مـسـتوى ارتفـاع الرأس خـلال الركـوع، ويمكن أن تتذكر حينذاك جـملة "سبحان الله" أو "سبحان ربي العظيم"، ثم تُرفع الرأس مع نطق جملة "سمع الله لمن حمده" ثم يسكن المصلي للحظات كافية لكي يستريح من الوضع المرهق الذي كان عليه. بعد ذلك يقول: "اللهم ربنا لك الحمد".

٣- السجـود:

عند نطق جملة "الله أكبر" يسجد المصلي على الحصيرة أو السجادة الموضـوعة لهذا الغرض فيسند إليها الجبهة والأنف والركبتين وأطراف أصابع القدم، وتكون اليدان بمحاذاة الأذنين أو أقل قليلا ويكون أصبعا القدمين (الإبهام) مرتكزين على الأرض، ويراعى أن يكون الذراعان منفصلين، دون أن يلتصقا بالجانبين وألا يستند المرفقان إلى الحصيرة. ويمكن أن تتذكر خلال السجود الجملة الآتية ثلاث مرات: "سبحان ربي الأعلى" أو "اللهم اغفر لي وارحمني وأعنّي وسامحني" أو "تعالى رب العقول والأرواح".

بعد ذلك يرفع المسلم رأسه قائلا "الله أكبر" ويسند الجانب الأيسر إلى الحصيرة ليقرأ السور المفروضة بحيث يثنى القدم اليسرى ويمد قدمه اليمنى وتكون راحة الأصبع الإبهام مرتكزة على الأرض وتستند اليدان على الركبتين: اليد اليمنى على اليسرى، تكرر بعد ذلك عملية السجود ويرتكز الوجه على الحصيرة كما يحدث فى السجدة الأولى. وفى الركعة الثانية يرتكز السلم بنفس طريقة الركعة الأولى، أى يجلس على الأرض على جانبه الأيسر وتستند يده اليمنى على ركبته اليمنى ويده اليسرى على ركبته اليسرى. يجب أن تكون قبضتا اليدين مضمومتين عدا الأصبع السبابة لليد اليمنى فهو يرفع عند نطق جملة "أشهد أن لا إله إلا الله" تعبيرا عن وحدانية الله وتهديدا للشيطان.

ويُعفى من السجود على الجبهة فى حالات ألم الرأس (الصداع) والعينين legana وفى وقت الحرب وعند الاضطرار إلى الإمساك بحبل الفرس، نظرا لأن الحبل قصير ومن المستحيل أن تصل اليدان إلى الأرض، ولا شك فى أن هذا الاستثناء الأخير لم يكن يطبق فى العصر الذى يدخل فى نطاق دراستنا، لكنه مكتوب فى التعاليم الموجودة لدى الموريسكيين، وهؤلاء بدورهم كانوا قد أخذوه عن الأصول العربية فى قرون سابقة.

صلاة الجمعة[٦] :

يوم الجمعة بالنسبة للمسلمين هو اليوم المخصص لعبادة الله بالصلاة وأداء الأعمال الصالحة كالصيام وقراءة القرآن والتصدق. وصلاة هذا اليوم يتقبلها الله بشكل خاص وهى واجبة على كل مسلم لا يمنعه من حضورها أحد الأعذار الشرعية التى سنبينها فيما بعد. من هنا جاء الالتزام بالسكن على مسافة معينة من المسجد، ففيه تقام صلاة الجمعة التى تصحبها خطبة كما سنبين فيما بعد. وطوال وقت أداء شعائر صلاة الجمعة، كان من الممنوع البيع والشراء وأى عمل آخر يمنع من أداء هذا الواجب المقدس، وفى بقية اليوم لم يكن العمل ممنوعاً.

كان الصبية يقفون فى المسجد خلف الكبار، وكانت النساء تقف خلف الصبية، وكان الجميع يقفون فى صفوف ليس فيها فُرج، لم تكن البنات يأتين إلى المسجد بشكل واجب إلا إذا كان فى المسجد مكان منعزل مخصص لهن، وحتى فى هذه الحالة يجب أن يذهبن إلى المسجد محجبات. كانت صلاة الجمعة تؤدى فى الوقت بين منتصف النهار والمساء، وكان يجب أن يسبقها الوضوء حتى لو لم يطرأ ظرف أو سبب يوجبه شرعًا. فى الوقت الذى يصعد فيه الفقيه إلى المنبر ويأخذ بيديه العصا أو العكّاز(٧) ocaz يؤدِّى الأذان بصوت عال فى اتجاه المنبر.

كانت صلاة الجمعة تتكون من عشر ركعات تؤدى بالشكل التالى: فى البداية تؤدى ركعتان تقرأ فى كل واحدة منهما السورة الأولى من القرآن "الحمد لله...." والسورة رقم ١١٣ التى تبدأ بـ"قل أعوذ برب الفلق" (عدة مرات) وتنتهى بالتسليم. بعدها مباشرة وفى وضع الجلوس على الأرض (للتشهد)، كان المسلم يقرأ مرة واحد سورة "الحمد لله...." ويقرأ سبع مرات دعاء(*) الكرسى وهو:

"إلهى الله الواحد لا إله إلا هو الرحيم لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة (ولا نوم) له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم. لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى (لا انفصام لها) والله سميع عليم، الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون"(**)(٨).

(*) هكذا ورد فى النص الإسبانى ولم ترد كلمة آية، ولعله دعاء كان يردده الموريسكيون نظرا لإضافة عدة كلمات قبل ذكر الآية الكريمة. (المترجم)

(**) يلاحظ أن الترجمة الإسبانية للآيات الكريمة ليست دقيقة. (المترجم)

بعد تلاوة الدعاء السابق ينهض المسلم ويواصل الصلاة فيؤدى ثمانى ركعات وتسليمتين: إحداهما فى نهاية الركعة الرابعة والثانية فى نهاية الركعة الأخيرة. وتتضمن كل ركعة قراءة سورة الفاتحة مرة واحدة والسور التى تبدأ بأية "إذا جاء نصر الله" مرة واحد أيضا وسورة "قل هـو الله أحد" حتى خمس وعشرين مرة. بعد انتهاء التسليمة الأخيرة – وقبل النهوض– يجب أن يردد المسلم جملة "لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم" سبعين مرة(*). بعد انتهاء الشعائر يخرج المسلمون من المسجد، تخرج النساء أولا وبعدهن الرجال.

حالات الإعفاء:

يعفى من صلاة الجمعة شرعا الحالات الثماني الآتية:

١– المريض.

٢– المرأة غير الطاهرة (الحائض والنفساء).

٣– المسافر الموجود فى مكان غير آهل بالسكان.

٤– الصبى الذى لم يصل بعد إلى سن التكليف.

٥– الشيخ الكبير الذى وهنت قواه.

٦– البنات اللاتى لم يبلغن سن التكليف.

٧– الأعمى الذى لا يجد من يرشده.

٨– الإنسان الذى تغيب لأسباب مهمة ولما حان وقت الصلاة لم يجد وقتا للذهاب إلى بيته للاستعداد.

(*) من المؤكد أن الصلاة الموصوفة هنا ليست صلاة الجمعة. (المترجم)

ومن توجه إلى المسجد فى يوم ممطر بنية أداء صلاة الجمعة ولكثرة الوحل لم يجد طريقا يعبر منه إلى المسجد عليه أن يؤدى الصلاة راكعا وساجدا فى الوحل فتظهر آثار الوحل على جبهة وأنف المسلم الذى أدّى الصلاة فى هذه الظروف فيمكن أن يتعرف على هذه الآثار المسلمون الخارجون من المسجد والذين لاحظوا غيابه.

عرفنا - ممّا تقدم - الطريقة التى كانت تؤدى بها صلاة الجمعة فى المسجد خلال وقت معين على ضوء ما وجدنا فى التعاليم، ولكن هذه التعاليم تشير أيضا إلى أنه لما منعت السلطات المسيحية الموريسكيين من أداء الشعائر الإسلامية علانيّة أوصى الفقهاء باتباع أفضل طريقة لأداء الشعائر وبسّطوا هذا الاحتفال من حيث المكان والوقت، كما تؤكد ذلك أدلة كثيرة عثرتُ عليها فى ملفات الموريسكيين الذين طاردتهم محاكم التفتيش.

وقد أولى الموريسكيون هذه الصلاة أهمية كبيرة إذ كانوا يعتقدون أن الله قد وعد من يؤديها (على هذه الحالة) نفس أجر من يؤديها فى المسجد خلف الإمام. وكان هذا التبسيط سببه الظروف، وهكذا تشير التعاليم الموريسكية، فعندما نتحدث عن صلاة الجمعة تقول بالنص: "هذه الصلاة نؤجر نحن عليها كثيرا إذ أننا فى عصر وفى بلد لا نتمكن فيهما من الذهاب إلى حيث يجب أداء صلاة الجمعة مع الإمام". وبعد هذه الفقرة مباشرة تلح التعاليم على التوصية بأداء صلاة الجمعة بحيث إنه إذا تعذر أداء الصلوات اليومية فى أوقاتها فيجب أن تؤدى الصلوات على الأقل فى الليل. وتقرر التعاليم أن أجر من يؤدى الصلاة فى الليل لا ينقص. لقد وصل الموريسكيون إلى هذا الحد فى محاولاتهم المستمرة أن يبدوا كمسيحيين كاثوليكيين علانية وفى المظهر الخارجى، وفى أن ينفذوا فى الوقت نفسه الأمور الجوهرية فى الشريعة والتراث الإسلامى بحيث يتجنبوا شكوى أعدائهم فى الدين.

كان الموريسكيون يجتمعون عادة فى ليل يوم الجمعة فى بيت أحدهم بعد أن يكون كل منهم قد أدى فى بيته الوضوء الذى يسبق الصلاة فى هذا اليوم" حتى لو استدعى الأمر شراء الماء". وكان الموريسكى قبل أن يؤدى صلاة الليل يتم صلاة الظهر التى

تتكون من أربع ركعات كما تنص الشريعة. وكان يحضر اجتماعات ليل الجمعة الموريسكيون البالغون، وهؤلاء كانوا يؤدون الصلوات المفروضة إلى جانب تعلّم شعائر الدين على أيدى الفقهاء. كان الفقهاء يحضرون فى بعض الأماكن مرتدين القمصان المطرزة بالحرير والذهب(*) ويجلسون على كراسى والعكاز فى يدهم وأمامهم مائدة، وفى هذا الوضع كان الفقيه يعلّم جموع الموريسكيين ويتقاضى عن عمله راتبا محددا تساهم فيه الجماعة كلها، إلى جانب الهدايا التى يتلقاها من الموريسكيين الأثرياء لكى يعلّم أبناءهم شعائر الإسلام. وكانت قراءة القرآن تشكل أساس التعليم فى تلك الاجتماعات،(٩) وكان واجبا أن يوجه الفقيه كلمة إلى الحاضرين فيلقى خطبة aljotba، وكان ممنوعا على الحاضرين أن يتحدثوا فيما بينهم بعد الخطبة(**)، وكان عليهم جميعا أن يجلسوا بحيث يشغلون أماكن فى الصفوف دون أن يتركوا فُرجا مثلما يحدث عندما تؤدى الصلاة فى المسجد.

وبعد الدخول إلى مكان الاجتماع مباشرة كان على كل مسلم أن يؤدى ركعتين بمفرده. وعندما كان الفقيه – الذى يقوم بدور الإمام – ينطق جملة "سمع الله لمن حمده" كان المصلون يجيبون: "ربنا لك الحمد". وكانت الصلاة تؤدى طبقا للتعاليم التى ذكرناها مع مراعاة متابعة حركات الإمام فى الركوع والسجود فلا يسبقه أحد مطلقا. وعند انتهاء الصلاة كان المسلم يسلّم أولا فى اتجاه الإمام أو الفقيه ثم ناحية اليمين ثم ناحية اليسار.

وبعد التسليم كان الإمام أو الفقيه يعتدل ناحية المصلين ويرددون جميعا فى وقت واحد

(ثلاثا وثلاثين مرة) كل واحدة من التسبيحات الآتية: "سبحان الله"، "الحمد لله"، "الله أكبر" ثم يرددون (مرة واحدة) جملة "لا إله إلا الله"، بعد ذلك كان الفقيه يقرأ

(*) لاحظ مخالفة الفقهاء لتعاليم الإسلام، وقد تعود المخالفة إلى تأثرهم بالقساوسة. (المترجم)

(**) الصحيح أنه لا كلام أثناء الخطبة، أما بعد الخطبة والصلاة فلا حرج فى ذلك، ولعل هذا الإجراء من قبل الموريسكيين يهدف إلى مراعاة السرية وتجنب مطاردة محاكم التفتيش. (المترجم)

آية الكرسى[10] فى السورة رقم ٢ من القرآن – الآيات ١٦ – ٢٤ – ثم يقرأ سورة "قل هو الله أحد" ثلاث مرات ثم السورة رقم ١١٣ – "قل أعوذ برب الفلق" – والسورة رقم ١١٤ – "قل أعوذ برب الناس"، وينتهى الاحتفال بالدعاء إلى الله من أجل المسلمين جميعا، الأحياء منهم والأموات. أما الصلوات التطوعية أو النوافل anefilas فكان كل مسلم يؤديها فى بيته كما تقضى السنّة.

الإمام: من تنطبق عليه شروط الإمامة[11]:

الإمام هو المسلم الذى يرأس الصلاة ويقودها، ويجب أن يقوم بهذه الوظيفة الفقيه الأكثر علما بالشريعة الإسلامية. وعندما كانت الصلاة تؤدى فى بيت خاص وليس فى المسجد، كان يفضل صاحب البيت على الغريب فى الإمامة. وكان الغريب يمكن أن يؤم الصلاة بإذن صاحب البيت، وكان لا يجوز أن يقوم بوظيفة الإمام الأشخاص الذين تتضمنهم الحالات الآتية:

١- المرأة لا تؤم أية صلاة واجبة أو تطوعية.

٢- غير العالم لا يؤم الأكثر علما بالقرآن.

٣- الشاب صغير السن لا يؤم الصلاة الواجبة ويمكن أن يؤم الصلاة التطوعية أو النوافل anefilas.

من يؤدى صلاة تطوعية لا يؤم من يؤدى صلاة مفروضة.

٥- الذى تيمم للصلاة لا يؤم من توضأ بالماء.

٦- الذى يؤدى الصلاة جالسا لا يؤم من يؤديها قائما.

وكان على الإمام أن يؤدى الصلاة وهو طاهر طهورا شرعيا، فمن أمّ صلاة وهو يعلم أنه غير طاهر تبطل صلاته وصلاة من أمّهم، أما إذا فعل ذلك ناسيا فلا تفسد إلا صلاته هو. وكان الرجال يقفون أثناء الصلاة خلف الإمام وكانت النساء يقفن خلفهم. وكان الجميع يشكلون صفوفا، وكان يقف فى الصف الذى يلى الإمام مباشرة من هم

أعلم من غيرهم بأمور الشريعة الإسلامية. وفى حالة ضيق المكان كان يُسمح لمن لا يجد مكانا فى الخلف بأن يقف أمام الإمام، وكان الإمام والمصلون يرتدون عباءات طويلة ويضع كل منهم على رأسه خمارا أبيض وفقا لتعاليم النبى. وإذا صلى اثنان جماعة كان الإمام يقف على يسار المصلى وإذا كانت امرأة تقف خلف الإمام.

وظائف الإمام والمصلين فى أثناء الصلاة[١٢]:

عندما كان الإمام يصلى بصوت مرتفع كان المصلون يصمتون، وعندما كان يقرأ بصوت منخفض كان المصلون يقرءون بصوت منخفض. وكان يقيم الصلاة أقوى المصلين صوتا، وكان يقف على يمين الإمام إلى الخلف قليلا، وعند بدء الأذان - عندما يقول المؤذن "حى على الفلاح"(*) كان المصلون يرددون "لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم"، وعندما كان المؤذن يقول "الله أكبر" كان المصلون يرددون نفس الجملة، وهو ما يحدث أيضا عندما كان المؤذن يقول "لا إله إلا الله" وعند الانتهاء من الأذان(**) كان الإمام يقرأ سورة الفاتحة ويجيب المصلون "آمين".

وعندما كان الإمام يقول فى الصلاة "سمع الله لمن حمده "كان على المصلين أن يرددوا "ربنا لك الحمد"، وعندما كان المسلم يصلى بمفرده كان عليه أن يقول "سمع الله لمن حمده"، ربنا لك الحمد" . ويجب على المسلم ألا يركع أو يسجد أو ينهض قبل الإمام حتى لا تفسد صلاته. ويجب على المسلم كذلك ألا يسبق الإمام عند نطق جملة "الله أكبر" الخاصة بنهاية الأذان (تكبيرة الإحرام tacbira del alihram)[١٣](***).

(*) ذكر المؤلف سابقا أن الأذان لا يبدأ بجملة "حى على الفلاح" ولعل مراجعة ما كتب كان يمكن أن تجنبه الوقوع فى مثل هذا الخطأ. (المترجم)

(**) أوضح المؤلف سابقا أن الأذان تعقبه إقامة ثم تكبيرة إحرام، كل ذلك قبل أن يقرأ الإمام سورة الفاتحة. نشير هنا كذلك إلى عدم تحرى الدقة فى العرض. (المترجم)

(***) من الغريب أن يقول المؤلف إن جملة "الله أكبر" خاصة بنهاية الأذان مع أنه أورد فيما سبق صيغة الأذان وهى لا تنتهى كذلك، ثم يقول عن الجملة نفسها إنها تكبيرة الإحرام أى أنه يتحدث عن الأذان والصلاة دون فاصل بينهما. (المترجم)

الحالات التى تجب فيها إعادة الصلاة[١٤]:

تعاليم الديانة الإسلامية - فى الجزء الذى يمكن أن نطلق عليه مراسمى liturgica -دقيقة بشكل متناه، ولهذا فهى مفرطة إلى أقصى حد. ونعرف ذلك خاصة عندما نفحص كثرة الحالات التى يقبلها العلماء والخاصة بوجوب إعادة الصلاة الواجبة كلها أو ركن منها، مثل حالة من لم يقرأ السورة التى تقرأ عادة بعد الفاتحة، وحالة من لم يقل "الله أكبر" مرتين فى الصلاة، وحالة من قرأ سراً ما كان يجب أن يقرأ جهرا، وحالة من تكلم أثناء الصلاة، وحالة من نهض قبل أن يسلم. ولكننا سنترك الحديث عن حالات كثيرة - فعرضها سيكون بمثابة إسهاب - وسنشير فقط إلى الحالات الأكثر شيوعا.

من بين هذه الحالات حالة حدوث نزيف لأحد المصلين. إذا حدث النزيف للإمام فيمكنه أن يكلف أحد الموجودين بأن يؤم الصلاة ويخرج هو من المسجد ليغسل الدم ثم يعود لأداء الصلاة. ولا تبطل صلاته إلا إذا كان قد تحدث خلال تلك الفترة. وعلى المصلى العادى أن يتخذ نفس الاحتياط إذا فاجأه نزيف حتى لا تفسد صلاته التى يكملها بعد غسل الدم، أما إذا كان المسلم يصلى بمفرده عندما يفاجئه النزيف، فهناك اختلاف فى الرأى بين الفقهاء، فمنهم من يرى أن الصلاة التى تُكمل بعد غسل الدم صالحة، ومنهم من يرى أن الصلاة تبطل بمجرد خروج الدم ممن يصلى بمفرده. وطبقا للسنّة لا يجب على المصلى أن يقول "الله أكبر" عندما يعود إلى الصلاة.

ومن المهم أيضا تحديد وقت حدوث النزيف، فإذا حدث قبل إتمام ركعة بسجدتيها لا يجوز إتمام الصلاة بعد غسل الدم ويجب بدء الصلاة من جديد. أما إذا حدث النزيف بعد سجدتين وعند القيام لأداء الركعة الثانية فتصح صلاة من يعود قبل أن يتم الإمام الركعة الثانية، أى قبل أن يقول الإمام "سمع الله لمن حمده". وتبطل صلاة المسلم إذا تحدث أو إذا تبول أو إذ نظّف قذارة وجدها فى ثيابه فى الحالة التى نتحدث عنها. وهنا يجب عليه أن يبدأ الصلاة من جديد. وهناك حالة أخرى شائعة تجب فيها إعادة الصلاة: إذا وصل المسلم إلى المسجد متأخرا، وتغير الواجب حسب الحالة:

(أ) إذا وصل المسلم إلى المسجد وقت صلاة الفجر ووجد الإمام راكعا فى الركعة الأولى فيجب عليه أن يقول "الله أكبر" ثم يركع. إذا فعل ذلك قبل أن يرفع الإمام رأسه ويقول: "سمع الله لمن حمده" فلا تجب عليه إعادة ما فاته من الصلاة، أما إذا لم يكن المسلم قد قال "الله أكبر" قبل أن يرفع الإمام رأسه فيجب عليه أن يتبع الإمام حتى نهاية الصلاة وأن يتم - بمفرده - الجزء الذى فاته، وهنا لا يسلم عندما يسلم الإمام وإنما ينهض دون أن يقول "الله أكبر" ثم يركع ويقرأ بصوت مرتفع سورة الفاتحة وسورة أخرى(*) ثم يركع ويسجد ويقرأ التحيات ويسلم. هكذا يجب أن يتم صلاته من فاتته ركعة من صلاة الجمعة.

(ب) إذا وصل المسلم إلى المسجد وقت صلاة الصبح عندما كان الإمام قد أدى ركعتين وكان ساجدا أو كان يقرأ التحيات فيجب على المسلم أن يقول "الله أكبر" ثم يتبع الإمام وعليه أن يتم ركعتين بأركانهما على ضوء ما تقدم فى الحالة السابقة.

(ج) إذا وصل المسلم إلى المسجد وقت صلاة الظهر فى يوم الجمعة عندما كان الإمام يؤدى الركعة الثانية، فعليه أن يتبع الإمام حتى نهاية الصلاة ويكمل بمفرده - بالشكل الذى تقدم - الركعات الأربع التى تتكون منها الصلاة، أما إذا كان الإمام قد أدى ركعة واحدة فلا يجب على المسلم أن يقضى إلا ركعة واحدة ما دام قد صلى وراء الإمام ثلاث ركعات(**).

صلاة المريض[١٥]:

المريض الذى يمكن أن يسبب له ماء الوضوء أذى - بحكم حالته الصحية - يجب أن يستعيض عن الوضوء بالتيمم كما وضحنا فى فصل سابق. وفيما يتعلق بالصلاة

(*) من المعروف أن قراءة القران لا تتم أثناء الركوع، ويبدو أن المؤلف لم يراجع النص جيدا. (المترجم)

(**) مرة أخرى يخطئ المؤلف عند الحديث عن صلاة الجمعة. الغريب أنه يقول إنه قارن بين طريقة أداء الشعائر الإسلامية عند الموريسكيين وطريقة أدائها فى العالم الإسلامى. (المترجم)

نفسها يمكن للمريض أن يختار- حسبما تسمح قوته الجسمانية - أحد الأوضاع أو الحركات التالية:

(أ) إذا كان لا يتمكن من الركوع فيجب أن يخفض يديه حتى الركبتين ويظل واقفا، وإذا كان هذا الوضع يشكل صعوبة بالنسبة له، فيجوز له أن يجلس وأن يؤدى نفس الحركة وهو جالس.

(ب) إذا كان لا يستطيع الركوع ولا السجود فيجب أن يظهر الخضوع واقفًا، أى أن يشير فقط إلى الركوع والسجود بأفضل شكل يمكنه، محاولا أن يخفض الجسم بقدر أزيد مما يخفضه عند الركوع سواء أكان جالسًا أو كان متكئا على جانبه الأيمن.

(ج) يفضل للمريض بقدر الإمكان السجود على الأرض عن السجود على الفراش أو على الكرسى الذى يجلس عليه، أما إذا كانت حالته الصحية لا تسمح له بالسجود على الأرض، فيجوز له أن يسجد على الفراش مراعيا أن يكون فى اتجاه القبلة وألا يتخلى عن إظهار الخضوع بعينيه وأهدابه ورأسه.

(د) يجوز للمريض أن يصلى الظهر والعصر معا فى وقتهما، وله أن يجمع بين صلاتى المغرب والعشاء بعد غروب الشمس.

صلاة الخائف[١٦] :

يطلق تعبير صلاة الخائف على الصلاة التى تؤدى فى حالات الخطر بسبب الوحوش الضارية أو اللصوص أو الأعداء. وفى هذه الظروف يجوز للمسلم الذى يسافر على فرس أن يؤدى الصلاة دون أن يترجل، محاولا أن يخفض الوجه والعينين أثناء الصلاة حتى لو لم يكن فى اتجاه القبلة. وكانت صلاة الخائف أقصر من الصلاة العادية، إذ كانت تتكون من ركعتين تقرأ فيهما سورة الفاتحة وسورة أخرى. ومع ذلك لم يكن من الجائز اختصار صلاة المغرب.

وكانت صلاة الخائف تؤدى أيضا عندما كان المسلمون يتواجدون على الحدود مع الأعداء ولا يجرؤون على ترك حصونهم خوفا منهم. وفى ذلك الوضع كان يقوم بالإمامة أعلم الموجودين بالأمور الدينية. وكان الإمام يقوم بالصلاة - نيابة عن الجميع - فى الساعات المحددة. والصفة الاستثنائية لهذا الوضع الذى تتضمنه الشريعة الإسلامية تجعل الجميع يستحقون أجر الصلاة كما لو أن كلا منهم قد أداها بنفسه(*).

(*) لا يقر الإسلام أن يصلى أحد نيابة عن أحد: هو وضع غريب إذن يجب التحقق منه، فربما كان فهم الموريسكيين لهذه النقطة خاطئا (انظر لعزلتهم عن العالم الإسلامى) وربما كان المؤلف لم يفهم النص جيدا. (المترجم)

هوامش الفصل الخامس

(١) MBN, n 49870 (Sa. Gg, 2) y n 5301 (Sa. Gg, 180) fol 2 v.

MCG, T 4 y T - 19, fols. 208 - 211 BRAH

MBCEH n XXVIII, fol 95

Bc en Me HE, t.V, ps. 270 - 272

(٢) لا نـدرى مـا إذا كان المقصـــود هو قــرية سوت دى تشيرا Sot de Chera أم قرية سوت دى فيرير Sot de Ferrer. والقريتان تتبعان مملكة فالنسيا.

(٣) MIV, leg, 48, exp. 6 , pr. de Pedro Alabori. AHN.

(٤) MBN, n 5306 (Sa. Gg, 85), fols. 11-14.

MBCEH, n IV, fol. 120.

(٥) إشارة إلى اللحظات الصعبة فى يوم القيامة.

(٦) MCG, T-4 . BRAH.

MBCEH n III, fol. 152 n IV , fol 135, n XXVIII , fols 141 y sigs.

MIV, leg 48 exp. 6, pr. de Pedro Alabori, morisco, vecino del arrabal de Segorbe. AHN.

Bc en Me HE, t. V, ps. 295 - 297.

(٧) لا تزال توجد فى العالم الإسلامى حتى اليوم عادة صعود الإمام المنبر وفى يده رمح أو عصا طبقا لكيفية تحول البلد إلى الإسلام بالقوة أو بدون قتال. من هذه الحالة الأخيرة دول المغرب حيث يظل الحاجب - الذى يرافق الإمام إلى المنبر يوم الجمعة - عند أول السلم وفى يده عصا، انظر:

Arch. Mar. t. II, vol II, p. 148.

(٨) هذا الدعاء مأخوذ من القرآن، السورة الثانية، الآيات ٢٥٥-٢٥٨(*).

(٩) عام ١٦٠٥، شهادة أدلى بها فى برشلونة أمام محكمة التفتيش فرانثيسكو ثافار، منتصر حيث من مدينة سيغوربى Segorbe وقد حضر دون استدعاء: "ذكر فرانثيسكو ثافار"..... ضمن أشياء أخرى، أنه فى كل أيام الجمعة كان يجتمع هو وكثير من الموريسكيين من سيغوربى Segorbe فى منزل أرملة خاراميا

(*) هى الآيات ٢٥٥-٢٥٧ من سورة البقرة. (المترجم)

فى منتصف الليل حيث يتلو الفقيه ميغيل غابانى القرآن ويعلمهم شعائر محمد. وفى نفس المكان هناك موريسكيان آخران تعلما ليكونا فقيهين: الأول يدعى خيرونيمو لوبى الشهير بـ"بابو"، والثانى يدعى بدرو راسين وشهرته كلابيس، وكان يحضر هذه الاجتماعات الموريسكيون البالغون. وقبل الذهاب يجب أن يكونوا قد أدوا الوضوء guadoch فى منازلهم. وكان الفقهاء يرتدون عباءات مطرزة بالحرير والذهب ويجلسون على كراسى وأمامهم مائدة وفى يدهم عصا كالقساوسة(*)، وهناك يقرءون القرآن ويجيب الموريسكيون الذين يتعلمون على يد الفقيه ولهذا تساهم كل الجماعة والمجلس فى الدفع. ويقدم الموريسكيون الأثرياء لكى يعلّموا أبناءهم – هدايا كثيرة خارج الأتعاب، ولكى يجروا لأبنائهم عمليات الختان التى يجرونها الآن للأطفال فى سن الثامنة، وقبل ذلك كانوا يجرونها للأطفال بعد ثمانية أيام من ولادتهم".

"يتعلمون مع بعضهم البعض. يكلفونهم (بالدروس) ويعاقبونهم إذا كانوا صغاراً حتى لا يتكلموا ولا يقولوا للقسيس أو الحراس إنهم يعيشون كمسلمين، وقال إنه يعلم جيدا أن كل مواطنى سيغوربى مسلمون سرا وأنهم فى الظاهر يخفون هذا الأمر قدر جهدهم وأنه رآهم كلهم تقريبا يؤدون الصلاة asalla ويذهبون (لسماع) الخطبة التى يلقيها الفقيه فى ليلة الجمعة".

Pr. De Pedro Alabori, morisco del arrabal se segorbe, MIV. Leg 48, n 6. AHN.

(١٠) انظر صفحات ٨٨، ٨٩، ٩٠ من هذا الكتاب.

(١١) MBN, n 4870 (Sa. Gg, 2) fol 11.
MBCEH, n III, fol. 158.

(١٢) MBCEH,n III, fol. 115 y 151 , n IX, fol. 54.

(١٣) تسمى الإحرام لأنه بعد نطق كلماتها يحرم أى كلام إلا كلام الصلاة.

(١٤) MBCEH, n IV, fol. 128, 129, n IX, fol 48-51.

(١٥) B9 en Me HE, t. v, ps. 298-299.

(١٦) MBCEH n. II, fol. 163.
Bc en Me HE, V, p. 289.

(*) لاحظ الأثر المسيحى فى إسلام الموريسكيين. (المترجم)

الفصل السادس

الصلاة (الجزء الرابع)

الصلاة الواجبة بمقتضى السنّة[1]:

كان الموريسكيون يصلون - بالإضافة إلى الصلاة المفروضة شرعا - صلوات أخرى تدعو إليها السنّة sunna كصلاة عيد الفطر وصلاة عيد الأضحى وصلاة كسوف الشمس وصلاة الاستسقاء وصلاة الوتر.

صلاة العيدين:

تتكون صلاة العيد من ركعتين دون أن يسبقهما أذان ولا إقامة، وتؤدى فى وقت صلاة الصبح. كانت الصلاة تبدأ بترديد جملة "الله أكبر" سبع مرات وقراءة سورة الفاتحة وسورة أخرى بصوت مرتفع ثم الركوع والسجود ثم النهوض مع ترديد جملة "الله أكبر" خمس مرات بالإضافة إلى ترديد الجملة نفسها عند القيام، بعد ذلك تقرأ سورة الفاتحة وسورة أخرى بصوت مرتفع ثم الركوع والسجود وقراءة التحيات الموضحة سابقًا ثم التسليم. بعد ذلك مباشرة تلقى خطبة تتكون من جزئين: الجزء الأول توضح فيه فضائل الزكاة التى تدفع خبزا أو قمحا عند انتهاء شهر رمضان، وفى الخطبة الثانية يصلى على كل أصحاب وأتباع محمد، وفى الجزء الأول من خطبة عيد الأضحى توضح فضائل التضحية ويذكّر المسلمون بالحوار الذى دار بين إبراهيم وولده إسماعيل[2] كما سنوضح فيما بعد فى الجزء المتعلق بالخطب.

صلاة كسوف الشمس:

تتكون من أربع ركعات وأربع سجدات وتُقرأ خلالها بعض سور القرآن، ويجب أن تؤدى عند كسوف الشمس فى منتصف الوقت بين طلوعها ووجوب الظهر(٣) ولا تؤدى إذا حدث الكسوف بعد صلاة العصر وقبل صلاة المغرب.

وتؤدى الصلاة على النحو التالى: يحضر الإمام وكل مسلمى الجماعة إلى المسجد حيث تبدأ الصلاة دون أذان ولا إقامة فيقال "الله أكبر" وتقرأ سورة الفاتحة ثم تقرأ سورة البقرة بصوت منخفض إن كانت محفوظة غيبا، ثم يركع ويستمر الركوع وقتا يعادل الوقت الذى مر منذ بدء الصلاة، ثم يرفع الإمام رأسه ومعه المصلون فيقول "سمع الله لمن حمده" ويقرأ سورة الفاتحة وسورة آل عمران حتى نهايتها - إذا كان يحفظها - بصوت منخفض، ثم يركع ركوعًا طويلاً مثل الركوع السابق، ثم يرفع الإمام رأسه قائلا: "سمع الله لمن حمده" ثم يسجد مرتين ثم ينهض فيقرأ سورة الفاتحة والسورة الرابعة من القرآن التى تبدأ بالآية "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة" فيقرؤها حتى نهايتها - إن كان يحفظها - ثم يركع بالطريقة الموضحة سابقا، وعندما ينهض يردد الجملة المعتادة ثم يقرأ السورة الخامسة من القرآن التى تبدأ بالآية "يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود.....". فى النهاية يركع مرة أخرى ركوعًا طويلاً ثم ينهض قائلا "سمع الله لمن حمده" ويسجد مرتين ويقرأ التحيات ويسلم.

وإذا وصل أحد المسلمين إلى المسجد وكان الإمام قد أدى الركعة الأولى فعليه أن يتابع الإمام حتى نهاية الصلاة ولا يلزم بإعادة الجزء الذى فاته من الصلاة، وإذا فاتته ركعتان فعليه أن يصلى الثالثة والرابعة مع الإمام ثم يكمل بمفرده الجزء الذى فاته من الصلاة، ومن فاتته ثلاث ركعات فعليه أن يؤديهن بمفرده بعد أن يسلم الإمام، مع ملاحظة أن يؤدى ركعتين فقط بمفرده، إذ أن الركعة الرابعة التى حضرها مع الإمام تشمل الركعة الثالثة، وبنفس الطريقة تُعفِى الركعة الثانية المؤداة وراء الإمام من وجوب أداء الركعةُ الأولى لمن لم يؤدها كما سبق أن أوضحنا.

صلاة الاستسقاء:

بما أن أهم ما فى هذه الصلاة هو الدعاء الذى يردد فيها فسوف نؤجل الحديث عنها إلى الفصل الذى نعرض فيه "دعاء الاستسقاء".

صلاة الوتر:

تؤدى صلاة الوتر فى منتصف الوقت بين انتهاء صلاة العشاء ووجوب صلاة الصبح، ولا تؤدى جماعة بل يصليها كل شخص بمفرده، وتتكون من ثلاث ركعات: فى الركعة الأولى تُقرأ سورة الفاتحة والسورة رقم ٨٧ من القرآن التى تبدأ بالآية "سبح اسم ربك الأعلى" وفى الركعة الثانية تقرأ سورة الفاتحة والسورة رقم ١٠٩م التى تبدأ بالآية "قل يا أيها الكافرون" ثم يجلس المصلى للتشهد ويقرأ التحيات ويسلم، تسمى هاتان الركعتان الشفع axefi تمييزا لهما عن الوتر alguitri وهى الركعة الثالثة والتى تُقرأ فيها سورة الفاتحة والسورة رقم ١١٢ التى تبدأ بالآية " قل هو الله أحد "والسورة رقم ١١٣ التى تبدأ بالآية" قل أعوذ برب الفلق "والسورة رقم ١١٤ التى تبدأ بالآية" قل أعوذ برب الناس" ثم يجلس المصلى ويقرأ التحيات ويسلم.

كان من الممنوع أداء صلوات تطوعية بعد صلاة الوتر، ربما اعتقاداً منهم بأن هذه الصلاة كالخاتم بالنسبة لصلوات اليوم وتؤدى إلى مغفرة الأخطاء التى ارتكبت دون قصد خلال الصلوات المفروضة. وفى حالة عدم أداء صلاة الوتر بعد صلاة العشاء يمكن أن تؤدى فى اليوم التالى بعد صلاة الصبح إذا كان هناك وقت يكفى لأداء صلاة الصبح وصلاة الوتر قبل طلوع الشمس، فإذا لم يكن هناك وقت تترك صلاة الوتر.

هوامش الفصل السادس

(١) MBN, n 5306 (Sa. Gg, 85), fol. 20 - 24.
MBCEH, n IV, fol. 137, n XII, fol 193-195.
Bc en Me HE, t. V, ps. 292-295.

(٢) يعتقد المسلمون أن إسماعيل – وليس إسحاق – هو الابن الذى استعد إبراهيم للتضحية به.

(٣) طبقًا لرأى على، ويرى الآخرون أن الوقت يمتد حتى ساعة صلاة العصر.

(أ) هى الآيات ٢٥٥-٢٥٧ من سورة البقرة. (المترجم)

الفصل السابع

الصلاة (الجزء الخامس)

الصلاة التطوعية (النوافل anefilas)[1]:

مع أن الصلاة التطوعية بحكم أنها تطوعية ليست هدفا للتشريع الإلهى والسنّة فى الإسلام إلا أن الشرع والسنّة يحددان أن المناسبات التى يمكن أن تؤدى فيها صلوات تطوعية والأوقات التى يجب أن تؤدى فيها هذه الصلوات، فلم يكن من المسموح مثلا أن تؤدى مع وجوب قضاء صلوات مفروضة، ولا منذ انتهاء صلاة الصبح حتى طلوع الشمس، ولا بين صلاتى العصر والمغرب، ولا بعد صلاة الوتر، ولا فى أثناء قيام الإمام بإلقاء خطبة الجمعة.

وكان من المعتاد أن تؤدى الصلوات التطوعية على النحو التالى: بعد الانتهاء من الصلوات المفروضة، ولهذا بعد أن يسلم المصلى يجلس ويتهيأ للدعاء فيردد الجمل الآتية:

(ثلاث وثلاثين مرة) "سبحان الله" "الحمد لله" "الله أكبر" ثم يكمل المائة بجملة "لا اله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله" ثم يدعو الموريسكى لنفسه ولوالديه وأخوته ولزوجته وأبنائه ولعامة المسلمين.

من بين الصلوات التطوعية أو النوافل هناك ركعتا الفجر تؤديان عندما يطلع الفجر وقبل صلاة الصبح، يقرأ فى الركعة الأولى سورة الفاتحة والسورة رقم ١١٢ "قل هو الله أحد" ويمكن أن تقرأ سورة الفاتحة فقط. لا يجوز أداء صلوات تطوعية بعد

صلاة الصبح حتى ساعة الظهر(*) فيمكن للمسلم أداء ركعتين، ويمكن أن تؤدى خلال هذا الوقت ركعتا الفجر إذا كان لم يؤدهما لسبب أو لآخر. وكان من الشائع أيضا أداء ركعتين أو أربع ركعات بنفس الشكل الذى تقدم قبل صلاة الظهر وأداء ركعتين أو أربع ركعات بعدها، وكان من المفضل زيادة عدد الركعات التطوعية قبل وبعد صلاة الظهر مع مراعاة التسليم بعد كل ركعتين.

وكان من الممكن أداء ركعتين أو أربع ركعات تطوعية قبل صلاة العصر. وكان مسموحا أيضا أداء ركعتين أو أربع ركعات بعد صلاة المغرب. وكما أوضحنا سابقا لم يكن مسموحا أداء صلوات تطوعية فى الوقت بين صلاتى العصر والمغرب. وكان من الممكن أداء ركعتين أو أربع ركعات أو أزيد قبل وبعد صلاة العشاء. وكان يجب أن تكون القراءة بصوت منخفض فى الصلوات التطوعية التى تؤدى أثناء النهار وبصوت مرتفع فى النوافل التى تؤدى أثناء الليل. وإذا أديت نوافل الليل بصوت منخفض فلا تبطل الصلاة. وفى الصلوات التطوعية وأية نافلة بصفة عامة يمكن أن تبدأ قراءة سور القرآن بترديد جملة "بسم الله الرحمن الرحيم"، أما فى الصلاة المكتوبة فلا يجب ذلك وهناك صفة عامة فى الصلاة التطوعية بشكل عام - كما يحدث فى صلاة الشفع وصلاة الوتر - وهى أنها تؤدى بشكل فردى لا فى جماعة.

صلوات(**) أخرى فى أثناء النهار:

عند الاستيقاظ فى ساعة الفجر(٢):

"الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، أصبحنا وأصبح الملك لله القوى العزيز، سبحانه وتعالى، أصبحنا نشهد أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله مؤمنين بدين محمد وعلى ملة أبينا إبراهيم الذى ما كان من المشركين، اللهم أدعوك أن

(*) بل يستطيع المسلم أداء صلوات بعد شروق الشمس. (المترجم)

(**) لا يفرق المؤلف بين الصلاة فى مفهومها الإسلامى والدعاء، فيطلق على الاثنين تعبير Oracion وهو هنا يقصد الدعاء. (المترجم)

ترسل إلينا فى هذا اليوم الخير كله وأعوذ بك من كل معصية يمكن أن نرتكبها ومن كل أذى يمكن أن نسببه للغير، أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه".

دعاء عند ارتداء اللباس(٣):

كان الموريسكى عندما يرتدى لباسه ينوى فى داخله تنفيذ تعاليم الله فى اليوم الجديد، فيغطى جسده (بالملابس) فى تواضع ويحاول أن يبعد عن نفسه الإغراء بأن يبدو فى أعين الناس كمزهوٍ بالملابس.

عند الخروج من البيت(٤):

كان من عادة الموريسكيين عند الخروج من البيت قراءة سورة الفاتحة حتى سبع مرات أو قول "آمين" بعدها أربع عشرة مرة. كانوا يعتقدون أن من يفعل ذلك يستحق أجرا غير عادى، فتحميه السماء خلال اليوم، ولذلك كانت هذه الشعيرة – رغم أنها تطوعية – لها صفة إلزامية بالنسبة لكل من يرى أنه يمارس شعائر الإسلام برغبة حقيقة.

عند الذهاب إلى المسجد(٥):

كان على المسلم عند الذهاب إلى المسجد أن يمشى ببطء وأناة وأن يقول عند الدخول إلى المسجد: "بسم الله وعلى سنة النبى محمد، اللهم افتح لى أبواب نعمتك ورحمتك يا رب العالمين. آمنت بالله رب العالمين. اللهم أدخلنى طاهر النية وأخرجنى طاهر النية وكن لى معينا".

عند بدء الأكل والانتهاء منه[٦] :

عندما كان الموريسكى يشرع فى الأكل كان يقول عندما يجلس إلى المائدة: "بسم الله الرحمن الرحيم"، وعندما كان ينسى ترديد هذه الجملة فى بداية الأكل، كان عليه أن يرددها حتى فى منتصف الأكل عندما يتذكر.

وعند انتهاء الأكل يقول "الحمد لله"، وعندما كان الموريسكيون يشرعون فى الأكل فى حضور مسيحيين قدامى، كانوا يقلدون صيغة المسيحيين فى مباركة المائدة فيقولون: "ربنا إنك تنعم علينا فى الأرض فهب لنا نعمة فى السماء، آمين".

عند قضاء الحاجة[٧] :

عند الدخول فى المكان الذى يقضى الموريسكى فيه حاجته، كان عليه أن يدخل بقدمه اليسرى ويخرج بقدمه اليمنى. وكان على الموريسكى أن يدخل ورأسه عارية ودون أن يحمل معه شيئا يذكر فيه اسم الله أو اسم محمد. وكان عند لحظة الدخول يردد: "اللهم قنى من النجاسة ومن الشيطان الرجيم". وكان يقول عند الخروج: "الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وحفظ بى ما يفيدنى".

وخلال غسل النجاسة - الذى كان يؤدى باليد اليسرى وباستعمال ثلاثة أو خمسة أو سبعة أحجار - كان الموريسكى يقول: "اللهم نظِّف قلبى من الشرك واحفظ جسدى من أية نجاسة". وبعد انتهاء عملية النظافة كان يفرك يده اليسرى فى الحائط أو فى الأرض، وكان الموريسكيون فى أثناء قضاء الحاجة يحرصون أيضا على الجلوس بحيث لا تكون وجوههم مقبلة ناحية الشمس أو القمر أو مدبرة عنهما، وكانوا لا يجلسون تحت شجرة مثمرة ولا فوق حجر، وكانوا يتجنبون التبول فى الحجر الأصم أو فى مهب الرياح تجنبا لرزاز البول والنجاسة التى تترتب عليه. ولهذا السبب نفسه لم يكن يسمح بالتبول فى وضع الوقوف إلا عند الاضطرار.

أدعية خاصة بأيام الأسبوع المختلفة(٨):

لم يكتف الموريسكيون الإسبان بتنوع الأدعية الواجبة والتطوعية التى عرضناها حتى الآن، وإنما ابتدعوا أدعية أخرى لكى يرددوها فى أيام الأسبوع المختلفة. وإن المحتوى العام لهذه الأدعية هو الشهادة الإسلامية. ومن ناحية أخرى يكثر فى هذه الأدعية مدح محمد وتذكُّر قدرة الله وكثرة نعمه ومدح القرآن كقاعدة إيمانية والتعبير عن الخوف من جهنم والرغبة فى الفوز بنعيم الجنة. وفيما يلى نص الأدعية المختلفة:

دعاء يوم الأحد:

"الحمد لله الملك الحق إله الأرض وكل ما فيها، الموجود بعد أن تفنى المخلوقات والذى له قدرة لا نهاية لها".

أشهد أن لا إله إلا الله، الكريم الرحيم الإله الواحد الرحمن، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل البشر. قرّبه الله إليه ليلة الإسراء فمكث إلى جانبه وقتا طويلا. إذا كان قوسا الحاجبين قريبين فمحمد كان أقرب منهما إلى كمال وعظمة وجلال الله، وقد شرَّفه الله وجعله يشرب من ماء الجنة (عليه وعلى صحبه وأتباعه السلام ما دارت الشمس والقمر حول عرش قدرته).

اللهم اهدنى وقنى شر كل مخادع. اللهم احمنى بقدرتك ممن يريدون الاعتداء علىّ وضعنى تحت حمايتك وحفظك. يا من تبعد عنى كل سوء أبعد عنى كل ما يقلقنى من أعمال الدنيا والآخرة واجعل قولى وعملى لا يحيدان عن طريق الحق. يا عطوف يا رحيم أبعد عنى الضيق ولا تحمّلنى ما لا طاقة لى به. يا إلهى أنت الإله الحق كما يشهد لك كل شىء، فأنت توضح كل شىء وفى كل شىء تجعل الحق يتضح. يا من وسعت رحمته كل شىء احفظنى بعينك التى لا تنام وامنحنى الأمن دائما. إلهى آمنت أننى لا أهلك إذا أعانتنى قوتك يا عظيم يا أمل كل عظيم.

يا صبور، أنت تعلم حاجتى وقادر على قضائها. أنا محتاج إلى عونك، فأنعم علىّ به يا أرحم الراحمين يا أكرم الأكرمين، يا سريع الحساب. ارحمنى وارحم كل المذنبين من أمة نبيك محمد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

دعاء يوم الاثنين:

الحمد لله جل ثناؤه، الكريم الوهاب، تمت نعمته وتناهت قدرته وكرمت رحمته وسمت كلماته، من يحيى عباده بعد موتهم، من يشكل الضباب والغيم المحمل بالماء، من يتحكم فى دورة الفلك والنجوم، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالوحى والبرهان الواضح إلى أمته عندما كانت تعيش فى الضلال وتعبد الأصنام.

اللهم زدنى فى الخير وأدمنى على طاعتك. اللهم صلٍّ محمد صلاة دائمة (وأدم الصلاة على آله وصحبه) وارض عنى وعن والدىَّ حتى نستحق أجرك، وهبْ لنا الخير وأمّنا يوم القيامة وأقعدنا فى دار الكرامة.

دعاء يوم الثلاثاء:

الحمد لله العلى، الجليل بأعماله وبإرادته. يتدبر فى حكمه وفى تنظيمه، دائم فى جلاله وفى ملكوته، عظيم فى الكمال والخير، شكّل مخلوقاته بلا قالب، ويوزع الرزق دون أن يطلب عونا ولا فضلا، قسّم الرزق ونظّم أعمال الخلق بقدرته الجليلة وحدها وعلمه المحصى دون أن يوجد من يساعده.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أبلغ بها وضوحها وأتيقن بها من منطقها، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، مرسل بالبيان الفصيح والقرآن الحق إلى أمته الجاهلة التى كانت تعبد الأصنام وتقيم التماثيل ثم تعبدها فهدى القوى، وأنار (الطريق) للضعيف ونشر القاعدة وأعلى دليل الحق.

أحمدك اللهم فقد خلقتنى إنسانا كاملا ومنحتنى الغذاء الآمن وقدّمتَ لى الخير. اللهم بارك فى هذا اليوم واجعل الفرح والسرور فيه دائمين، وأبعد عنى فيه كل سوء ومهلكة، ووجّه أعمالى وارض عنى وعن والدىَّ، ولا تعاقبنا بذنوبنا فأنت القوى.

دعاء يوم الأربعاء:

"الحمد لله، محمود لكماله، ممدوح لسموه وجلاله، دائم فى ملكوته ووجوده، عادل فى حكمه وتقديره، الذى خلق الأشياء كلها بعلمه ورزق الأحياء بالغذاء بقدرته، ونشهد أن لا إله إلا الله لا إله غيره ولا شريك له، شهادة نستحق عليها البقاء والخلود (فى الجنة)، ونشهد أن محمداً عبده مرسل بالحق وموضوع فى الجنة ليسر المتقين ولينذر العاصين لأوامره (عذاب) النار.

أحمدك اللهم فأنت تمنح غذاء تعاليمك وترزق عبادك من وفرة نعمك ولا تبخل بنعمك و(لما أنت أهله) والرغبة التى وضعتها فينا للطمع فى إنعامك. أحمدك على ما وضعت فىَّ من ثبات، ارض عنى وعن والدىَّ كما رضيت عن الصالحين، وقنى وإياهم النار والعذاب، ولا تعذبنا ساعة الحساب، فاجعلها سهلة ولا تحرمنا من جزائك الوافى.

دعاء يوم الخميس:

الحمد لله فله الحمد كله، رب الأرض والسماء خلق المخلوقات وجعل الليل والنهار، وسعت رحمته كل شىء، خلق كل شىء بعلمه وعمم الخير على كل شىء بقدرته التى تفوق كل قدرة. إن كمال أعماله وضياء العالم يدلان على أنه صانع كل ما هو موجود وأن كل المخلوقات تسبحه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحد لا شريك له، شهادة يقرها القانون الإلهى الذى لا يخطئ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الكريم النبى الطاهر المختار، أدى الأمانة، وأرسل ليهدى الناس وليحمى حقوقهم. أقام دين الحق والاعتقاد فى دار الكرامة،

وأرشد الناس إلى الطريق المستقيم. أحمدك اللهم فقد خلقتنى ورزقتنى وعلمتنى الإيمان الحق. اللهم ارض عنى وعن أبى وأمى، فأنت ترضى عن المتقين وأعزنى(*) فأسكنِّى معهم بجوار الأنبياء برحمتك يا أرحم الراحمين.

دعاء يوم الجمعة:

الحمد لله الكريم العزيز، خلقنا بعلمه ووهبنا النعم، وأنعم علينا بخيراته الجميلة. أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله الطاهر المختار والنبى المختار. اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم وما يليه وهب لى أن أعمل صالحا واجعلنى أستحق جزاءك، وارض عنى وعن أبى وأمى وهب الخير لى ولهما واجمعنى بهما فى الجنة.

دعاء يوم السبت:

الحمد لله الذى يسمع من سمو عرشه، الأول فى القدم، يحيى الموتى، خالق الزرع، منظم الوقت وبه توحَّد الملك والبقاء، عادل فى حكمه وأمره، وسع كرمه وإنعامه كل شىء، ينتصر على كل المخلوقات بالموت والنهاية. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، مرسل بالتنزيل المبين وبالحق الذى ينتصر. أرجوك يا إلهى أن أعيش بتوبة مرضيا عنى فأنت القادر.

أدعية فى الأشهر الهجرية المختلفة(٩):

تعرض التعاليم الموريسكية الاحتفالات المختلفة فى العالم الإسلامى، ونفس العرض يتناول الأدعية والشعائر الأخرى التى تؤدى كالصيام والصدقة. سنؤجل عرض

(*) فى النص الإسبانى ترد كلمة "غذنى" que me des alimento وهو خطأ عن عدم التدقيق فى القراءة. (المترجم)

هذه الشعائر إلى الفصل المناسب، وسنعرض الأدعية التى كانت تُردد فى أيام معينة أو فى احتفالات معينة. سنشير فى الوقت نفسه إلى الصفة الواجبة أو التطوعية لهذه الأدعية.

(أ) الشهر الأول - محرم:

هو أول شهر فى العام حسب التقويم الإسلامى الذى يبدأ بهروب(*) محمد من مكة إلى المدينة (١٦ يوليه عام ٦٢٢ من التقويم الميلادى). إن هذا الشهر - كما يشير اسمه - هو شهر التحريم مطلقا، ففيه يجب أن يمتنع المؤمنون عن كل إثم، فارتكاب إثم فى هذا الشهر أمر أكثر خطورة من ارتكابه فى بقية العام عند الله، وأى صدقة أو دعاء .... إلخ، يؤدَّى فيه يكون أكثر قبولا عند الله وأكثر أجرًا من أداء هذه الأعمال فى بقية العام.

كان اليوم الثالث من شهر المحرم يوم عيد، وكان يُحتفل به فى احتفال عظيم. اليوم العاشر هو يوم (عاشوراء)[١٠]. كان الموريسكيون يعتقدون أن الله يقوم فى هذا اليوم بكثير من المعجزات فيمنح النعم للمؤمنين من أمة محمد. وبين وقتى الظهر والعصر فى ذلك اليوم كانت تؤدى صلاة من أربع ركعات يسبقها طهور ووضوء، وفى كل ركعة كانوا يقرأون سورة الفاتحة مرة وسورة "قل هو الله أحد" خمسين مرة مع تسليمتين(**).

الشهر الثالث - ربيع الأول:

كان اليوم الثانى عشر من هذا الشهر عيداً للموريسكيين، ففيه وُلد النبى محمد، وتوصى التعاليم بما يلى: "اعتبروا هذا اليوم كعيد واعبدوا الله.فيه بالأعمال الطيبة قدرا استطاعتكم، وزيدوا من صلاتكم على النبى محمد فى هذا اليوم قدر استطاعتكم

(*) آثرنا هنا استخدام تعبير المؤلف حتى تتكون لدى القارئ العربى فكرة واضحة عن مفهومه الخاطئ للسيرة النبوية العطرة. (المترجم)

(**) لاحظ مخالفة ذلك لصحيح الإسلام. (المترجم)

وقولوا: "اللهم صل على سيدنا محمد وعلى أمته"وابدأوا فى هذا الدعاء من الليل حتى الساعة العاشرة من اليوم التالى، وأوقدوا الشموع فى المساجد(*) والبيوت فى تلك الليلة فهكذا تعبدون الله وبهذا يعطيكم الجزاء الأوفى وهكذا تنالون حب النبى محمد وشفاعته فى الدنيا والآخرة".

الشهر السابع - رجب:

يسمى هذا الشهر شهر الله. وكان على الموريسكى أن يؤدى ثلاثين ركعة: (عشر ركعات فى أوله، وعشرا فى نصفه، وعشرا فى آخره) ويقرأ فى كل ركعة سورة الفاتحة مرة واحدة وسورة "قل يا أيها الكافرون" ثلاث مرات وسورة "قل هو الله أحد" ثلاث مرات، ويسلم بعد كل ركعتين، وبعد الصلاة يرفع يديه إلى السماء ويردد، "لا إله إلا الله وحده لا مثيل له، له الملك وله الحمد ... إلخ". بعد ذلك مباشرة يمرر يديه على وجهه ويقول "الحمد لله رب العالمين"، ويطلب من الله مغفرة الذنوب وقضاء الحوائج. وتأدية الثلاثين ركعة المذكورة توجب أجرًا كثيرًا بنص حديث محمد الذى يقول إن قراءة "قل هو الله أحد" مائة مرة فى كل يوم جمعة من هذا الشهر توجب الجنة يوم القيامة(**).

ويستحق رحمة الله أيضا من يطلب من الله فى كل يوم من هذا الشهر أن يغفر ذنوبه سبعين مرة صباحا وسبعين مرة مساء قائلا: "أستغفر الله وأتوب إليه"، ويضيف ويداه مرفوعتان "اللهم اغفر لى ولأهلى"، وفى ليلة أول جمعة من رجب فى الوقت بين غروب الشمس والليل كانت تؤدى اثنتا عشرة ركعة، تُقرأ فى كل واحدة منها سورة

(*) من المعلوم أن الاحتفال بالمولد النبوى فى حد ذاته أثر مسيحى (طبقًا لدراسة فيرناندو لاغرانخا فى مجلة الأندلس). انظر كتاب "دراسات أندلسية وموريسكية" ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، القاهرة. لاحظ الأثر المسيحى كذلك فى إيقاد الشموع. (المترجم)

(**) لاحظ مخالفة ذلك لصحيح الإسلام. لاحظ كذلك أن التراث الموريسكى حافل بالأحاديث الضعيفة والموضوعة. (المترجم)

الفاتحة مرة واحدة والسورة رقم ٩٧ التى تبدأ "إنا أنزلناه" اثنتى عشرة مرة وسورة "قل هو الله أحد" اثنتى عشرة مرة مع التسليم بعد كل ركعتين. وبعد انتهاء الصلاة تؤدى صلاة أخرى تكريما للنبى محمد فيقال: "اللهم صل على النبى الكريم محمد وعلى أمته"، وعند السجود على الحصيرة أو السجادة يضاف: "سبوح قدوس رب الملائكة والروح"، وعند القيام من السجود يقال "الله أكبر" وعند الجلوس فى الأرض للتشهد يقال "اللهم اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم فأنت العلى الأكرم"، ثم يسجد مرة أخرى ويكرر الدعاء المذكور سبعين مرة أخرى ثم يدعو المسلم ربه بحاجته الخاصة. وكان يعتقد أن محمداً قد قال إن من يؤدى هذه الصلاة تُغفر جميع ذنوبه وفى يوم القيامة يمكن أن يشفع عند الله فى سبعين من مذنبى أمته. هذا بالإضافة إلى منازل أخرى لا يعلم فضلها إلا الله.

الشهر الثامن – شعبان:

يسمى شهر شعبان أيضا شهر النبى محمد. فى الليلة التى تسبق اليوم الخامس عشر من شعبان كانت تؤدى "صلاة الخير" وهى تتكون من مائة ركعة يسلم بعد كل ركعتين فيها. تُقرأ فى كل ركعة منها سورة الفاتحة مرة واحدة وسورة "قل هو الله أحد" عشر مرات(*).

وفى الليلة السابعة والعشرين من هذا الشهر كانت تؤدى صلاة تطوعية من أربع ركعات تقرأ فى كل منها سورة الفاتحة مرة واحدة وسورة "قل هو الله أحد" خمسا وعشرين مرة ثم يسجد على الحصيرة ويقرأ أثناء السجود سورة الفاتحة وسورة "قل هو الله أحد" وسورة "قل أعوذ برب الفلق" وسورة "قل أعوذ برب الناس"، كل سورة سبع مرات. بعد الانتهاء من ذلك يرفع المسلم رأسه ويقول عند الجلوس "أستغفرك اللهم" أو "اللهم احفظنى" مائة مرة ثم يقول (مرة واحدة) "لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم".

(*) لاحظ مخالفة ذلك لصحيح الإسلام. (المترجم)

الشهر التاسع – شهر رمضان:

يسمى شهر رمضان أيضًا شهر أمة النبي محمد[11]. فى هذا الشهر الذى يخصصه المسلمون للتوبة والصيام كانت تكثر الصلوات التطوعية، بالإضافة إلى الصلوات الواجبة التى كانت تؤدى عادة. وفى كل أيام منذ يوم رؤية هلال رمضان كان من المعتاد أداء صلاة الإشفاع(*) alixfaa التى تؤدى بعد صلاة العشاء وقبل صلاة الوتر، وتتكون من عشر ركعات يسلم بعد كل ركعتين منها وكانت هذه الصلاة تؤدى بشكل فردى كصلاة الشفع وصلاة الوتر وكأية صلاة تطوعية[12].

وفى ليلة السابع والعشرين من رمضان المعروفة بليلة القدر Leila alcadri والتى كان الموريسكيون – كما يعلمهم القرآن فى السورة رقم ٩٧[13] – يعتقدون أن الله قد أوحى فيها لمحمد بالكتاب المقدس. وكانوا يعتقدون أيضا أن الله يصدر فى هذه الليلة قرارات لا مرد لها بشأن الدنيا تسرى خلال العام كله. كانت الصلاة التطوعية فى تلك الليلة تتكون من أربع ركعات تُقرأ فى كل واحدة منها سورة الفاتحة مرة واحدة وسورة القدر مائة مرة وسورة "قل هو الله أحد" خمسا وعشرين مرة، وبعد كل ركعتين تقرأ التحيات ويسلم. وتؤدى هذه الصلاة التطوعية فى الثلث الأول من الليل. وكان من المعتاد الاستمرار فى الصلاة بعدها، بتأدية صلوات مفروضة فائتة أو صلوات تطوعية لا حصر لها يسلم بعد كل ركعتين منها أو بمتابعة الفقيه فى قراءة القرآن.

وفى ليلة التاسع والعشرين – بعد القيام بالوضوء وقول "سبحان الله" عشر مرات وترديد الدعاء "اللهم صل على جبريل وميكائيل وإسرافيل وحملة العرش وآدم وحواء وجميع الأنبياء" – كانت تؤدى صلاة من ركعتينُ تقرأ فى كل واحدة منهما سورة الفاتحة والسور الآتية (سبع مرات): "قل يا أيها الكافرون" و "إذا جاء نصر الله والفتح" "قل هو الله أحد" و "قل أعوذ برب الفلق" و "قل أعوذ برب الناس" ثم تقرأ التحيات ويسلم. بعدها مباشرة يسجد المسلم ويقول أثناء السجود: "بسم الله الرحمن الرحيم"

(*) نستخدم هنا تعبير المؤلف ولعل المقصود به صلاة التراويح. (المترجم)

اللهم تقبل صيامي وارحم ضعفي، لك أصوم وعلى رزقك أفطر، السلام عليك، منذ إعلان شهر رمضان قد تصرفت باستقامة مع من يؤدى لك تعاليم القرآن ويتبع تعاليم هذا الشهر تقديسا لك. السلام عليك. إن إعلان شهر رمضان هو أعظم بركاتك وأعظم كمالك، تجاوز بشفاعة من يصوم عن العبد الذى لم يؤد واجب الصوم، وبشفاعة من يحافظ على عبادتك، عن العبد الذى لم يستمر فى العبادة، رحمك(*) الله ورحمنا ورحم المسلمين والمؤمنين رجالا ونساء الأحياء والأموات يا رب العالمين".

وفى آخر ليلة من الشهر أى الليلة التى يظهر فيها الهلال الذى يبين نهاية الصيام وبداية عيد رمضان كانت تؤدى صلاة الإشفاع(**) وبعدها مباشرة تؤدى صلاة "وداع رمضان"(***) وهى شبيهة بصلاة ليلة القدر التى عرضناها سابقًا، ثم يدعو المسلم ربه بحاجته الخاصة ويضيف إلى الدعاء أحيانا الجملة التالية: "اللهم أنت العفو فاعف عنى وسامحنى".

الشهر العاشر – شوال:

أول أيام هذا الشهر هو عيد رمضان أو عيد الفطر، وكانت تؤدى فيه صلاة خاصة كما ذكرنا سابقا(١٤).

الشهر الثانى عشر – ذو الحجة:

اليوم العاشر من هذا الشهر يوافق عيد الأضحى، وكانت تؤدى فيه صلاة الظهر بنفس طريقة صلاة عيد الفطر. وصلاتا العيدين كانتا واجبتين بمقتضى السنّة

(*) هكذا ورد فى النص الاسبانى، والدعاء غريب، إذ الخطاب هنا موجه إلى الله تعالى. هذا دليل آخر على عدم الدقة فى قراءة النص. (المترجم)

(**) يقصد صلاة التروايح كما ذكرنا سابقا، ومن المعلوم أن هذه السنّة لا تؤدى فى ليلة عيد الفطر. (المترجم)

(***) لاحظ مخالفة ذلك لصحيح الإسلام. (المترجم)

كما وضحنا[١٥]، ومن الملاحظ أنه خلال الأيام الثلاثة التى تُذبح فيها الأضحيات، أى منذ صلاة الظهر يوم العاشر من ذى الحجة حتى صلاة الصبح فى اليوم الرابع عشر(*)، كان من الواجب أن تردد جملة "الله أكبر" ثلاث مرات بعد كل صلاة مفروضة، سواء إذا أديت فى وقتها، أو فى أية ساعة أخرى.

(*) لاحظ عدم الدقة، فاليوم الثالث يوافق اليوم الثانى عشر –لا الرابع عشر– من شهر ذى الحجة. (المترجم)

هوامش الفصل السابع

(١) MBN, n 5306 (Sa. Gg, 85) fol. 20-24

MBCEH n XXVIII, fol. III-114.

(٢) MCG, T- 13, fol. 131-132. BRAH.

(٣) MCG, T-19, ps. 214- 218, BRAH.

(٤) MBCEH, n III, fol. 160.

(٥) MCG, T-13, fol. 134 v 135. BRAH.

(٦) MBCEH, n III, fol. 112, y n XIII, fol 112 v.

(٧) MCG, T -19, ps. 214- 218. BRAH.

(٨) MBN, n 5380 (Sa. Gg 286) fol 143 - 156 v.

(٩) MBN, n 5306 (Sa. Gg. 85) fol 1-14.

MBCEH, n XXVIII, fol. 114 v 141 v.

(١٠) يرى بعض المفسرين أنه يسمى يوم عاشوراء لأن الله منح فيه فضائل خاصة لعشرة من أنبيائه. فقد غفر ذنب آدم واستجاب لنوح دعاءه بشأن الكافرين، ورفع إدريس مكانا عليا، وشفى أيوب من المرض، وأخرج يونس من بطن الحوت، وأنقذ إبراهيم من نار الملك نمرود، ورد البصر إلى يعقوب، وأنقذ يوسف عندما كان فى الجُب وغفر ذنبه، وردّ إلى سليمان السيادة على مملكته، انظر:

MBCEH, n LV, fol. 61 v.

ويرى مفسرون آخرون أن الأنبياء المشار إليهم والأحداث المقصودة هى:

١- موسى الذى أُنقذ من اليم. ٢- إبراهيم. ٣- سليمان الذى عاد إليه خاتمه.

٤- آدم. ٥- داود. ٦- إدريس.

٧- أيوب. ٨- يونس. ٩- نوح الذى نجا من الفيضان.

١٠- عيسى الذى أُنقذ من صلب اليهود له (حسب الاعتقاد الإسلامى).

هذا هو اعتقاد أهل المغرب كما يذكر Maulieras انظر:

Doutle l'islam algerien, p. 97.

(١١) MBCEH. n III, fol. 102 v y 158.

(١٢) انظر الصفحات ٩٩، ٩٨، ١٠٠ من هذا الكتاب.

(١٣) انظر الصفحتين ٨٢، ٩٣ من هذا الكتاب.

(١٤) انظر صفحة ٩٧ من هذا الكتاب.

(١٥) انظر صفحة ٩٧ من هذا الكتاب.

الفصل الثامن

الصـــلاة (الجزء السادس)

الدعـاء adoas :

تحتوى كتب الصلاة التى كان الموريسكيون يستخدمونها على بعض الأدعية مثل الدعاء المعروف باسم دعاء الهياكل السبعة Siete alhaicales، ودعاء الصحيفة adoa assahifa، ودعاء السرج(*) adoa del arnes.... إلخ. والمحتوى العام لهذه الأدعية هو تذكُّر رحمة الله بعد ذكر الصفات الإلهية العديدة، ويرفق مع نص الأدعية عادة شرح الفوائد التى تجنى من ترديد هذه الأدعية. نكتشف من هذا الشرح سمة المعتقدات الخرافية إلى حد ما التى تميزها.

وتكثر فى هذه الأدعية التسابيح القصيرة. والكتب الطقوسية الخاصة بالفقهاء(**) لا تخلو من بعض الأدعية وهى لطولها النسبى ولسموها النسبى يجب أن تردد - فيما يبدو - خلال الشعائر الدينية التى يؤديها الفقهاء وللشخصيات الأخرى الأقرب إلى الكمال الدينى من عموم المسلمين. وننشر فيما يلى نص دعاء معين تُذكر فيه النعم التى وهبها الله للشخصيات التوراتية (للأنبياء) ولمحمد ويرجى فيها رحمة الله ومغفرته. ننقل الدعاء كاملا رغم طوله لما له من دلالة على المعتقدات الموريسكية بشأن الإنجيل، بالإضافة إلى تقديم فكرة كاملة عن شعائرهم الدينية.

(*) لا أساس لكل هذه الأدعية فى الإسلام الصحيح. (المترجم)

(**) ليس فى الإسلام الصحيح كتب تخص الفقهاء دون غيرهم. (المترجم)

دعاء لطلب عفو الله عن المذنبين[١]:

اللهم إنك قلت (وقولك الحق): "ادعونى أستجب لكم". اللهم أدعوك بالنعمة والحب اللذين أنعمتهما على آدم أبى البشر وبمقتضاهما خلقته بيدك وبثثت فيه الروح وسجدتْ له ملائكتك وبأمرك جعلته يسكن الجنة، لصلاته التى رفعها إليك بعد خطيئته، ولأنك سمعت دعاءه ورحمت دموعه وغفرت ذنبه. لكل ما تقدم أدعوك اللهم أن تسبغ الرحمة والبركة والنعمة والحب على محمد وآله وأن تحميه يا أرحم الراحمين يا رب العالمين.

اللهم بالنعمة التى وهبتها لنوح وبالثناء الذى أثناه عليك عندما كان فى السفينة فأنقذته من الفيضان هو ومن معه، بالنعمة والحب اللذين أسبغتهما على إدريس وبأعماله الصالحة وعبادته إياك كرَّمته ورفعته إلى السماء الرابعة[٢]. بالحب والنعمة اللذين أسبغتهما على إبراهيم فاتخذته خليلا ولأعماله الصالحة وتسبيحه لك جعلته بين الركن وسطح الحائط[٣]، ولسجوده لك بين الصخرتين أنجيته من نار نمرود[٤]. بالنعمة التى وهبتها لإسماعيل فأنجيته من الذبح وبما أنك باركته كثيرا ولأنك وعدته (وعداً صدقا) أن سيخرج من صلبه اثنا عشر أميرا يضاعفون ذريته كنجوم السماء ورمل البحر.. أدعوك ربى أن تغفر لى وأن تعيننى وأن تنير قلبى وأن تجيب يا أرحم الراحمين... إلخ.

اللهم بالنعمة التى أنعمت على يعقوب وبدعائه الصالح لك عندما فقد ابنه يوسف فدعاك بخضوع واستمرار فلما بكى وترجى كف بصره وحزن قلبه وضمرت عيناه واضمحل جسده حتى سمعت دعاءه وأعنته وأعدت إليه ابنه بعد ثمانين عاما ورددت إليه البصر، أرجوك يا إلهى أن ترحمنا وتغفر لنا بقدرتك يا أرحم الراحمين.. إلخ، اللهم بالطلب الذى طلبه منك يوسف فى الجب الذى ألقاه فيه أخوته وفى السجن الذى دخله لسبع سنين ولأنك أخرجته من الجب ومن السجن وجعلته يحكم أرض مصر، بالنعمة التى أنعمت على هارون(*) وبدعائه لك فى البيت المقدس (الوادى المقدس؟)

(*) من الواضح أن النص الموريسكى يتحدث عن موسى لا عن هارون عليهما السلام، وربما كان هذا أثراً يهودياً. (المترجم)

حيث أثنى عليك ولهذا رحمته يا رحيم. بالنعمة التى أنعمتها على سمعه إذ سمع كلمتك وعلى عينيه إذ رأى نور عظمتك ولأنك كلمته دون حجاب فى جبل سيناء وأنجيته وأنجيت بنى إسرائيل من الغرق فى اليم. لكل هذه النعم ودلائل العطف التى أوليتها لهؤلاء الأنبياء بدعائهم لك وتسبيحهم لك وعبادتهم لك أدعوك يا إلهى وأرجوك أن تغفر لى وترحمنى وترحم أبى وأمى وجميع أمة محمد وأن تظلهم برحمتك فى جنتك يا أرحم الراحمين.... إلخ.

اللهم بثناء يونس عليك "داخل وخارج" بطن الحوت(*) والذى أخرجته به إلى سعة الدنيا والفضاء وقلت فى قرآنك الكريم إنه لولا أنه كان ممن يدعونك لجعلته يسكن فى بطن الحوت حتى يوم القيامة(٥)، اللهم اسمع دعاءنا وارحم بكاءنا واغفر ذنوبنا وذنوب أبائنا وأمّهاتنا يا أرحم الراحمين إلخ. اللهم أرجوك بدعاء أيوب(٦) لك عندما امتحنته بالألم وكان مريضا سبع سنوات وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات وفى ذلك الوقت دعاك كثيرا كالغارق فى الألم والذنب، دعاك بقلبه وخضوعه ولهذا سمعت بكاءه وأزلت عنه الوهن، اللهم فارحمنا واغفر لنا يا أرحم الراحمين... إلخ.

اللهم أدعوك بالنعمة التى وهبتها لداود وبعمله الصالح ودعائه عندما أذنب (معرضا للموت) أوريا(**) ولأنه عندما سبَّحك واسيته وغفرت له ذنبه فاغفر لنا يا أرحم الراحمين..، اللهم بالنعمة والقوة والحكمة التى منحتها لسليمان ولدعائه الصالح لك إذ طلب منك أن تؤتيه ملكا لم يؤت أحداً من قبل (فأنت خير الواهبين) ووهبته السلطة على الإنس والجن والرياح، اللهم فأعنّا واسمع دعاءنا واستجب لنا واغفر ذنوبنا وخفف عنا حتى نعبدك برحمتك يا أرحم الراحمين...... إلخ.

اللهم أدعوك بدعاء يوشع josue(***) الذى استجبت لهُ فأوقفت الشمس فى الأفق حتى انتصر على الأعداء وبدعاء صالح لك عندما أخرجت ناقته من الصخرة الحية(٧)،

(*) فى النص الإسبانى "السمكة". (المترجم)

(**) الموريسكى متأثر هنا بما ورد فى التوراة عن سيدنا داود. (المترجم)

(***) هنا يبرز أثر التوراة فى الموريسكيين إذ أن هذه الشخصية لم يرد ذكرها فى القرآن الكريم. (المترجم)

وبدعاء Daniel(*) عندما ألقيته في كهف الأسود، وبدعاء Set وهابيل وإلياس وذى القرنين[8] عندما كان يفتح الدنيا من المشرق إلى المغرب لكي يخضعها لعبادتك، والخضر[9] الذى وهبته الحكمة لطلبه ودعائه لك تحت موج البحر وخارجه وهبته الحياة التى تستمر حتى نهاية العالم، وبدعاء لوط[10] وبدعاء زكريا[11] لك فى البيت المقدس عندما كان يربى مريم وبالنعمة التى وهبتها ليحيى Juan فأعطيته الحكمة عندما كان طفلاً وجعلته يموت دون أن يقترف ذنبا، وبالنعمة التى وهبتها لمريم[12] التى ذكرتها واصطفيتها وشرفتها على نساء العالمين وبدعائها لك فى المحراب فى البيت المقدس وتحت النخلة[13] إذ جاءها المخاض "عندما وجدت نفسها فى ضيق وخوف، لأن اليهود كانوا يريدون قتلها"، وبالنعمة التى أنعمت على عيسى قائلا: "كن" وبعد ذلك أوحيتَ إلى مريم أمه وبروحك وُلد دون فساد ذكر ولأن عيسى - بأمرك - كان يصنع الطير من الطين وينفخ فيه فيطير[14] وبأمرك كان يحى الموتى وبدعائه لك عندما كان فى خوف وحزن لمطاردة اليهود له وتكريما له أعنته ووضعته فى مكان علىّ، فلم يقتلوه وإنما رفعته منزلة وشرفًا اللهم فأعنًا واغفر لنا يا أرحم الراحمين... إلخ.

اللهم أدعوك بالنعمة والحب اللذين وهبتهما للمختار المحبوب المفضل المكرم النبى محمد الذى فضلته على الناس ووضعته كرئيس للأنبياء ورئيس للمرسلين ولأنك غفرت له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وفضلته بالدعاء لأمته يوم الدين وبالدرجة الرفيعة[15] وبما طلبه منك ورجاك ودعاك إليه وسجد فى موضع بالمحراب وفى مدينة يثرب وفى البيت الحرام بمكة وفى جبل عرفة وبين الصفا والمروة[16]، وبالنعمة التى أنعمتها على جبريل الأمين فكرمته وميزته برسالة وحيك إلى الأنبياء، وبالنعمة التى أنعمتها على إسرافيل المكلف "بأن ينفخ فى البوق نفخة الخوف والموت ونفخة البعث" وبالنعمة التى أنعمتها على عزرائيل Gazarail[17] ملك الموت المكلف بقبض الأرواح وعلى حملة عرشك وعلى الملائكة الثمانية الذين طهرتهم وأحببتهم وعلى ملائكة السماء الذين يعبدونك حق العبادة اغفر لنا يا أرحم الراحمين.. إلخ.

(*) مثل آخر على أثر التوراة فى الموريسكيين. (المترجم)

اللهم أسألك بكل الثناء والأدعية والتسبيحات التى يرفعها إليك هؤلاء الملائكة وبصلاتهم لك وقوفا وركعًا وسجداً يا رحيم يا الله، بكل هذه النعم التى وهبتها لكل الأنبياء الذين دعوك. أسألك (بهذه الأدعية) بعين باكية وقلب منكسر، وبخوف منك أقف ببابك كالسائل الحزين الذى يشكو حاجته الشديدة، إن كانت ذنوبى عظيمة فرحمتك أعظم.

اللهم أتيت إليك تائبا من كل ذنوبى لا أستحق أن أذكر بلسانى أسماءك الحسنى ولا نعمك لكى أدعوك وأطلب مغفرتك بها. اللهم أدعوك بما دعاك به الـ١٢٤ ألف نبى وبالنعمة والبركة اللتين وهبتهما للـ١١٤ سورة من قرآنك الكريم الذى جعلته أفضل من كل المخلوقات أن تغفر لى ولأبى ولأمى وأن تدخلنى الجنة وأن تهدينى إلى ما يقربنى إلى حبك وطاعتك يا رحيم يا الله أنت الرحمن لا عظيم إلا أنت، أنت الخالق وأنا المخلوق، أنت القوى وأنا الضعيف، أنت الملك وأنا الأسير، أنت السيد وأنا العبد، أنت الكريم وأنا الذليل، أنت الغنى وأنا الفقير، أنت المعطى وأنا الذى يطلب، أنت الغفار وأنا المذنب، فاغفر لى يا رب العالمين.

اللهم أسألك بالصلوات الخمس التى تؤدى لك فى الليل والنهار، فى السماء والأرض وبكل أسمائك وعظمتك ونعمك التى لا تحصى وبأحب من تحب وبمن رفعت بقدرتك من شأنه وبالأكمل والأمين بقدرتك النبى محمد، وبجلاك واسمك الأخفى الذى تحبه وتحب أن تُدعى به والذى تجيب من سألك به وبكل أسمائك الحسنى(١٨) التى وردت فى التوراة والإنجيل والزبور والقرآن الكريم، وبما كشفت للناس وبما لم تكشف وقضيت أن يكون مكتوما فى سر قدرتك وبكلّ من يسبحونك: الملائكة حملة عرشك الذين يحملونه على أعناقهم وبكل الأسماء التى يسبحك بها كل ملائكة السماء وملائكة كرسى العرش والمختارون المقربون، وبمن يعبدونك فى الأرض العادلين الطاهرين الذين يسبحونك كثيرا فى المآذن والروابط، فى الجبال والوديان، فى البر والبحر متحدين مع المذنبين الذين يخشون عقابك ويرجون عفوك ولأن دعواتهم عادلة جديرة بأن تستجيب لها بقدرتك وأن تغفر لهم وترحمهم، اللهم فاغفر لنا يا أرحم الراحمين.. إلخ.

اللهم طهر قلبى بعبادتك والإخلاص لك حتى لا يجد متعة إلا فى عبادتك وتسبيحك فى كل عمل أقوم به حتى أفوز بتكريمك وغفرانك وحتى تقينى عذاب جهنم وعذاب القبر ووحشة يوم القيامة وهول الصراط وكل الأهوال الأخرى التى أخشاها يا أرحم الراحمين... إلخ، اللهم أسألك إيمانا صادقا وقلبا مسرورا لا يعود إلى الضلال، وألاّ يقع بى إلاّ ما أمرت، ورضنى بما أعطيتنى وأن أبلغ بذلك تسبيحك فى الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين.. إلخ.

يا رب اطمأن قلبى إلى أنه لن يُدمَّر ما دمت أنت حاميه، يا الله يا رب، قريب لا بعيد، حاضر لا غائب، غالب لا مغلوب، اهد كل تفكيرى ووفق كل أعمالى، فأنت القادر وأنت مفرِّج الكروب والضيق والهموم يا أرحم الراحمين.. إلخ، اللهم أسألك بقدرتك وعلم نعمتك التى يولد بها الطفل فى رحم أمه وتخرجه من تلك الظلمات إلى النور وإلى رحب الدنيا والفضاء، يا رب أسألك أن تذهب عنى الحزن ومحدثات الأمور وكل نزعة طائشة وكل ضيق أيًا كان يا أرحم الرحمين... إلخ. اللهم اجعل خير أيامى يوم لقائك، وقنى شرور الدنيا والآخرة واجعل قولى صدقا يا رحمن.

يا رب، اطمأن قلبى إلى أنه لن يدمر ما دمت معى، يا رب أنت أمانى، ارحمنى برحمتك الواسعة فأنت تعلم حاجتى وقادر على قضائها. إن حاجتى عظيمة وهى عليك هينة... يا رب اقض حاجتى فى أن أعبدك يا أرحم الراحمين.. إلخ. اللهم تقبل صيامنا ودعاءنا وتسبيحنا وطهورنا وركوعنا وسجودنا كما تقبلته من نبيك محمد يا أرحم الراحمين.. إلخ. اللهم اغفر لنا ذنوبنا وذنوب آبائنا وأمهاتنا. اغفر لهم ما قصروا فى حقك، واغفر لنا وللجميع(*) خاصة المسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات فأنت الغفور الرحيم وأنت مجيب الدعاء. وصلى الله على قائدنا محمد الكريم وعلى آله والصالحين والمتقين وعلى كل أنبياء الله رب العالمين.

(*) يفهم من هذه الجملة أن الدعاء يشمل أيضا أهل الكتاب. (المترجم)

دعاء بأسماء الله[١٩]:

الدعاء المسمى دعاء أسماء الله عبارة عن ورد يتكون من مائة ذكر يصحبه دعاء قصير يتفق مع صفة الله التى يُدعى بها. ويعتقد المسلمون أن الله قد أمر بأن يُدعى بهذه الأسماء وأن كل من يفقه معناها ويحفظها عن ظهر قلب سيدخل الجنة. سيلاحظ القارئ أن الاسم الواحد يُكرر عدة مرات فى الورد، وهذا يرجع إلى تشابه المعانى بين المرادفات العربية التى لم تكن تعديلاتها الطفيفة يكاد يدركها الموريسكيون. ومن هنا الصعوبة التى وجدها الموريسكيون لكى يجدوا فى الإسبانية – التى لم يكونوا يتقنونها جيدا – الترجمة الصادقة لأسماء الله كما ترد فى النصوص العربية.

إن ذكر أسماء الله ذو تراث طويل، ولا شك فى أن أسماء الله ذات أصل مسيحى من حيث الموضوع الإلهى – التصوفى، مع أن تحديدها فى مائة اسم مشتق من الحديث المنسوب إلى محمد والذى رواه أبو هريرة بالشكل التالى: "إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحدا، إنه وتر يحب الوتر"، من أحصاها(*) "دخل الجنة". وهناك العديد من التفسيرات الصوفية التى شكلت على أساس هذا الحديث فى محاولة لفهم معنى كل واحد من التسعة والتسعين اسما وخاصّة "الاسم الأعظم" الذى يكمل المائة(**) والذى تنسب إليه صفة سحرية خاصة شبيهة بالصفة التى أوجز المصريون القدماء فيها ألغاز السحر[٢٠].

يا دائم اهدنى بقدرتك إليك، وانعم علىّ بالثبات على عبادتك حتى أكون من المختارين فى حضرتك يا رحمن. يا رحيم بالصالحين والطالحين فى هذه الدنيا، ارحمنى وانعم علىّ وابعد عنى – بقدر الإمكان – كل همّ وكل خوف منك.

يا رحيم، يا رحيم بالصالحين فى الآخرة، ارحمنى حتى أفوز بجنتك وأتمتع بنعيم القرب منك وبرؤيتك.

(*) يترجم المؤلف كلمة "أحصاها" حرفيا، مع أن المقصود بها "من تدبر معانيها وتخلق بآدابها". (المترجم)

(**) لا حظ عدم دقة العرض: يذكر المؤلف أن الأسماء مائة ثم يدلل على ذلك بحديث يقول إنها تسعة وتسعون. (المترجم)

يا ملك، يا ملك الدنيا والآخرة، الملك الكامل التام، قربني من نعيمك ومن ملكك الفسيح فى الخير والعظيم فى الأعمال.

يا قدوس، طهرنى من الآثام والعيوب والزلات ونظفنى من ذنوبى ومساوئى.
يا سلام، سلمنى من كل مظهر سوء واجعلنى من الذين يتقربون إليك بقلب نقى.

يا مؤمن، أمنّى يوم الفزع الأكبر وانعم علىّ بزيادة الإيمان.

يا مهيمن، ضعنى تحت ملكوت عنايتك، فأنت تسمع وترى، دون ألا أتخلف عن الإيمان بك أو عن وعدك أبدا.

يا عزيز، ضعنى بنعمتك بين الخاشعين لك واجعل أعمالى أعمال الصالحين فى حضرتك.

يا جبار، وفّق بين حالتى وتعاليم إرادتك ولا تجعلنى أبدا متكبراً على عبادك.
يا متكبر، اجعلنى من الخاشعين لسلطانك وحكمك. يا خالق، اجعل قلبى به صفة الطاعة وابعد عنى كل عنف واضطهاد.

يا بارئ، اجعلنى من أفضل عبادك واجعل عملى شريفا كريما. يا مصور، صورنى بأنسب شكل لعبادتك، امنحنى النور اللازم لكى أدرك عظمتك.

يا غفار، اغفر لى ذنوبى صغيرها وكبيرها وزلاتى وهفواتى.

يا قهار، اجعلنى أرى بعين قوتك الغالبة وقنى شر عدم الخوف من عقابك.

يا وهاب، هب لى من النعم ما أتمكن به من تنفيذ أوامرك. يا فتاح، افتح لى أبواب كرمك وأكّد لى (الحصول على) جزاء الصالحين. يا عليم، اجعلنى أعلم ما ترضى به عنى. يا قابض يا باسط، اقبضنى إلى كنفك من مطاردة أى أحد واقض حاجتى بنعمة السلوى.

يا خافض يا رافع، نزل علىّ الرغبة فى أن أطلب نعمتك وارفعنى بالقرب منك واجعلنى من عبادك (المخلصين).

يا معز يا مذل، أعزنى بعزة الإيمان بإله واحد ولا تذلنى باتباع خطوات الشيطان.

يا سميع، أسمعنى فى أخبارك اللطيفة من هو الصالح واجعلنى من الذين يسمعون ويرون كل أوامرك ونواهيك.

يا بصير، اجعلنى أميّز الأمور فى الدين بحيث أنتهى دائما عن كل إثم وكل ما نهيت عنه. يا حكم، اقض علىّ بحكمك وحكم شريعتك الكريمة.

يا عدل، اجعلنى من الذين يراعون العدل فى أعمالهم. يا لطيف، الطف بى بعنايتك وحكمك واجعل لى نصيبا فى كرمك ونعمك. يا خبير بالأسرار، اجعلنى أعرف عيوبى الخافية وأطلب المغفرة من كل ذنب.

يا حليم (بسيط) علِّمنى أن أكون بسيطا وأن أعرف الدين الحق. يا عظيم، يا من لا يدرك عظمته أذكى المتأملين، اجعل لى فهما عظيما حتى أرتفع إلى درجة المختارين.

يا غفور، اغفر لى كل أخطائى و ذنوبى وألحقنى بمن رضيت عنهم. يا شكور، اجعلنى أبدى شكرى على نعمك علىّ وأن أذكر دائما نعمك وخيراتك.

يا علىّ، يا من له صور الكمال والسمو، اجعلنى بقدرتك من الذين يصلون إلى الدرجات العالية فى اتباع شريعتك.

يا كبير، يا من لا يبعث كبره على الافتخار (بالنسبة له) اجعلنى من الكبار الذين لهم أقوى السلطان.

يا حفيظ، احفظنى من منفذى عذابك واجعلنى أعمل كل ما أمرت به أن يؤدّى فى شريعتك.

يا مقيت، احفظنى سراً وجهراً بعنايتك وأعنّى على طاعتك فى كل لحظات حياتى. يا حسيب يا من تحسب الأعمال قبل يوم الامتحان اكفنى بتأييدك فى كل امتحان.

يا جليل، يا من يصغر أمام جلاله كل جلال، اجعلنى أراعى دائما جلالك والخشية منك. يا كريم، اجعلنى من الكرماء بطاعتك وخشيتك وامنحنى كرم التطلع إلى وجهك فى الجنة.

يا رقيب، امنحنى نعمة المعرفة التى تبعدنى عن معصيتك وتقينى من أن أُحاسب أمامك على نسيانى وإهمالى.

يا مجيب، أجب من دعاك بأسمائك الحسنى واجعلنى من الذين ينفذون أوامرك ويتبعون أنبياءك.

يا واسع، يا من وسع علمه ورحمته كل شىء هب لى من رحمتك القسط الوافى.

يا حكيم، يا من لا يخفى على علمه شىء امنحنى علما يهدينى إلى عمل الخير ويبعدنى عن عمل السوء.

يا ودود، يا من تحب رفقاءك ومختاريك الذين يسكنون بجوارك، أسبغ على قلبى حبك وأسبغ على قلوب المؤمنين حبى.

يا مجيد، بالفكرة التى تسبق أعمالك وعظمة بركاتك، امنحنى أعلى درجة تمنح لإنسان.

يا باعث، ابعث فىّ صور الخير المخبوءة فى ثنايا قلبى وامنحنى يوم القيامة الجزاء الأوفى.

يا شهيد، اجعلنى أخاف حضورك واجعل معرفتك عونا كافيا لى.

يا حق، طمئن قلبى بالاعتراف بوحدانيتك واجعلنى أحافظ دائما على شريعتك وأن أتوقف عند حدود أوامرك.

يا وكيل، اجعلنى ممن يتوكلون عليك فى كل أعملهم ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين.

يا قوى، قوّنى على طاعتك وابعد عنى شر نفسى وكل أنوا ع الشرور.

يا متين، ثبِّت دينى وثبتنى على الإيمان. يا ولى، تولنى بحمايتك حتى أرجو منك أن تتم شريعتك وعدلك.

يا حميد، اجعلنى ممن يحمدونك ويثنون عليك وأظلنى براية الحمد مع النبيين والعادلين والشهداء والصالحين. يا محصى كل شىء عددا وفهما وكميةً، اجعلنى من الذين يحصون أسماءك ويذكرونها بعددها ومعانيها.

يا مبدئ يا معيد، (يا خالق الأرواح ومعيدها إلى الأجساد) اجعلنى من الذين يبدأون عمل ما تحب ويفضلونه على ما يحبون، ويعودون إلى بابك بأمل صادق فيك شاعرين بحاجتهم.

يا محى يا مميت، احى قلبى حتى يتعرف على وحدانيتك وأمتنى حتى أقف بين يدى عظمتك.

يا حى، هب لى حياة نظيفة صالحة واسقنى شرب حبك العذب.

يا قيوم، علِّمنى ما يقينى من كل أذى وكل فضيحة وابعد عنى كل حزن واجعلنى أثق فى رحمتك وأن يهون علىَّ كل خطب. يا واجد، امنحنى غنى كرمك الدائم وهب لى معرفتك. يا ماجد، يا من تمجدت صفاته وحسنت أسماؤه هب لى شرف الرغبة فى أن أرتفع إلى المنزلة العليا.

يا واحد، وحدِّنى بمعرفة وحدانيتك وأعنّى.

يا صمد، (يا من لا تأكل ولا تشرب) امنحنى غذاء عبادتك وأن أظل فى حضرتك واجعلنى من الذين يظهرون حب عبادتك فى كل أعمالهم.

يا قادر، هب لى قدرة صالحة لكى أوفى بطاعتك وامنحنى القوة الكافية التى تقينى من الانجراف فى معصيتك.

يا مقتدر، اجعلنى بقدرتك وحبك من المتأدبين أمامك فى سكناتهم وحركاتهم. يا مقدم يا مؤخر، قدمنى مع المتقدمين الذين مأواهم دار السلام ولا تضعنى فى المؤخرة مع الضالين بذنوبهم.

يا أول يا آخِر، اكتبنى بقدرتك مع المتقدمين واختم قدرى بخاتم الذين يشهدون بوحدانيتك. يا ظاهر يا باطن، جمّل أعمالى الظاهرة بفضائل طاعتك وجمّل أعمالى الباطنة بالتقوى والإيمان بك.

يا ولى، احفظنى بإرشادك واجعلنى من الذين فضلتهم وحفظتهم.

يا متعال، هب لى نعمة مشاهدة عظمتك التى تذهب بها كل ظلمة ويتضح بها كل شك. يا بر، اجعلنى بارا فى نظرك وتقيا حتى ترضى عنى.

يا تواب، (يا من تقبل التوبة) هب لى نعمة أن أتوب إليك توبة خالصة تقينى من إغراء الذنوب.

يا منتقم، لا تنتقم منى فتجعلنى أقترف الذنب، واهدنى إلى طريق القول الطيب والعمل الطيب.

يا عفو، اعف عنى بنعمة كمالك واجعل أعمالى مستمدة من كرمك ونعمك، يا رءوف، اغفر لى برحمتك فى الدنيا والآخرة فى الدارين وامنحنى جزءا كبيرا من رحمتك بصحبة المؤمنين.

يا مالك الملك، أرجو أن تحفظنى بقدرتك من طريق الضلال. يا ذا الجلال والإكرام، احفظنى من الخطأ والظلم.

يا مقسط، اجعل كل أعمالى عادلة شكرا لعطفك وكمالك ولا تجعلنى موضع قصاصك.

يا جامع، اجمع كل ما يريد هدم وحدة أعمالى حتى أفوز بأن أجمع أمامك، وهب لى يوم العرض عليك نعمة رفقتك ورؤيتك.

يا غنى، اجعلنى غنيا بما أحتاجه من كرمك وكمالك وارحمنى يوم العرض عليك لشكرى لرحمتك وثنائى على جلالك. يا مغنى، (يا مبعد) (اغننى) أبعدنى عن كل شىء فى الدنيا وقربنى إليك واجعل أعمالى خالصة لك.

يا مانع، امنع عنى برحمة وجهك شر الأشرار واحفظنى بجمال وجهك من أن يعمنى الإثم. يا ضار يا نافع، اجعلنى ممن لا تضرهم الدنيا فى الفوز بالآخرة لأنهم يتركون متعها ولذاتها حين يفكرون فى النعيم الحقيقى.

يا نور السموات والأرض، يا من تهدى المؤمنين، اجعل هذا النور يهدينى إلى السير بصحبة عبادك.

يا هادى، اهدنى إلى العمل الصالح وجمّلنى بالعمل الطاهر. يا بديع السموات والأرض دون مثال أو صورة، علمنى بعلمك ما أزيح به كل شك.

يا باقى، يا من بقاؤه لا أول له ولا آخر، امنحنى النصيب الأوفى من مجلس بقائك.

يا وارث، أحصنى من ورثة كمالك فى مكان كريم، وبكمالك اجعلنى من ورثة جنتك.

يا رشيد، ارشدنى إلى طاعتك وحبك واجعلنى من عبادك الذين يسيرون على طريق وحدانيتك ومعرفتك.

يا صبور، ألهمنى الصبر لكى أحافظ على طاعتك وأتخلص من معصيتك فى السراء والضراء، وصلى الله على محمد الكريم وعلى آله وسلم.

والحمد لله رب العالمين

التسبيح: Tasbihes

نعرض فيما يلى نص التسابيح التى كانت أكثر شيوعا بين الموريسكيين. ومن الملاحظ أن هناك تسبيحات خاصة بأيام معينة أو احتفالات معينة فى العام الهجرى، وهناك تسبيحات خاصة بالحياة اليومية.

عند العطس (٢١): كان من المعتاد أن يقول من يعطس: "الحمد لله" وكان الموجود بجانبه يجيب قائلا: "يرحمك الله".

عند الشروق (٢٢): "أصبح الصبح، الحمد لله، أصبح الصبح وأصبحنا بقدرة الملك الأعظم، تذكروا يا أولى الأبصار، الملك كله لله الواحد، لله العزيز، الجنة أفضل من النار، أصبح الصبح لله رب العالمين".

ليلة السابع والعشرين من رمضان وفى العيدين (٢٣) "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

"الحمد لله" "سبحان الله" "الله أكبر" "لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم" "اطلب المغفرة من الله فهو يغفر برحمته".

هوامش الفصل الثامن

(١) MCG, n 17, fol. 130- 138. BRAH.

(٢) فى القرآن رقم ١٩، الآيات ٥٧-٥٨ (المترجم: سورة مريم، الآيات ٥٦ -٥٧) "واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقًا نبيًا، ورفعناه مكانا عليا".

(٣) أماكن فى الجزء المسمى مقام إبراهيم أو الموقع الذى شغله خلال تشييد الكعبة بمكة كما فى التراث.

(٤) يعتبر الحاخامات نمرودًا كمضطهد لإبراهيم، ويشير المفسرون المسلمون إلى أنه بأمر نمرود أحيط مكان فسيح فى Cusa ووضعت فيه كمية كبيرة من الخشب ولما أشعلت فيها النيران احترقت بشدة لدرجة أن أحدا لم يجرؤ على الاقتراب منها وأن إبراهيم قد أوثق ووضع فى آلة (يظن أنها من صنع الشيطان) قذفته فى وسط النار وأن الملك جبريل الذى أرسل لنجدته قد أنقذه منها فلم تحرق النار إلا الحبال التى أوثق بها إبراهيم. ويضيف المفسرون أن النار لما فقدت حرارتها بالنسبة لإبراهيم تحولت إلى ريح وأن مكان النار قد تحول إلى أعشاب طيبة الرائحة رغم أن الريح كانت تهب بشدة لدرجة أن بعض الكتاب يقولون إنها أهلكت ألفين من عبدة الأصنام.
انظر: Hugues. Dict. Op Islam, vo Nimrod, p. 434.

(٥) القرآن، سورة ٣٧ (الصافات) الآيات ١٤٣-١٤٤.

(٦) القرآن، سورة ٢١ (الأنبياء)، آية ٨٣: "وأيوب إذ نادى ربه أنِّى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين"(*)، يختلف المفسرون حول فترة معاناة أيوب فيقول البعض إنها استمرت أربعة عشر عاما ويقول آخرون إنها ثلاثة عشر عاما ويقول آخرون إنها ثلاثة أعوام. وهناك من يقول إنها سبعة أعوام وسبعة أشهر وسبعة أيام بالتحديد. انظر: Hugues. Dict. Op Islam, vo-2 Jop, p. 249.

(٧) القرآن، سورة رقم ٦، (الشعراء) آية(**) ١٥٥.

(٨) الترجمة الحرفية للاسم هى: "من له قرنان" وقد استخدمت هذه الكلمات فى القرآن، سورة رقم ١٨، آية ٨٢ (المترجم: سورة الكهف، آية ٨٣) للإشارة إلى الإسكندر الأكبر حيث تروى قصته فى نفس الموضع، وكلمة قرن Carn تعنى أيضا طرف ويبدو أن كلمة "ذو القرنين" تشير إلى الفاتح المقدونى الذى أخضع الشرق والغرب. انظر: Kasim. Le Koran, ps. 238 -239.

(*) (نشير إلى أن الترجمة الإسبانية غير دقيقة). (المترجم)

(**) (المترجم: نص الآية الكريمة هو "قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم" والآية كما نرى لا تحدد ما إذا كانت الناقة قد أخرجها الله من الصخر).

(٩) الخضر – الذى يشار إليه فى القرآن، سورة رقم ١٨، الآيات ٥٩–٨١ (المترجم: سورة الكهف، الآيات ٦٠–٨٢) – يعتبره المسلمون نبيا رغم أنهم لا يحصونه فى عداد الأنبياء المرسلين إلى الإسرائيليين أو إلى شعوب الجزيرة العربية. إنه شخصية غامضة يُنسب إليها العثور على عين الحياة والشرب من مائها واكتساب صفة الخلود. انظر: Kasim, Le Loran, p. 238.

(١٠) القرآن سورة ٢١ (الأنبياء) آية رقم ٧٤: "ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث....."

(١١) القرآن سورة ٣، آية رقم ٣٣(المترجم: هى سورة آل عمران آية ٣٨): "هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء".

(١٢) القرآن سورة ٣، آية ٣٧ (المترجم: سورة آل عمران: آية ٤٢): و إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين".

(١٣) القرآن، سورة ١٩ (مريم)، آية ٢٣ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة".

(١٤) القرآن سورة ٣، آية ٤٣ (المترجم: هى سورة آل عمران، آية ٤٩) "ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله".

(١٥) القرآن، سورة ١٧ (الإسراء)، آية رقم ١ "سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير". ويقول التراث الإسلامى إن محمداً قد أُسرى به ومعه جبريل إلى طبقات السماء على دابة اسمها البراق، ويذكر التراث عن الدابة أنها كائن له أجنحة على شكل امرأة وأن جسده كهيئة الفرس وله ذيل طائر. Cfr. Supra, p. 85

(١٦) مرتفعان فى مكة يفصل بينهما ٥٠٠ متر.

(١٧) الاسم الصحيح هو عزرائيل azarail.

(١٨) Cfr, infra, ps. III y sigs.

(١٩) MBN, n 5223 (Sa. Gg, 137), fol. 24- 33 v.

(٢٠) Cfr. Asin, Abenmasarra y su escuela, ps 155-158.

(٢١) MBN, n 4870 (Sa. Gg, 2) fol. 159.

(٢٢) MCG, T-13, fol. 136. BRAH.

(٢٣) MBCEH, n III, fol. 160 v, n XXVIII, fol 132-133.

الفصل التاسع

الصــلاة (الجزء السابع)

صلاة الاستسقاء[1]:

كان الموريسكيون لا يؤدون هذه الصلاة إلا فى حالة الجفاف الشديد وإزاء خطر هلاك الزراعة، وفى تلك الحالة كانت هذه الصلاة واجبة بمقتضى السنّة كما أشرنا عند عرض الصلوات الواجبة المختلفة. ولما كان الاحتفال تواكبه مهابة كبيرة فكان من الضرورة إعداد المؤمنين روحيا. ولهذا الغرض كان الإمام عشية اليوم المحدد لأداء الصلاة يدعو الناس أن يصوموا عندما يبدأ اليوم التالى. ولما كان من الأفضل أن يسبق الصلاة صوم لمدة ثلاثة أيام فكانت الصلاة تؤجل حتى اليوم الثالث. ويمكن أن تؤدى صلاة الاستسقاء - إذا دعت الضرورة - عدة مرات خلال العام وكل مرة فى يوم واحد أو خلال يومين أو ثلاثة أيام متتابعة أو غير متتابعة.

كان الصوم والصدقة شعيرتين واجبتين فى تلك المناسبة طبقا للسنة لما رُوى أن عمر بن الخطاب[٢] أمر به فى العام الذى امتحنهم الله فيه بالجفاف. لما كان هو على المنبر يوعظ الناس وهم يتأهبون لأداء صلاة الاستسقاء قال لهم: "أيها الناس، استقبلوا غدكم صائمين وسنخرج صباحا لصلاة الاستسقاء حتى يهبنا الله نعمة إبعاد الجفاف عنا، بعد ذلك بكى عمر ورفع يديه وهو على المنبر، وكان صوته القوى يُسمع من باب المسجد وهو يقول: "اللهم غفرانك وأتوب إليك"، وكانت الدموع تتساقط على لحيته وأصبح الناس فى اليوم التالى صائمين".

كما يُحكى فى تراث الموريسكيين أنه "لما رجع موسى بن نصير من إسبانيا إلى بلاد إفريقيا وجد الناس يشكون الجفاف والجدب فأمرهـم بالتصدق والصيام والخروج لصلاة الاستسقاء. أمر الناس أن يخرجوا فرادى، صبية ونساء، وأخرج أيضا الخيل والماشية فرادى، وصلى معه الناس باكين حتى الظهر، وبعد أن أدّى الصلاة ألقى خطبة حسب تعاليم السنّة ولم يدع فى ذلك اليوم لأمير المؤمنين. ولما أنكر الناس عدم الدعاء لأمير المؤمنين أجابهم: "ليس اليوم يوم هذا الأمر". واستجاب الله لدعائهم وبعد قليل أمدهم بالماء قدر حاجتهم، فلما حُكى الأمر ليناقشه مجلس العلماء أقروا تصرف موسى بن نصير وذكروا أنه وإن لم تكن الصلاة واجبة إلا أنها تُفضل فقد حرَّكت القلوب وحفزتها بالكرب إلى أداء الصلاة بتوبة أكبر" وفيما يلى نص:

دعوة الناس لصلاة الاستسقاء[٢] :

قال الله "ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون".

يُحكى أن داود كان يمشى ومعه قومه فى الجبال لصلاة الاستسقاء، فوصلوا إلى قصرٍ حصين ذى أسوار عالية لا يسكنه أحد ولا يسكن أحد، بالقرب منه. دخل داود ومعه الناس إلى القصر ورأى فيه ما لم يره أحد من قبل، فسار من جهة إلى أخرى حتى وصل إلى بيت من الرخام. نظر فرأى فيه حجرة واسعة بها قبة فيها أربعمائة قبر مبنية من الرخام، طول كل منها أربعون ذراعا، وكانت كلها لملوك حكموا ذلك القصر. وفى منتصف القبور كان هناك قبر رَحْب به رفات أحد أبناء آدم، تُوفى وهو ملك، وكانت فى مقدمته كتابة بحروف من الذهب تقول: "أنا الملك هشام، حكمت أربعة آلاف عام، فتحت ألف مدينة ذات حصون قوية، وهزمت ألف جيش، امتطيت أربعة آلاف فرس، اغتصبت أربعة آلاف فتاة عذراء من بنات الملوك، جميلات كالقمر ليلة تمامه، عشت فى الدنيا أربعة آلاف عام بين المتع والآثام أحصيتها طوال حياتى فى الليالى والأيام. جمعت ثروة تفوق ثروات كل الملوك مجتمعة. كان جيشى قوامه مائة ألف فارس من

الفرسان العزاب الأقوياء. تسيدت على ما لم تتسيد عليه الملوك من قبلى. قدمتُ الكثير من الهبات وقضيت بين الرعية، أجزلت العطاء وعشت فى رغد ورخاء، وها نحن فى هذه القبور الضيقة، وذلك لأننا مرت بنا سبع سنوات من الهلاك لم تنزل من السماء فيها قطرة ماء واحدة ولم ينبت فيها زرع، أكلنا كل ما لدينا وبعنا كل مخزوننا وأرسلنا العبيد والأحرار فى طلب المؤن بالمال والنفائس والمرجان والزمرد والأحجار الكريمة والياقوت والزبرجد، المثل بالمثل بل ويزيد، فلما لم يجدوا شيئا رجعوا إلينا متعبين دون زاد، ولما رأينا ذلك أكلنا الحيوانات حتى لم يتبق منها شيء، ثم أكلنا الجيفة.. ثم أكلنا أولادنا حتى نفدوا، فلما رأينا كل الزاد قد نفد أغلقنا المدن وأرسلتُ فى طلب الجند، وأمرتهم أن يجتمعوا أمامى ومعهم أسلحتهم من خوذات ورماح مزخرفة وسروج الخيل القوية. أمرتهم أن يستلوا سيوفهم الباترة وأن يمتطوا خيولهم السريعة بسبب هذا الحكم الذى حكمه علينا رب السماء والأرض وكل الديار. فعلوا ما أمرتهم وعندما مثلوا أمامى قلت لهم:

"يا أرباب السلاح، هل لكم القدرة عل أن تبعدوا عنى الأذى – الذى يسببه الجفاف – بأسلحتكم وشجاعتكم، بهذه الخيل السريعة وببسالتكم؟" ومروا جميعا فطأطأوا الرءوس وصمتوا دون أن يستطيعوا الرد. عندما رأيتُ ما حدث وكيف أن البلاء يضيق علىّ الخناق قلت لخزنتى: "يا أصحاب خزائنى، افتحوا الخزائن، وأخرجوا منها ودائعى وأموالى" فأخرجوها ولمّا وضعوها أمامى قلت لهم "اشتروا لى بكل هذا زادًا يكفينى يومًا واحدًا أو ساعة واحدة" فلما سمع الناس كلامى ذهلوا وصمتوا دون أن يستطيعوا الإجابة من الارتباك، فلما رأيت ذلك تركتُ نفسى لحكم الله ورضيتُ أن أكون ضحية البلاء، إذ كنت أرى كل يوم يموت بعضنا عند اجتياز الشوارع والطرقات، وأثناء حديث البعض إلى البعض كانوا يسقطون صرعى من شدة الجوع والجفاف. قاسينا تلك المحنة وقتا طويلا حتى متُّ معهم. فلينظر إلينا ويتّعظ بما حدث لنا كل من يريد ألاّ تخدعه الدنيا كما خدعتنا".

خرج داود ومعه الناس من القصر وساروا فى الصحراء حتى وجد قصراً آخر أكبر من القصر الأول فدخلوه، ورأوا فيه حجرة واسعة تغطيها قبة وفى وسطها سرير

يزينه المرجان الأحمر، وترقد عليه فتاة جميلة كالشمس وكأنها تبتسم، لم ير الناس أجمل منها قط. كانت ترتدى لباسا من الحرير، وتضع فوق رأسها تاجا من ذهب وكانت برفقتها وصيفات كثيرات، كان فى وسط الحجرة لؤلؤة يعمى لرقّتها من ينظر إليها. كانت الفتاة تبدو وكأن الحياة تدب فيها حتى أن من ينظر إليها كان يتولد عنده إحساس بأنها تنظر إليه. عجب داود لرؤية تلك الأعجوبة وقال للفتاة: "السلام عليك أيتها الفتاة" فقال له أحد الشيوخ الذين كانوا معه:

"يا داود، إنك تعلم أنها ميتة". كانت أمام الفتاة كتابة بحروف من الذهب تقول: "أنا فروا Forua ابنة الملك شداد، وحفيدة عاد، ملك الشرق والغرب[٤]. تسيّدتُ ما تسيّدوا وأمرتُ ما أمروا. أقمنا فى قصورنا المنيعة وتمتعنا فيها بكل أنواع الملذات ووُهبنا الرخاء حتى جاءنا أمر الله رب العالمين، فأعقبته سبع سنوات لم تسقط من السماء علينا فيها قطرة ماء، واضطررنا إلى أكل الماشية والحيوانات حتى الجيِّفة الملقاة، إلى أن نفد كل شىء، وإزاء حالتنا الشديدة أغلقنا أبواب المدينة، وتركنا أنفسنا لحكم رب كل شىء. فى اليوم التالى خرجتْ القوات والنساء والبنات والأحرار والعبيد ووقفوا جميعا أمام باب قصرى وطلبوا من الله النجاة وصاحوا جميعا صياحا كبيرا: "يا ربنا يا حامينا، أنت الذى لا تقضى دون حجة ولا تعمل دون عدل، أنت الذى لا تكلّف نفسا إلا وسعها فكيف تبعث هذا الضّرر على هؤلاء المذنبين وتحرمهم من المطر سبع سنوات؟ ها هم يقفون أمامك ويطمعون في ما تستطيع أن تهبه".

"يا ربنا، إنّ الأطفال يعيشون على ما يرضعون من صدور أمهاتهم، والشيوخ الذين تقدّم بهم العمر تراهم يأكلون الجيفة، والشباب ومتوسطو العمر قد هربوا إلى الجبال والصحارى؛ ليعانوا من الشدائد حتى الموت وحتى يوم القيامة، يتغذون على الزرع ومما تنبت الأرض كالحيوانات"، "يا ربنا، هل انقضى ما تملك أو انتهت خزائنك أو منعك أحدٌ العزةَ أو غيّر عرش جلالك؟"، "وبعد ذلك سُمع صوت الله يصيح بهم قائلا: "لم تنته خزائنى، و لا منعنى أحد عزتى، ولا تغير عرشى، فأنا الله الواحد الموجود، خلقتُ كل شىء وأنا الذى أُفنى كل شىء بالموت وبقدرتى، لا أظلم أحداً، فقد حرمت

الظلم على نفسي، ولكنني جعلت بينكم حرمات؛ فعصيتم أوامرى، وحكمتم فى ملكى، ومشيتم فى طريق الشر وعشتم فى الدنيا وتكبرتم بأموالكم ولما اتكلتم على أموالكم نسيتم الآخرة. ألا تعلمون أننى أرسلت إليكم نبيّى ورسولى حتى لا تكون لكم حجة على يوم القيامة؟ وقد عصيتموه وطردتموه من بلادكم، وقد فرضت عليكم عشر حرمات(*): الأولى: أن تمتنعوا عن الثرثرة، الثانية: الكذب، الثالثة: الحسد، الرابعة: ألا تقتلوا أحدا، الخامسة: ألاّ تزنوا، السادسة: ألا تشربوا الخمر، السابعة: ألاّ تجهلوا على أحد، الثامنة: ألاّ تسيروا وراء الربا(**)، التاسعة: أن تتمسكوا بالإيمان، العاشرة: ألا(***)...، وقد عصيتم أوامرى وكذّبتم رسولى، ولأنكم خالفتم أوامرى، فقد حرمتكم من المطر. ورغم ذلك فإننى أقول لكم إنّنى حرّمت الظلم على نفسى وحرمته عليكم، فلا تظلموا ولا تعتدوا".

يا عبادى، كلكم ضالّ إلاّ من هديته فاستهدونى أهدكم، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم. يا عبادى كللكم عارٍ إلا من كسيته فاستكسونى أكسكم. يا عبادى، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم. يا عبادى، إنكم لن تبلغوا ضرّى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى. يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى، فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى شيئا(****). يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم؟ ثم أوفيكم أجورها، فمن عمل صالحا(*****) فليحمد الله ومن عمل غير ذلك(******) فلا يلومنّ إلاّ نفسه.

(*) لاحظ أثر المسيحية واليهودية فى إسلام الموريسكيين. (المترجم)

(**) يستخدم المؤلف الموريسكى لفظا له معنى مزدوج: الربا والمكسب وبديهى أن الإسلام لا يحرّم إلا الربا فكان من الأولى استخدام لفظ دقيق مثل usura. (المترجم)

(***) لم يذكر النص الإسبانى الوصية العاشرة. (المترجم)

(****) يلاحظ هنا ترك جزء من الحديث القدسى، وترجمة المؤلف فيها تصرف. (المترجم).

(*****) هكذا ورد فى النص الإسبانى، أما نص الحديث القدسى فهو: "فمن وجد خيرا". (المترجم)

(******) فى نص الحديث القدسى "ومن وجد غير ذلك" يعنى الجزاء. (المترجم)

عندما طهّر الناس نواياهم وندموا على ذنوبهم وسبّحوا الله، أرسل عليهم المطر، ونبت الزرع والمرعى، وخرجت من الأرض الخضروات والبقول، وتغذى الناس من الزرع ومما تنبت الأرض ما شاء الله حتى انتهى أجلى وأشرفتُ على الموت جوعا(*). بعد ذلك أمرت أن تُنقش هذه الكتابة أمامى حتى تكون عبرة للناس ووعظا، وجئت إلى هذا القصر ووضعونى كما ترون: الأرض سريرى والأحجار وسادتى"، "حفظ الله قلوبنا وبطوننا من شر الجوع، وأبعد عنا برحمته العقم والجفاف والبلاء آمين، آمين، آمين".

بعد أن يستعد المؤمنون روحيا نتيجة للوعظ السابق يخرجون من بيوتهم فى جماعة، فى فجر اليوم الذى تؤدى فيه الصلاة، إلى الخلاء، إذ أن الصلاة يجب أن تؤدى فى الخلاء. وكان محظور أداؤها فى شوارع أو ميادين لاعتبارها أماكن قليلة الورع، لأن الخلاء - بسكونه وبعده عن الحياة العادية - يدفع إلى التأمل فى خلق الله عن قرب والشعور بالندم فى ظروف أنسب. كان الإمام يقود المصلين، وكان الجميع يسيرون على الأقدام فى تواضع وأناة وخشية لله. كانوا لا يحلقون شعورهم فى ذلك اليوم ولا يرتدون الثياب الجديدة القيِّمة. كانوا يرتدون ثيابا مستعملة غير التى كانوا يرتدونها للصلاة فى المسجد. كانوا يتوقفون فى الطريق - عندما يحين الوقت - لأداء صلاة الصبح، وعند الوصول إلى المصلى almosala(5) أو الموقع فى الخلاء الذى كانوا يؤدون فيه هذا النوع من الصلاة عادة، كان المسلمون يجتمعون فى صفوف ليبدأوا الصلاة فى الظهر. كان المسلمون الذين يَصِلون إلى المكان قبل وصول الجماعة التى ترافق الإمام يؤدون صلوات تطوعية عند وصولهم إلى المصلى، أما الذين يرافقون الإمام فلم يكن بإمكانهم أداء صلوات تطوعية إلا بعد الصلاة الرئيسية [ملاحظة هامشية: يقصد الاستسقاء (المترجم)] كان الإمام يتوكأ على عصا- أو لا يتوكأ إذا لم يكن يرغب فى ذلك - ويتوجه نحو المصلى، فإذا كان بالمصلى سور أو جدار توضع عصا أو ما شابهها لهذا الغرض. كان الإمام يقف فى مواجهة المصلين وعندما يعلمونه بأنهم شكلوا الصفوف كان يبدأ الصلاة.

(*) إذا كان المطر قد نزل، فكيف ماتت الأميرة جوعا؟ (المترجم)

صلاة الاستسقاء(٦):

يقف الإمام ووجهه إلى القبلة فيبدأ الصلاة قائلا: "الله أكبر" دون أذان مسبق، ثم يؤدى – ومعه المصلون – ركعتين يقرأ فى الأولى سورة الفاتحة وسورة الأعلى جهراً، ثم يقرأ فى الثانية سورة الفاتحة وسورة "والشمس وضحاها" جهراً أيضا، ثم يركع ويسجد ويقرأ التحيات ويسلم. بعد ذلك ينهض الإمام والمصلون ويجلس فى مواجهتهم وقتاً قصيراً فى المكان المخصص لإلقاء الخطبة وينتظر لحظات، وعندما يتخذ المصلون أماكنهم ينهض الإمام والعصا فى يده اليمنى(*) فيلقى الخطبة الأولى على النحو التالى:

الخطبة الأولى لصلاة الاستسقاء(٧):

الحمد لله فمغفرته ونعمته أمل الإنسان، هو الذى يوقع الضر والعقاب. لا إله غيره، ما ضر أولئك الذين إذا عمتهم النقمة رجوا ربًا سواه. هو يسمع الشكوى ويذهب الضُّر ويجيب دعوة المحتاج. يكشف الضر ويعفو عن الهفوات ويزيل الغمة. يسمع من يرفع إليه دعاءه. يقدر الأقدار وينزل الغيث. لا منقذ ولا معين إلا هو. إليه تُرفع أصوات النادمين الذين أصابهم الضر، فهو الرحيم الذى يرجو مغفرته الذين عملوا السيئات بجهالة ثم تابوا وأصلحوا. فلنسبّحه على ضياء كماله واستمرار نعمه علينا، فبنعمته نُنقَذ من عذاب غضبه. يقول الله "أنى أنا الغفور الرحيم، وأن عذابى هو العذاب الأليم"(**).

نشهد ألا إله إلا الله، ليس له شبيه، خلق المخلوقات وأنعم عليها من خزائن رحمته. يحفظ المخلوقات كلها والسموات والأرض. بيده الخير. خزائنه كلها مليئة بالبركات ينزلها بإرادته دون تبذير، وعندما يمنع الرزق وقتا طويلا فليس ذلك بخلا أو قلة،

(*) لاحظ تركيز المؤلف على أهمية حمل العصا. (المترجم)

(**) "نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم. وأن عذابى هو العذاب الأليم" (سورة الحجر، الآيتان ٤٩–٥٠. (المترجم)

بل لأن الله لو رزق عباده باستمرار، فسيعمدون إلى الإهمال ويتركون العقيدة. لهذا يُنزل الرزق والبركة طبقا لإرادته، فهو عليم بمن خلق. ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالرحمة وأبعد به العقاب عن قومه كما وعد في الدعاء(*) التالي: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(**). إنه نبى مختار رحيم بأمته.

عباد الله، أفيقوا من غفوتكم فقد طالت، وابكوا على أحزانكم فقد كثرت، فقد تغيرت فيكم سعة العيش إلى ضيق، والرخاء إلى قلة، وانتُزعت من الأشجار خضرتها، فبدت جافة إنه (الله) يمنع أن ينزل المطر عليكم من السماء فقد جعلتم الدنيا هدفا لمتعتكم ونسيتم الله فتركتم الانشغال بمآلكم دون تدبر، فلا تقرءون ولا تسمعون ما يقوله الله فى قرآنه الكريم:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾(***). لقد أنذرنا الله، وقد نبَّهت إلى الأضرار التى يمكن أن تلحق بالمنذرين المتدبرين حتى يتعظوا ويعتبروا. تذكروا أن زرعكم هذا الذى تحرثونه وتروونه والذى يعتمد عليه غذاؤكم سوف تفقدونه إلى الأبد إذا لم تكن معكم رحمته (الله) صاحب النعم الكبيرة والأفضال الدائمة.

يقول الله: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(****). اعلموا أن الله إذا ضيَّق عليكم بالجفاف والعقم، إذا اشتد الجوع بكم ولم يخرج الزرع وجفت اللحوم أو نفدت وأجهضت ذوات الحمل وفقدتم النعم التى تعتمدون عليها فى معيشتكم مَنْ غير الله يستطيع أن يهبكم النعم التى تقضون بها حوائجكم؟ كيف لا تعلمون ذلك وتعتبرون به؟ هل هناك من يستطيع أن ينزل عليكم النعم والبركات إلا الله؟

(*) يستخدم هنا لفظ oracion بمعنى "آية" وكان قد استخدم اللفظ نفسه بمعنى "صلاة" أو "دعاء". (المترجم)

(**) سورة الأنفال، آية ٣٣. (المترجم)

(***) سورة الأعراف، آية ٤. (المترجم)

(****) سورة النحل، آية ٥. (المترجم)

يقول الله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾(*). لا أحد يستطيع ذلك إلا الله. هو الإله الوحيد الذى يخضع له الجميع، لا يأكل ولا يشرب، لا يلد ولم يولد، وليس له مثيل. نحن أصحاب الزرع التالف والماء المختفى، ذوو القلوب القاسية والدموع الجافة ولا نشعر فى صلاتنا بالندم ولا التوبة التى تذهب عنا الضر، فإنا لله وإنا إليه راجعون. أنكون ممن قال الله فيهم "فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين"؟

يا أمتنا من الذى يقينا عقاب الله إذا نزل بنا؟

اللهم ليس لنا رفيق ولا حام يحمينا وينقذنا، وإذا عاقبتنا فلأننا نستحق العقاب، وإذا رحمتنا فذلك فضل. تجرّأنا فعصيناك فأنعم علينا بالخير والكمال. أيها الناس، استغفروا ربكم فهو الغفار، استغفروا ربكم وأظهروا التوبة، فربكم رءوف رحيم. اللهم إنّا نستغفرك فاغفر لنا ذنوبنا، إذ لا تتوقف عن المغفرة، وأرسل علينا السحاب بالمطر والبركة فنروى وننجى (يكرر الدعاء مرتين). اللهم احمنا بأن ترسل علينا مطرا غزيرا عاجلا غير مؤجل، ماء منجيا يتم زرع الزارعين فيشكرون نعمتك بطاعتك يا قوى. اللهم نجّ الأمة وارحم عبادك وارزق أنعامك، وابسط رحمتك، واحى بالمطر أمتك التى تموت من الجفاف، فأنت على كل شىء قدير.

عباد الله، يقول الله تعالى فى القرآن عن رحمته(**) بعباده ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(***). تواضعوا إذن لربكم، واعرضوا عليه حاجاتكم، وادعوه بقلوب طاهرة، فله الدين. ادعوه أن يرحمكم، وتوبوا من ذنوبكم بتواضع وخشية. قولوا ما قاله أبوكم آدم عندما أكل من ثمرة الشجرة التى مُنع منها: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(****).

(*) سورة الملك، آية ٣٠. (المترجم)

(**) فى النص الإسبانى "برحمته". (المترجم)

(***) سورة الأنعام، آية ٤٣. (المترجم)

(****) سورة الأعراف، آية ٢٣. (المترجم)

قولوا أنتم أيضا (تكرر الجملة السابقة مرتين)، قولوا ما قاله نوح عندما دعا ربه أن ينقذ ابنه: "رب إني أعوذ بك أن أسالك ما ليس لى به علم وإن لا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين".

قولوا ما قاله يونس عندما نادى فى الظلمات: "لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين(*). تباركتَ، نحن الذين ظلمناك، ونعلم ونشهد إنا مذنبون ونتوب إليك. تعاليتَ، نحن الذين جهلنا ونشهد أنا مذنبون، ونتوب إليك ونستغفرك فاغفر لنا. نرجو رحمتك فارحمنا، ونتوب إليك فتقبل توبتنا. قولوا ما قاله أيوب عندما اشتد به البلاء: "وأيوب إذ نادى ربه أنى مسّنى الضر وأنت أرحم الراحمين" (يردد هذا الدعاء مرتين أخريين) اكشف عنا الضر وخفف أحزاننا ولا تلحق بنا عقابك بذنوبنا ولا بذنوب المسيئين منا ولا بالخداع الذى نرتكبه ونحن نعلم. ارحمنا من أجل أولادنا وأنعامنا ومن أجل المتسولين والعجزة والمجروحين والآخرين ممن لا يستطيعون استعمال أعضائهم. إن لم ترحمنا سنكون من الهالكين، وإذا لم تنجنا فسنذهب إلى الجحيم.

اللهم إن طلب المغفرة مفتاح السماء، وبه ينزل المطر على الأرض، وتنزل البركات على كل مكان، وتؤدى الأعمال التى يرضى عنها الله. لهذا أرسل الله نبيه المختار، لهذا أرسل إليكم نبيكم. يقول الله "فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات" ويقول رسول الله "توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب إليه وأستغفره فى اليوم سبعين مرة". استغفروا ربكم وتوبوا إليه إن ربى قريب وهو يسمع الدعاء. اللهم إنا نستغفرك فاغفر لنا ذنوبنا، فأنت غفار الذنوب (يكرر الدعاء ثلاث مرات). اللهم أرسل علينا السحاب المحمل بالمطر الغزير يا ذا القدرة بلا حدود. اللهم إنك تقول وقولك حق "وجعلنا من الماء كل شىء حى"(**) وأنت خلقتنا وخلقت من الماء كل شىء، وكل الكائنات تحتاج إلى الماء لتعيش فامنحنا ما نطلب وارحمنا فنحن عطشى هالكون من الجفاف.

(*) فى النص الإسبانى "من الذين ظلموك" والفرق بين المعنيين واضح. (المترجم)

(**) فى النص الإسبانى "كل حيوان"، والنص القرآنى أشمل. (المترجم)

اللهم أنت الذى تغذّى الصغير وترزق الكبير وتجبر الكسير وتفك أسر الأسير وتعين الفقير وتعالج من أصابهم ضر. نعيش برزقك وترزقنا بفضلك، فلا تحرمنا من نعمتك التى بها تقضى حاجات مخلوقاتك. عباد الله زيدوا من دعائكم لله واسجدوا فى تواضع أمام الإله الكريم الأعلى، فإذا تواضع العبد وتاب لذنوبه يكون أحرى بأن يجاب دعاؤه. اللهم أى سماء ستظلنا وأى أرض ستقلنا إذا غضبت علينا وأبعدت عنا وجهك؟ من سيحمينا إذا طردتنا؟ من سينعم علينا إذا حرمتنا من نعمك؟ لا مانع لما تعطى ولا معطى لما منعت. المنع والعطاء سيان بالنسبة إلى قدرتك: فلا تزيد خزائنك كثيراً أو قليلا إذا لم تعط ولا تنقص خزائنك إذا رزقتنا.

اللهم أنعم علينا بنعمك قبل الهلاك، وعد إلينا بعظمتك قلا تُنكر عظمتك ونعمك يا معروف بجلائل الأعمال. عباد الله، استغفروا ربكم وتوبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا. اللهم إنا نستغفرك فاغفر لنا ذنوبنا فأنت الغفار (يكرر الدعاء مرتين). اللهم عجِّل بإرسال السحاب الذى يحمل المطر المبارك لزرعنا الذى أشرف على الهلاك ونحن قانطون جزعون من مصيبتنا.

اللهم أنعم علينا ولا تحرمنا من خيرك الذى بدأت تعطينا إياه فلا يتحول عنك دعاؤنا ولا نقع فى البلاء بعملك يا يقيننا وأملنا وسندنا. لا تهلكنا بآثار الأعوام السيئة ولا تدعنا نموت من الجوع يا رحيم. أيها الناس تقربوا من ربكم، وارزقوا الفقير من صدقاتكم، واعملوا العمل الصالح الذى أوصى به محمد حين قال: "أيكم يحب ملك وريثه أكثر من ملكه؟" فأجابوا "يا رسول الله كلنا نحب ملكنا" فقال "اعلموا أن ما ينفع فى الآخرة هو ملككم وأن ما تتركونه فى الدنيا ولمْ تستفيدوا منه للآخرة هو ملك وريثكم. تصدقوا يا عباد الله ممّا أنعم الله عليكم وارحموا عباده الجائعين". لهذا قال رسول الله(*) "ليس يوم إلا وفيه ملكان يناديان تحت العرش: "المال مال الله والعباد

(*) هل ورد النص هكذا بدون جملة "صلى الله عليه وسلم"، أم حذفها المؤلف؟ (المترجم)

عباد الله. إن الله يعاقب الأغنياء بجوع الفقراء، وليس هناك عمل أنفع من إطعام معدة جائعة" ولهذا يقول الله أيضا "أو إطعام في يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة" ويقول النبى فى ذلك: "استجيبوا لتوسل الفقير ولو برأس طائر" ويقول "لولا التصدق على الفقير ما فاز من يودعه". وقال عيسى: "إن الملائكة لن تغطى لمدة سبعة أيام من يودع الفقير دون صدقة" وقال رسول الله "لا يتصدق عبد مسلم بصدقة (من حلال، فالله لا يتقبل إلا من الحلال) إلا يتقبلها الله بيمينه ويضاعفها كما يضاعف أحدكم ماله حتى تصل صدقة تمرة إلى مثل جبل أحد"[8].

يقول النبى: "سيلقى كل واحد منكم ربه دون حجاب أو وسيط فيقول له يا عبدى ألم أرزقك؟ فيقول بلى يا ربى، ألم أرسل إليك رسولا؟ فيقول: بلى يا ربى، فينظر (العبد) إلى يمينه فلا يرى إلا النار وينظر إلى شماله فلا يرى إلا النار، فليتق كل منكم النار ولو كانت النار ناتجة عن شق تمرة"[*] وعن ذلك الذى لا يجد ما يسد به حاجته يحكى زعيم الناس[**] أن الله العزيز عندما ينظر من عرشه إلى الخلق يقول لهم: "يا عبادى، أنتم مخلوقاتى وأنا ربكم الذى أرزقكم بيدى، فلا تحزنوا إذا دفعتكم بالضر إلى اللجوء إلىّ، فاطلبوا منى رزقكم وما تحتاجون وسأقضى حوائجكم وأنزل عليكم رزقكم. يا عبادى، أطيعونى أرزقكم، فكروا فى واجباتكم نحوى وسأقضى حوائجكم. لا تضيقوا حتى لا أضيق عليكم، ولا تضروا أحدا حتى لا أعاقبكم. إن باب رزقى مفتوح فوق سبع سماوات بجانب عرشى ولا يُغلق فى ليل أو نهار. إننى أنزل الرزق على كل واحد بقدر رغبته وعطائه من صدقة وإنفاق. أزيد الرزق على من يوزعه وأضيقه على ممن يقيده فى حوزته".

(*) من الواضح أن "اتقاء النار وان كانت ناتجة عن شق تمرة" تعبير مغاير تماما للمقصود من الحديث الشريف "ليتق كل منكم النار ولو بشق تمرة أى ليحاول كل منكم البعد عن النار ولو بالتصدق بشق تمرة". (المترجم).

(**) يقصد النبى (ﷺ). (المترجم)

يقول النبى: ما من يوم تطلع فيه الشمس إلا ويُرسل إلى جانبى الشمس ملكان يناديان حتى يسمعهما كل ما فى الأرض (الإنس والجن لا يسمعان هذا الصوت): "أيها الناس، أقبلوا نحو ربكم. إن القليل الذى يكفى خير من الكثير الذى لا يكفى". وقال إن فى السماء ملكين لا مهمة لهما إلا أن يقول أحدهما: "اللهم ارزق من ينفق ماله فى طاعتك وزد فى رزقه وضاعفه له" ويقول الثانى: "اللهم اهلك من يحبس عنده ماله بدلا من أن ينفقه فى طاعتك"(*).

اللهم اجعلنا من المتصدقين وثبتنا على طاعتك بقدرتك واجعلنا فى رفقة المختارين المتقين وعالج فقرنا يا أكرم الأكرمين. اللهم أنزل علينا من السحاب ماء وفيرا تحيى به زرعنا الذى يحتاج إلى الماء، وأبسط علينا السحاب المحمل بالماء فوق الأرض والسهول والجبال والبساتين يا من يظل بابه مفتوحا لمن يطلب ويمنح نعمه لكل من يرغب يا أكرم الأكرمين يا رب العالمين. إن أعظم ما يبشر به المبشرون ويسمع به الداعون هى كلمة رب العالمين، إذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون، أن الله هو الذى يرسل الرياح ويضاعف السحاب وينشره فى مجرى الرياح بإرادته ويفتت السحاب فتروا المطر يخرج من فتحاتها وكيف ينقذ بها كل عبد له وانظروا حينئذ كيف يفرح العباد الذين كانوا متشككين قبل المطر. تأملوا إذن فى صفة رحمة الله وكيف يحيى الأرض بعد موتها بالجفاف، وفى ذلك عبرة لكى يعرف العباد أن الله سيحيى بنفس الطريقة الموتى يوم القيامة بماء يمطره على الأرض من تحت العرش".

"يرحمنا الله وإياكم ويعملنا بتعاليمه ويوفنا خير الحساب ويبعد عنا العقاب". "أقول هذا كخطبة لكم وأستغفر الله لى ولكم فهو الغفور الرحيم".

عند الانتهاء من قراءة الخطبة السابقة يجلس الإمام فترة قصيرة يقوم بعدها مرة أخرى ليلقى أو ليقرأ:

(*) فى الحديث "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكًا تلفًا" (المترجم)

الخطبة الثانية لصلاة الاستسقاء[٩]:

الحمد لله فالق الإصباح، مرسل الرياح المحمّلة بالمطر. يضيءُ البرق والسحاب ويفتت السحاب بعد أن كان ملتصقا. تبارك وتعالى[*]، ما أعظم حكمته وما أوضح قوته عندما يجمع السحاب المتفرق مؤقتا فوق عباده ويجعله فى مجرى الرياح وهو محمل بالمطر الواعد كما لو كان – لكى ينزل حمولته – ينتظر إذن الخالق، ولا يعلم الملك المكلف بالسحاب إذا كان المطر سينزل على هذا المكان أو ذاك أو هؤلاء الناس أو أولئك حتى يعلمه الله رب العالمين.

ونشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له خالق الخلق، يعاقب ويعفو بإرادته، له القدرة على أن يحمينا من الأيدى الضارة إذا شاء. وما ينزل بنا من بلاء فهو من عملنا، ولكنه يدل على كرم الله بنا. هو الذى يغفر لنا ويرحمنا وهو أرحم الراحمين. ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالقرآن ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون. اللهم صل على محمد، فصلاتك رحمة له، وبارك على محمد وآله فارحمهم وبارك عليهم كما صليت على إبراهيم وآله فرحمتهم وباركت عليهم إنك حميد مجيد. اللهم اجعلنا من الذين يسيرون فى طريقك ويهتدون بهديك ويعرفون سنتّك ويتبعون تعاليمك ويشربون من كوثرك[١٠].

اللهم شرف – بدعائنا – أصحاب محمد بالنعم التى منحتها للصالحين، فقد علّموا الناس شريعة الدين ونشروه وسمعوه وقبلوه وسارعوا بالدخول فيه. اللهم كما نجيتنا من بلائهم وأحببتنا حبهم أمتنا عندما يحين أجلنا ميتتهم، ولا تبعد عنا قلوبهم يا أرحم الراحمين. اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات وأدخل فى قلوبنا عمل الصالحات وتغاض عن السيئات، فقد أدوا فروض الطاعة. اللهم ارحم ملوك المسلمين السابقين وأولياء المسلمين الأوائل وقضاة المسلمين،

(*) فى النص الإسبانى "تبارك تبارك" ومن الواضح أن اللغة الإسبانية تعجز عن الوفاء بالمعانى الواردة فى القرآن والسنّة. (المترجم).

وامنحهم مكانة رفيعة مع المقربين منك، واغفر لهم فأنت خير من يغفر. اللهم اجعل أمة محمد تتمتع بنعمة دائمة يا أرحم الراحمين.

اللهم أعز الإسلام والمسلمين، وأذل النفاق والمنافقين ومن يتبعهم، واجعل سخطك على من لا يؤمن بالقرآن وعلى من يعتقدون فى وجود شريك لك ومن يكذّبون رسولك ولا يتبعون تعاليمك ويعصون أوامرك ولا يؤمنون بوعدك ولا يوفونك حقك ويقبلون إلها معك. لا إله إلا أنت تباركت وتعاليت، تعاليت عما ينسبه إليك الكافرون. اللهم لا تبعدنا ولا تجعلنا نبرح مكاننا هذا حتى تستجيب لدعائنا وتقضى حوائجنا يا رحيم. اللهم لم نخرج متكبرين ولا مغرورين ولا متعالين. خرجنا إرضاءً لك وأملاً فى عفوك وطمعا فى رحمتك، فابسط علينا رحمتك ونجّ أمتك وارحم عبادك، وارزق ماشيتك، وارحم وقوفنا هذا أمامك وارحم تواضعنا، وسارع بإجابة طلبنا.

اللهم لا تعاقبنا بذنوبنا ولا بما يفعله العاصون منا. اللهم أسبغ علينا نعمك الوافية على جميع مخلوقاتك، وانظر إلينا نظرة عطف حتى تجيب دعاءنا وتكشف بلاءنا. إلى من نلجأ إلا إليك، ومن يساندنا إلا أنت؟ اللهم إن البلاء قد عمّ القرى وأهلك الأمة فحسّن وضع المسلمين وفرّح قلوبهم، فأنت رحيم بعبادك. اللهم ابسط علينا رحمتك وانظر إلينا نظرة عطف ومغفرة. اللهم ارحمنا ولا تسلط علينا من لا يرحم واجعلنا موضع رحمتك يوم تقبض أرواحنا. اللهم قد عصاك منا الكثيرون فتغاض عنهم، فقد جئنا للقائك تائبين وتقبل توبتنا يا تواب. اللهم أنزل علينا من السماء ماء مباركا تحى به الأرض التى أماتها الجفاف فأنت تقدر يا قدير.

اللهم حسّن أوضاعنا، واجعلنا من المؤمنين بك، المحافظين على دينك، وأنزل نعمتك فى هذا العام على زرعنا وثمارنا وماشيتنا. اللهم إنا ندعوك كما أمرتنا فأجب دعاءنا كما وعدتنا، فأنت لا تخلف وعدك. اللهم امنحنا ما نطلب وما نرغب ولا ترفض دعاءنا ولا تجعلنا منقوصين بإجابتك ولا تحرمنا جنتك ورحمتك يا رحيم. اللهم لا تعاقبنا بما فعلنا أو أذنبنا ولا بما عزمنا أن نفعل ثم رجعنا عن فعله يا رحيم. ربنا لا تزغ(*)

(*) فى النص الإسبانى "لا تُحزن desalienta". (المترجم)

قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحمّلنا مالا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين. تباركت ربنا وتعاليت وتنزهت عما ينسبه إليك الكافرون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الأدعيـة:

بعد قراءة الخطبة الثانية مباشرة يتجه الإمام - الذى كان فى مواجهة المصلين - نحو القبلة فيكون ظهره للناس، وفى الوقت الذى يقوم فيه بهذه الحركات يلمّ ردائه بحيث يقع على كتفه الأيسر طرف الرداء الذى كان يغطى كتفه الأيمن والعكس. ويؤدى المصلون نفس الحركة: يلمون عباءاتهم اقتداء بالإمام. يمد الإمام يديه نحو وجهه، وتكون راحتاه نحو الأرض. ومن العادة أن يطلب من المصلين اتخاذ هذا الوضع فيقول: "عباد الله، إنى وجهت ردائى ويدىّ، وها أنذا واقف ووجهى نحو القبلة، فوجهوا عباءاتكم وأيديكم واجتهدوا فى الدعاء إلى الله أن يرحمكم، وزيدوا من خضوعكم وتواضعكم له، وابكوا حتى تذرفوا الدمع، فهذا أحرى أن يُسمع منكم دعاؤكم، أن يكون الإنسان متواضعا له، وابكوا حتى تذرفوا الدمع، فعندما يكون الإنسان متواضعا لله بقلب خاشع تائب يكون أحرى أن يسمع دعاؤه".

والهدف من هذا التوجيه أن يستعد المصلون للدعاء الذى سيبدأ فى الحال، إن قلب الغطاء بالطريقة المشار إليها يسهل بدرجة كبيرة حرية حركة الجسم، فيسمح للمصلى باتخاذ وضع المتذلل والذى سيظل عليه خلال الدعاء، ولا يُعفى من واجب قلب الغطاء إلا النساء كما تقضى تعاليم النبى(*).

(*) لاحظ التركيز على وضع العباءة وزعم أن ذلك أمر نبوى. (المترجم)

بعد ذلك مباشرة يتوجه الإمام نحو القبلة وهو فى وضع الوقوف ويبدأ فى تلاوة الدعاء بصوت مرتفع، ويكون المصلون فى وضع الجلوس متوجهين نحو القبلة وأيديهم ممتدة مثل الإمام ويرددون نفس كلمات الإمام. وتكون تلاوة الدعاء مصحوبة بالنحيب ومظاهر الألم والندم الأخرى من قِبل الإمام والمصلين. ويطول وقت الدعاء ولا ينتهى إلا بتقدم النهار ويحين الوقت لمغادرة المصلى إلى محل السكن. ومن بين الدعاء الذى كان يُتلى عادة اخترنا الشكل الأكثر أصالة وأقل تشابها رغم أن الإسهاب هو الصفة الغالبة على كل الأدعية. والدعاء الذى نقصده كان نوعا من الورد. كان يتضمن صفات الله أو يشير إلى القدرة الإلهية وعلاقتها بأحداث التاريخ المقدس(*) وبالظواهر الطبيعية أو مآثر الشخصيات المذكورة فى التراث الإسلامى. وكان الدعاء يشمل أيضا وصف العبر التى تقدمها الطبيعة لمن يتأمل صفات وخصائص المخلوقات، ويثنى الدعاء على هذه المخلوقات. ويشير إلى المعتقدات الدينية.

وكان الدعاء يوضح أيضا الحاجة الملحة إلى المطر وعظمة الله ورحمته بكلمات مسهبة محسوسة تعبر عن التوبة. ومن بين الأدعية التى نوردها يتلى الدعاء الأخير لكى يطلب من الله أن يزيح عن الحقول خطر البَرد. وفيما يلى نص الأدعية التى نتحدث عنها:

الدعاء الأول[11]:

يا غافر الذنب يا واهب النعم يا الله.

يا كاشف الضر يا ذا الكمال يا الله.

اللهم اغفر ذنوب العباد المذنبين الذين ندموا على اتباع طريق العصيان واكشف ضرهم بسبب الجفاف فأنت من تكشف الضر يا الله. ارحم الدموع والتواضع والدعاء الذى يرفعونه إليك يا الله وتقبل الدعاء فهم ينتظرون منك الإجابة، فأنت مجيب من يدعوك يا الله. اللهم وجه إليهم نظرك كما وعدتهم لتغيظ أعداءهم الذين لا يؤمنون،

(*) يقصد تاريخ الأنبياء الوارد فى التوراة والإنجيل. (المترجم)

وارحمهم يا رب حتى تعينهم على (قضاء) حاجاتهم فلا حياة بلا رحمة يا الله. امنحهم فضل الماء "الممطر المقطر" الذى (يحيى) به الزرع و الشجر يا الله، واسق الناس بحيث تريهم كيف يكمل وينضج الزرع الذى رأوه ينبت يا الله. إن المطر إغاثة ورحمة وحياة لكل من فى الأرض، فعلى الشجر وثماره وعلى الزرع ونباته وعلى الأنهار يعتمد وجودهم يا الله، أما الجفاف ففيه هلاكهم ولا نجاة منه إلا بالمطر الذى يروى الناس يا الله.

إن كل هذه المخلوقات تشعر بالجوع بسبب الجفاف مما يجعل حياتهم صعبة شاقة يا الله. كم من شاب ضاعت رشاقته عندما جرحه سهم الجوع، وكم من فقير غريب لا يملك حجرة وبأثر الجوع أصبح مثل المدفون يا الله. كم من عزيز أصبح ذليلا بالجوع فنزل من مكانته الشريفة إلى الحقارة يا الله. نرى أن المخلوقات التى ترضع لا تجد اللبن فى صدور الأمهات بسبب الجوع يا الله. يبكى الرضع بسبب الجوع ولا تستطيع الأم إسكاتهم إذ يفزعها الجوع يا الله، يا رب ارحم كل هذه المخلوقات، وأنعمْ عليها بالغذاء يا الله. ارحم من رحمتهم دائما وارحم ذلهم فامنحهم المطر يا الله.

يا رب إذا لم ترحم ذلهم، لأنهم عصوك فارحمهم يا الله من أجل نبيك المختار، ولأننا نصلى أو ندعوك فى ابتهالات الحج يا الله. ارحمهم من أجل المخلوقات الصغيرة التى لا ترتكب الذنوب ومن أجل بكائهم وخوفهم. يا رب إذا لم ترحمهم، فمن يغيث الحيوانات التى تشكو من الجوع يا الله؟ من الذى يطعمهم إذا منعت نزول المطر؟ يا الله، من يغيث الفقير عندما يقول يا مغيث أغثنى؟ يا الله، من يرحم الضعيف إذا لم تنعم عليه بالرحمة والمطر؟ يا الله، يا رب اكشف الضر عن عبادك، فعبادك يشكون وأصبحت حالتهم يرثى لها يا الله. يا رب إذا لم تصلح وتعالج أمراض العباد التى يشكون منها فهم ضائعون منتهون ومدركون أن غضبك نازل عليهم يا الله.

إن الغضب الذى يحدث الأثر دائما هو غضبك، فبه تحكم، وإن العفو الذى لا ينفد هو عفوك يا رحيم يا الله. يا رب أنت ترزق الوحوش إذا لم تجد طعاما فى الأرض يا الله. من يرزق المواشى إذا كانت فى حظائرها ولا تجد ما تأكله؟ يا الله، من يرحم الشيوخ والأرامل والأيتام عندما يصيبهم الجوع؟ يا الله، من يرحم الأطفال عندما يئنون

آباءهم وأمهاتهم وهم يشكون الجوع؟ يا الله، يا رب ارحم عبادك الذين يتسرب إليهم الشك لطول فترة الجفاف يا الله، واغفر يا رب ذنوبهم التى يستحقون بها هذا الضر الذى يسببه الجفاف يا الله. ارو القرى بمطر غزير "ممطر مقطر" تحى به الزرع وتخضره. أحيهم يا الله، ارحم ذل من يرجوك يا رب يا مطاع يا غافر الذنوب يا واهب النعم يا الله. ارحم الطير الذى يطير فى مهب الرياح والحيوانات التى توجد فى المراعى يا الله. يا مالك الملك يا غالب يا رب يا مطاع، أجب دعاءنا اليوم يا الله. من يرحم الشيوخ عندما تدمع عيونهم بسبب الجوع الشديد يا رحيم؟ فكما لا تتوقف عن منح الشرف امنحهم فضل المطر الغزير يا الله، وتقبّل توبتهم جميعا عن ذنوبهم يا من تتقبل التوبة.

اسق الأرض التى أماتها الجفاف وقد طال أمده، وامنحنا فضل المطر يا ذا الفضل يا الله. أجب دعاءنا ولا تشمّت بتعاستنا الأقوام الذين لا يعرفونك ولا يدعونك يا الله. ارحم الصغير والكبير والمسن، فاليوم ليس هناك من يرحمهم إلا أنت يا الله. إن أطفالنا قد أصابهم الضر وغلبهم اليأس فأغثهم يا رب المغفرة يا الله. ارحم المسنين الضعفاء الهالكين، والشباب الذين يعصونك ولا يستحيون منك، وامنحهم غفرانك، يا واهب النعم يا الله. اغفر للعاصين المذنبين الذين لا ينتظرون المغفرة إلا منك يا الله، وتغاض عن أخطائهم وذنوبهم إذ لا ينتظرون المغفرة إلا منك. أنزلْ المطر إذ الناس خائفون محزونون، وارحم عبادك يا قوى يا الله. اسق الزرع بالماء الوفير كفضلٍ من رحمتك يا رحيم يا الله. بأفضال محمد خير البشر لا تدعنا دون أن تمنحنا اليوم نعمتك ومطرك يا الله يا الله يا الله.

الدعاء الثانى[١٢] :

اللهم اسقنا يا الله، ارحمنا يا الله، يا الله يا الله، إننا نستغفرك فاغفر لنا ذنوبنا، يا غفّار، وأرسل علينا السحاب المحمل بالمطر والبركات الكثيرة يا الله يا الله يا الله.

يا الله يا الله رغم أننا نعصيك كثير فلا تؤاخذنا بعصياننا، فقد أتينا إليك تائبين. تقبل توبتنا واسقنا بالماء المبارك الوفير النظيف المفيد الذى يسهل الهضم. ليكن (الماء) وفيرا مستمرا، ليسقى زرعنا ويروينا، ليهبط علينا عاجلا ويمدنا بما نحتاجه، ليبدأ فى النزول وليكثر كلما ينزل، ليكن ذا فائدة لنا وليمدنا بما لا نجده، بفضل محمد نبيك المختار وبأصحابه العشرة الكرام يا لله يا الله يا الله.

اللهم إنك لا تنزل من السماء ضرا إلا بسبب الذنوب، ولا تكشف الضر إلا بالتوبة، إننا جئنا إليك بأيد مليئة بالذنوب وبقلوب ملؤها الندم وأنت من تحمينا دائما. أنت الراعى الذى لا يتخلى عن حماية الشاة الضالة ولا تترك المكسورة فى مكان موحش، فالفقير يسجد لك، والعظيم أسير لك، والشكوى تُرفع إليك يا الله يا الله يا الله.

يا الله يا الله، امنحنا المطر الوفير الذى يأتينا عاجلا؛ لينقذ زرع الفلاحين فيكون لهم فضلا وعونا حتى يعودوا إلى طاعتك يا قاهر يا الله يا الله.

يا إلهى يا الله إن الجفاف قد أصاب القرى، وساءت أحوال عبادك فلا تحزنًا بالغلاء ولا تختبرنا كثيرا ولا تحزنًا بضيق الوقت أو بالبلاء أو بمن يعتبروننا أعداء لهم يا ذا الفضل، يا من لا تتوقف عن الفضل، يا الله يا الله يا الله.

يا إلهى يا الله إن ذنوبنا عظيمة وكثيرة لكنك أنت الأعظم والأشرف، فعاملنا بما أنت أهله لا بما نستحق، وأغثنا بالمطر قبل الهلاك وعد إلينا بنعمك فهى معروفة بوجودها فيك، يا من تُعرف بالأعمال الحميدة يا الله يا الله يا الله.

يا إلهى يا الله على بابك وقف عبادك المحتاجون، وعلى بابك وقف من عصوك عراة حفاة ضعفاء، هزيلين بلا طعام جائعين يملؤهم الأمل فى رحمتك. يا ربنا فى من نأمل إذا لم نأمل فى رحمتك؟ فى من نثق إذا لم نثق فى رزقك؟ من يطعمنا إذا منعتَ عنا طعامك؟ وفى أى نعمة نأمل إذا منعتَ عنا نعمك؟ أنت الذى لا تنفد خزائن رزقه، وأنت الذى تتفضل على عبادك بنعمك. إننا ندعوك آملين فى نعمك وأفضالك، فلا تحرمنا من رحمتك إذ نطلب منك الإغاثة ونحن محتاجون. أغثنا يا أكرم الأكرمين يا الله يا الله يا الله.

إنك تأمرنا بأن نتسامح مع من يسيئ إلينا، وأنت الأجدر بأن تتسامح معنا، لقد ظلمنا أنفسنا فسامحنا واغفر لنا. إنك تأمرنا بألاّ نبعد الفقير عن أبوابنا، فها نحن فقراء إليك واقفون ببابك فلا تبعد من يرجونك ومن حُرموا من مطرك ورحمتك. إنك تأمرنا بأن نفدى الأسير، وأجدر بك فك أسر الأسير، وها نحن أسراك وعبادك فاعتقنا من النار يا رب يا ولى يا الله يا الله، إلهى يا الله. على بابك وقف من يرجونك وإليك نلجأ لكى تفدينا وتتقبلنا فإلى من نلجأ إذا طردتنا؟ واذا منعتَ فمن يعطينا؟ أى سماء تظلنا وأى أرض تقبلنا إذا غضبتَ علينا أو أدرت وجهك الكريم عنا أو حرمتنا من نعمك وأفضالك؟ يا واهب النعم يا الله يا الله يا الله.

يا إلهى يا الله يا رحمن يا رحيم، يا قريب منا، يا من تجيب الدعاء، إن العيون تبكى والقلوب تتلظى والجلود – واللحم الذى تغطيه – تذوب، والمذنبون يندمون على ما اقترفوه، فارحم دموع الباكين وذل المتواضعين وخشية الخاشين، وابسط علينا رحمتك ببركة مطرك وبحار خيرك يا أفضل كل شىء يا الله يا الله يا الله.

يا إلهى يا الله لقد جفّت أرضك وجدبت، وها هم عبادك واقفون أمامك آملين، ذلت أعناقهم لك، رحمتك للمطيع والعاصى كبيرة، وأنت من يرعى استمرار حياة الناس وتواصل الرزق، وأنت من يتفضل بالرزق دون وجوب، وأنت من يحفظه فى أطراف الأرض وأركانها المختلفة، فأخرجه من ضيق ضيقه إلى رحابة كرمك، فأنت من تسمع الدعاء وتقدر على كل شىء يا الله يا الله يا الله.

يا إلهى إذا تخليت عنا وتركتنا، فمن يرزق المسن والصغير؟ ومن يعين الغنى والفقير؟ ومن يكشف الضر والبلاء عن المضرورين؟ من يرحم الصغير الذى يرضع من ثدى أمه؟ أنت الله الذى خلقتهم وترزقهم، فاجعل الخير لنا ولهم وابعد الشر عنا وعنهم يا رب يا ولى يا الله يا الله يا الله.

يا إلهى راع حالة النفى التى نعيشها، لأننا انفصلنا عمن يدينون بديننا(*)، فهذا سببه أن من لا يتبعون دينك قد قطعوا الصلة التى كانت تصلنا بإخواننا وأغلقوا

(*) يفهم من النص أن الموريسكى –أو المدجن؟– كان يعتبر بعده عن أمة المسلمين ذنبا وأن عذره هو أن فراق الجماعة كان بسبب اضطهاد المسيحيين لهم ومنعهم من مغادرة إسبانيا. (المترجم)

علينا أبواب رحمتك وضيّقوا علينا وعلى أهلنا وأبنائنا حتى أننا لا نجد حاميا لنا إلا أنت، ولا معينا إلا أنت، وإليك تركنا كل أعمالنا فإصلاحها نأمله منك يا الله يا الله يا الله[١٣].

يا إلهى يا الله قد اجتمعنا اليوم خاضعين لعظمتك واقفين بأبواب رحمتك آملين أن ترحمنا وطالبين منك أن تفتح لنا. نرجوك أن تسقينا فاسقنا يا أرحم الراحمين، ولا تفرح بشقائنا أعداءنا(*) يا أكرم الأكرمين. كن لنا معينا فى هذا اليوم واجعل دفاعك لنا يا الله يا الله يا الله.

يا إلهى يا الله ارحم شيب هؤلاء المسنين التائبين، وهؤلاء الأطفال الذين يعانون فى حضرتك وهؤلاء النسوة اللاتى يتوجهن إليك، كلهم آبوا إليك ويطلبون منك - ويرغبون فى حماس - أن تتغاضى عن ذنوبهم يا أمل من يحبونك يا الله يا الله يا الله.

يا إلهى يا الله نحن من صنع يديك وليس بإمكاننا العيش بدون رزقك فلا تدمّر القرى بذنوب عبادك .... ارزقنا بالماء الوفير الذى يحيى القرى ويسقى العباد لأنك أنت الله رءوف بعبادك يا الله يا الله يا الله.

يا إلهى إن المطر الذى نطلبه منك قليل بالنسبة إلى كرمك وليس شيئا كبيرا بالقياس إلى قدرتك، فلا تدعنا دون أن تمنحنا بركة ماء المطر ولا محرومين من رحمة مطر سمائك، واغفر اليوم لمن عصاك بعد أن عرف وأدرك قوة عقابك، فأنت الله الذى لا توجد نعمة إلا بقدرته يا الله يا الله يا الله.

يا إلهى يا الله إننا نطلب منك - بفضل المدينة المقدسة والبيت الحرام[١٤] والأشهر الحرم[١٥]، بالحلال والحرام، بالمعابد (المساجد) الكبيرة "بالركن وسطح الحائط"[١٦] وبالملائكة المكرمين - أن ترسل علينا السحاب بالماء، وأن تجعل زرعنا

(*) هل كان الجفاف يحل بالمسلمين وحدهم حتى يفرح الأعداء؟ المعنى لا يستقيم إلا إذا كان الموريسكيون يقيمون فى قرى منفصلة، عموما فإن هذه الفقرة تتعارض مع الفقرة التى تسبقها. (المترجم)

يصل إلى نهاية الكمال وأن يتم إثمار سنابله، وأن تشفّع فينا نبينا محمدا، وأن تراعى الأطفال والأيتام والحيوانات والديدان ومن لم يرتكب ذنبا من الرجال والأجيال يا ذا الجلال والإكرام يا الله يا الله يا الله.

يا إلهى يا الله، أنزل علينا ماء السحاب وفيرا فتحى الزرع الذى يحتاج إلى الماء، وابسط علينا السحاب المحمل بالماء واسق به الأرض والسهول والجبال والبساتين يا من يفتح بابه للطالبين، ويمنح نعمهُ للراغبين يا الله يا الله يا الله. يا إلهى اسق عبادك وقراك وماشيتك، وابسط رحمتك، واحى قراك الميتة، فأنت على كل شيء قدير يا الله يا الله يا الله.

الدعاء الثالث[١٧]:

يا الله إننا ندعوك ولا نرفع الدعاء إلا لك يا الله(*)، بما يحوى جبل كاف[١٨]، بالخوف والفزع يوم الفزع، بعلم القلم الإلهى[١٩]، بدعائم عرش الله، ببداية القرآن، بآية الكرسى[٢٠]، بوضوح النهار، بظلمة الليل، بأشعة الشمس، بوضوح القمر، برعشة الشجر، بصوت الماء، بارتفاع السماء، بسعة الأرض، بخلق الإنسان، بصور الجن، بحج الكعبة، ببركة القداسة، بعدد الملائكة، بحصن الحديد، بقوة الجبال، بحملة العرش، بقرب الملائكة، ببعد النار، بدقة الميزان الإلهى، برقة الصراط، بحركة الرياح، بصوت الرعد، بضوء البرق، بمن ناموا فى الكهف[٢١]، بقطرات المطر، بتنظيم القوة، بزبد البحار، ببداية الأحداث، بثمار الأشجار، بأنهار الجنة، بجرذان الصحراء[٢٢]، بيوم القيامة، برمال الأرض، بوحى الرسل، بلغة الطير، بظلمة الشمس الغائبة، ببريق الشمس الطالعة، بحرّ الصيف، ببرد الشتاء، بضوء النجوم، بظلمة جهنم، بلغات الناس، بأسرار الموت، بمظاهر الحياة، بشرف الحساب، بفضل الحكمة، بالعين لما تنام، بأيام الأسبوع، بشهور السنة، بأسمائك المتعددة، بعظمة نعمك، بالفروض المحددة فى القرآن،

(*) تعاد صيغة "يا الله" حتى آخر هذا الدعاء وقبل كل فاصل. (المترجم)

بمضمون سرك، بأداء حقك، بثبات وعدك، ببلبل آدم، بتاج حواء، برسائل ست[٢٣]، بصعود إدريس إلى السماء، بسفينة نوح، بما يحويه لوح السماء الذى يتضمن تقدير الله للمستقبل[٢٤] بلباس إبراهيم[٢٥]، بكبش إسحاق(*)، بتضحية إسماعيل، بناقة صالح[٢٦]، بقميص يوسف، بحزن يعقوب، بصبر أيوب، بحكمة لقمان[٢٧]، بتوبة داود، بملك سليمان، بقوة العلى، بكرم الرحمن، بتعاليم القرآن، بحجم التوراة، بمعجزات الإنجيل، بحق الأنبياء، بكلمات الزبور وقراءته، بتفسير القرآن، بتمام الإيمان، بفضل الرحيم، بدعاء يونس،[٢٨]بالهبوط الذى أحدثه الفيضان، بطبيعة المخلوقات، بوفرة الغذاء الذى يرسله الله، بشرف الجنة، بلهيب النار، بما هو موجود فوق الأعالى، بما هو موجود تحت الأسافل، بعصا موسى، بلباس هارون، بمعجزات عيسى، بفضل يحيى، بدعاء زكريا[٢٩]، بنخلة مريم[٣٠] بحكمة الخضر[٣١]، بمحمد أفضل البشر، بعدد الأصوات، باختلاف اللغات، بصلوات الملائكة، بالأجيال السابقة، بما يوجد فى مجرى الرياح، بما يوجد تحت الأرض، بالأرض وما عليها، بعظمة الشرف، بفضل الحكمة، بفضيلة الصبر، بجلالك، بكثرة نعمك، بتمام أفضالك، بصبرك وفضلك، بجمال الجنان، بالحور والغلمان، بدعوات الأطفال، بعدالة القوانين، أنت الإله الحق، الذى ترزق، الخالق، الخالق الأعظم، الدائم فى جلاله، بالسورة رقم ٢٤ فى القرآن(**) وما فيها، بجبل كاف وما يحيطه[٣٢]، بالقلم وما خطه، بالكتب وما تتضمنه، بالأعين وما تنظره، بالأذن وما تسمعه، بالأيدى وما تأخذ، بالأقدام وما تسير، بدعاء الصغير، بالملائكة وما يصلون، بالطير وأعاجيبها، بالمعجزات ومعانيها، بالرياح وما تحمله، بالسحاب وما تجرى، بالرعد وصوته الذى يسبح الله، بالبرق وما يضىء، بالرسل وما أرسلوا من أجله، بالسموات وما تغطى، بالحور العين، ببداية الأعمال، بوحى القرآن، بمهمة الملك جبريل، بقوة ميكائيل، بفضل عزرائيل وإسرافيل ذى البوق[٣٣]، بما يحيط به علمك،

(*) يلاحظ الخلط بين الإسلام وما جاء فى العهد القديم. إنه يتحدث عن كبش إسحاق، ولكنه يذكر أن المضحى به كان إسماعيل. (المترجم)

(**) يقصد سورة النور. (المترجم)

بشهر رمضان، بفضل ليلة القدر[٣٤]، باختلاف الليل والنهار، بعلوك فوق الدرجات[٣٥]، بما تنبت الأرض، بالأشجار والنباتات، بالأحداث المقدرة، بالأحكام المبرئة، بالعين التى تنظر، بكرم الأعلى، بالوضوح والبرهان، بالوعد والإعلان، بالشرف والقوة، بالمعجزات وما يشبهها، بالوعود والإيمان، بالتضحيات التى عُزم على القيام بها، بالأعمال الطيبة المعروفة، بمواقع المسجد الحرام والمزدلفة[٣٦]، وجبل منى وجبل عرفات، بالصفا ومقام إبراهيم[٣٧]، بشعائر الدين، بعروج النبى إلى السماء، بتحريم الذنوب، بانتهاء الأعمال، بامتداد الآجال، ببعثة إلياس[٣٨]، بالمغفرة الناتجة عن التسامح، بدعاء الصالحين، بتسبيح البحار لله، بالدائم الذى لا ينسى، بعدد سور القرآن، بحروف القرآن، بسورة الرحمن(*)، بالبرد والمطر، بالشمس والقمر، بالنجوم التى (لا؟) تحصى، بالعظمة التى تكتشف، بالحق والبيان، بنور وجهك الذى يملأ جنبات عرشك، بالنظام الذى فرضته على كل مخلوقاتك، برحمتك الواسعة التى تبسطها على كل شىء، لا إله إلا أنت، تباركتَ وتعاليتَ، لك الخلق و لك الملك، بطه ويس[٣٩]، بالقرآن كنز الحكمة، بعظمة الرحيم، بالملائكة المقربين من العرش، بمحمد وجبريل، بالرسالة وما نزل من السماء، بالنجوم المضيئة، بالعظمة المنتصرة، بالرب الخالق، بالسموات والأرض، بوحى القرآن، بقوة الرحيم، بلغة الطير، بهول يوم القيامة، بتلاوة القرآن، بالأحرار والأسرى، بفزع يوم القيامة، بالمرارة والتوبة، بالشرف والسمو، بفضل الجهاد وبطاعة العباد، بصلاة يوم عرفة[٤٠]، بمنى والمزدلفة[٤١]، بالروضة المذكورة[٤٢]، بمحمد خير البرية، بأصحاب محمد، بأرواح الأنبياء، بأفعالهم الحميدة، بالصلاة الواجبة، بوجوب الطهارة، بفضل الوضوء، بضوء أبواب الجنة، بأنهار الجنة، يا الله.

اللهم نرجوك بحق هذا الدعاء أن تبعد عنا الجفاف والضر وكل بلاء يظهر فى الأرض أو ينزل من السماء، وأن ترسل علينا السحاب الذى يسقينا بالماء والمطر الوفير فيفرغ الماء المبارك، وأن ترسل الرياح بالماء المبارك الذى يزيح عنا الأذى الجدب

(*) النص الإسبانى "سورة الرحمن الرحيم" (رقم ٥٥ فى القرآن). (المترجم)

والكرب بفضل محمد المختار. اللهم بفضل "الركن وسطح الحائط"[٤٣]، وبفضل المزدلفة والمقدسات وعظمتها والملائكة المكرمين أرسل علينا "صوت الضباب" وأتم زرعنا وشفع فينا محمداً يا الله يا الله يا الله.

الدعاء الرابع ويسمى دعاء الحَصى[٤٤] Pedregada :

اللهم أنت أقوى الأقوياء ارحمنا يا رب(*)، يا من لا شريك له ولا وزير، يا خالق الشمس والقمر المنير، يا ولى الخائف الذى يطلب العون، يا خالق السحاب بالمطر الوفير، يا من تفك أسر الأسير، يا من ترزق الطير والطفل الصغير، يا من أهلكت فى الماء فرعون وجيشه الكبير، يا من يكسو العظام لحما بعد أن كشفت، يا من يفتح السماء وينزل منها المطر الوفير، يا من أضاء بنوره جبل سيناء، يا من كان رفيقا ليوسف فى الجب، يا من يسبِّح الرعد له خوفا وخشية، يا من أرسل القرآن ليسعد الناس ويعلمهم، يا من أثرى الإسلام بالدعوات وتسبيح الله، يا من يكشف الضر والخطر الكبير، يا من تجيب فى صمت دعوة المحتاجين، يا من تنزل الضر، يا من سمحت بأن ينزل البلاء على أيوب الصابر، يا من اخترت محمدا ليسعد الناس ويعلمهم، يا من نجّيت يونس من العاصفة ومن الظلمات التى كان موجودا فيها، يا من إليه تُرفع الأصوات بالتسابيح، يا من سميت نفسك الرحيم. اللهم أنزل علينا ماء طاهرا وفيرا يا الله يا الله يا الله. اللهم يا الله تقبل توبتنا يا رب واغفر لنا يا رب، يا من له الأسماء الحسنى وله الحمد اغفر لنا يا رب، يا من تفرّد بالعظمة ونوره هو النور ارحمنا يارب. يا من أحاط نفسه بالعظمة وارتفع حتى سمائه اغفر لنا يا رب(**)، يا من تعالى بجلاله ولا تستطيع العين إداركه، يا من لا يدرك عظمته ولا قدرته أحد، يا من قال للسموات والأرض "ائتيا طوعا أو كرها" فأقبلوا طائعين، يا من غفر لداود ذنبه عندما عصاه[٤٥]،

(*) تعاد "ارحمنا يا رب" إلى آخر هذا الدعاء وقبل كل فاصل. (المترجم)

(**) تعاد "اغفر لنا يا رب" حتى "اللهم أنزل علينا ماء مباركا يسقينا"، وقبل كل فاصل. (المترجم)

يا من رحم يوسف فى وحدته وأعانه فى حاجته، يا من رد البصر إلى يعقوب بعد بكائه الطويل، يا من أخرج يونس من بطن الحوت وتقبّله وحماه، يا من نجّى نوحا فى السفينة وغفر له، يا من نجّى إبراهيم من النار وكرّمه بالمثوبة، يا من رحم إسماعيل وفداه من الذبح[٤٦]، يا من لا يستطيع أحد أن يسبحه بما هو أهله، يا من تعالى بعظمته وجلاله، يا من لا شريك له، يا من يسخّر الرياح ويسيرها كيف يشاء، يا من اتخذ موسى كليما وطهره واصطفاه[٤٧]، يا من سخر الشمس والقمر يسيران بأمره، يا من جعل الليل سكنًا للمخلوقات، يا من جعل لنوره الليلة السعيدة[٤٨]، يا من خلق النار لمن يتبع شهوة نفسه ويعصيه، يا من تدرك حكمته كل شىء ويعرف كتاب هوميروس[٤٩]، يا من رفع إدريس إلى درجة عالية واصطفاه[٥٠]، يا من ابتعد عن مخلوقاته بحيث لا تدركه الأبصار. اللهم أنزل علينا ماء مباركا يسقينا، يا من تقبّل توبة آدم وهداه ارحمنا يا رب[*]، يا من لا يدرك نعمه أحد، يا من رحم أيوب بعد أن امتحنه، يا من أرسل إبليس لإيذاء من سار وراءه[٥١]، يا من أعطى لسليمان ملكا لم يؤت لأحد من قبل، يا من يجيب دعوة المضطر إذا دعاه، يا من يسخر الفلك فى البحر بقدرته، يا من يرسم لكل شىء فى البر والبحر طريقه ونظامه وحكمه، يا من يحاسب الموتى فى القبر ويظهر لهم[**]، يا من عنده فى الجنة تمام حمده، يا من خلق المخلوقات بمصائر لا يعلمها إلا هو، يا من أنزل القرآن على نبيه وهداه، يا من أثرى الإسلام بالصلاة والزكاة، يا من خلق آدم من طين واصطفاه[٥٢]، يا من خلق الشيطان من النار وغضب عليه لعصيانه إياه[٥٣]، يا من مهّد الأرض بقدرته وحكمه، يا من جعل الإسلام دينا أعلى من كل الديانات، يا من جعل مكة لأهل طاعته وعبادته، يا من أنقذ يوسف من الإغراء فى شبابه، يا من تقبّل توبة امرأة فرعون قبل الوفاة، يا من اختار محمدا نبيا وفى يتمه اصطفاه، اللهم أنزل علينا من السحاب ماء مليئا بالبركة وارحمنا يا الله يا الله يا الله.

(*) تعاد "ارحمنا يا رب" إلى آخر الدعاء، وقبل كل فاصل. (المترجم)

(**) ظهور الله فى القبر للموتى أمر لا يتفق مع المعتقدات الإسلامية. (المترجم)

هوامش الفصل التاسع

(١) MBCEH, n XXX. Fol. 75-77 V.

(٢) الخليفة الثانى الذى تولى بعد أبى بكر.

(٣) MBCEH, n XXX. Fol. 132 V-143.

Bc, en Me HE, t. V. ps. 291-292.

(٤) لم أتمكن من العثور على أصل فروا forua، فحتى كتابتها غامضة فى الألخميادو. الشيء الوحيد المؤكد هو أن فروا اسم لملكة من نسل عاد وهو أب الشعب الذى يعرف بهذا الاسم، وعاش فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ويشار إليه عدة مرات فى القرآن ويوضح العقاب بالجفاف الذى حل بهم من جراء كفرهم. انظـر: Kasim, le Koran, table de matieres, s. v. Ad.

انظر أيضا كتاب "قصص الأنبياء" للثعالبى، القاهرة، عام ١٣٢٤هـ، ص ٨٩ وما يليها، حيث تروى أسطورة مشابهة بالنسبة للعقاب الذى أنزله الله على شداد وقومه.

(٥) المصلى almosala أو الشريعة xarea هى مكان للعباد فى الهواء الطلق يتكون من سور به محراب كمحراب المساجد فى الجانب الشرقى، وعلى يمين المحراب توجد درجتا سلم ومنصة تلقى من عليها الخطبة، انظـر: Arch. Mar, vol XI, p. 25.

(٦) MBCEH, n XXX. Fol. 78 v-79.

Bc. En Me HE, t, v . ps. 291-292.

(٧) MBCEH, n XXX. Fol. 82-109.

(٨) يوجد فى الجزيرة العربية على بعد ثلاثة أميال من المدينة.

(٩) MBCEH, n XXX. Fol. 100-109.

(١٠) إشارة إلى نهر فى الجنة يذكره القرآن، سورة رقم ١٠٨ (الكوثر) آية ١.

(١١) MBCEH, n XXX. Fol. 118v-124v.

(١٢) MBCEH, n XXX. Fol. 109-118v.

(١٣) تشير هذه الفقرة إلى الوضع الخاص الذى عاش فيه الموريسكيون المجبرون على التعايش مع المسيحيين والخضوع لهم وغير القادرين على الاتصال بإخوانهم فى الدين من المسلمين فى شمال إفريقيا وقد فقدوا الحرية اللازمة لممارسة شعائر الديانة المحمدية بهدوء.

(١٤) مكة والكعبة بالترتيب.

(١٥) المحرم ورمضان بصفة خاصة.

(١٦) انظر الصفحتين ١١١-١١٢ من هذا الكتاب.

(١٧) MBCEH, n XXX. Fol. 31-40 y n LII, fol 496 y sigs.

(١٨) طبقا للتراث الإسلامي الأسطوري في وصف الكون فإن "كاف" هو اسم لدائرة جبال تلف الأرض ويسكنها الجن والشياطين، ولما كانت هذه الجبال من الزمرد فهي تعطي للأفق لونه الأزرق، ويطلق هذا الاسم أيضا على جبال القوقاز.

(١٩) يقرأ في القرآن، سورة ٨٥ (البروج)، الآيات ٢١-٢٢ "بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ" ويستخدم تعبير اللوح المحفوظ – al luh al almahfud في الحديث وفي الدارسات العقائدية الإسلامية للدلالة على اللوح الذى تسجل عليه القوانين الإلهية الخاصة بالأشياء المخلوقة، ويعتقد المسلمون أن الله يستخدم قلما لذلك، انظر: Hugues, Dict. Op islam, v -2 alluh almahfud. P. 285.

(٢٠) يطلق هذا الاسم على الآيات ٢٥٥-٢٥٨ من السورة الثانية في القرآن(*) (٢١) القرآن، سورة رقم ١٨ (الكهف).

(٢٢) الجرذ هو حيوان أكبر من الفأر، راجع: Vullers. Lex. Pers. - lat, t. II, p. 328.

(٢٣) طبقا للتراث الاسلامي فإن ست Set تلقت من الله ٥٠ صفحة في الرياضيات والفلسفة والعقيدة والكيمياء.. إلخ انظر:

Morkhoud, rauzat. Us. Safa (Bible d'I islam) trad. De E. la maiaesse, p. 17.

(٢٤) انظر صفحة ١٣٨ من هذا الكتاب.

(٢٥) الثوب السماوي المضيء الذى ألبسه جبريل لإبراهيم عندما كانت تحيطه نار نمرود.

انظر: Merkhoud, op. cit, p. 38.

(٢٦) في القرآن، سورة ٧، آية ٧١(**) يُذكر أن النبي صالح قد عاب على الثموديين عبادتهم آلهة أخرى وأنه سلم إليهم ناقة لكي يختبر مدى طاعتهم لله وأمرهم أن يتركوها ترعى في الحقل دون أن يلحقوا بها أدنى أذى.

انظر صفحة ٨٣ من هذا الكتاب.

(٢٧) يتحدث القرآن، سورة ٣١ (لقمان)، آية ١١ عن هذه الشخصية، اشتهر بين العرب بالحكمة وكان أحد أعضاء الوفد الذى أرسله قوم عاد إلى مكة طلبا للمطر وكان قوم عاد – وهم شعب في الجزيرة العربية – قد أصابهم الجفاف، ويعتقد بعض المفسرين أن هناك لقمان آخر لا يجب الخلط بينه وبين لقمان الذى يرد ذكره في القرآن.

(*) (المترجم: الآية ٢٥٥ من سورة البقرة).

(**) (المترجم: سورة الأعراف، الآيات ٧٣-٧٩).

(٢٨) "لا اله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين" القرآن، سورة ٢١ (الأنبياء)، آية ٨٧(*).

(٢٩) "هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة، إنك سميع الدعاء، فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين" القرآن، سورة ٣، الآيات ٣٣-٣٤(**).

(٣٠) انظر صفحة ١١٣ من هذا الكتاب.

(٣١) انظر صفحة ١١٤ من هذا الكتاب.

(٣٢) انظر صفحة ١٣٧ من هذا الكتاب.

(٣٣) تشير هذه الفقرات الثلاث أولاً إلى وحى القرآن إلى محمد (القرآن سورة ٥٣، آية ٤) وهناك تراث إسلامى يقول إن الله أمر الملك جبريل أن يأخذ قبضة من الطين مختلفة الخواص والألوان من على سطح الأرض وأن يأتى إليه، فلما مدَّ الملك يده إلى الأرض ارتعدت، ولما أدركت الأرض المقصود من المحاولة رجته، أن يتخلى عن القيام بها حتى لا توجد فى الدنيا مرة أخرى مخلوقات متمردة يعاقبها الله كالجن وهى مخلوقات وسط بين الملائكة والبشر. رجع الملك إلى الله فأرسل الله الملك ميكائيل، وقد أثنت كلمات الأرض الملك ميكائيل عن عزمه - كما حدث مع جبريل - وفى النهاية قام الملك عزرائيل بالمهمة الإلهية برغم توسل الأرض، فأخذ منها قبضة من الطين من على سطحها كله مختلفة الخواص والألوان. وبعد أن عجنها جميعها وضع العجينة بين الطائف ومكة، وتختلف خواص وألوان الأجناس البشرية باختلاف طبقة الطين أو الأرض، وقد عيَّن الله عزرائيل ليكون ملك الموت انظر: Mirkhoud, op. cit, p. 5

وإسرافيل هو المكلف بدق الطبول يوم البعث، انظر صفحة ١١٤ من هذا الكتاب.

(٣٤) انظر صفحة ١٠٩ من هذا الكتاب.

(٣٥) يشير إلى المكان العلى الذى يشغله الله فوق المكرمين فى السماء.

(٣٦) معبد يقع بين جبل عرفة ووادى منى بالقرب من مكة، وهى أماكن مقدسة بالنسبة للمسلمين إذ تؤدى فيها كل عام شعائر الحج كما سنبين فيما بعد.

(٣٧) انظر صفحة ١١١ من هذا الكتاب.

(٣٨) القرآن، سورة ٣٧ (الصافات) آية ١٢٣.

(٣٩) توجد هاتان الكلمتان فى أول السورتين ٢٠، ٣٦ من القرآن. لم يستطع المفسرون توضيح معنيهما، ولهذا تنسب إليهما فضائل صوفية.

(٤٠) هو اليوم التاسع من شهر ذى الحجة، الذى يسبق عيد الأضحى، فى إطار شعائر الحج.

(٤١) إشارة إلى الصلوات التى تؤدى فى هذين المكانين خلال الحج.

(٤٢) يشير إلى قبر محمد (الروضة).

(*) (المترجم: فى النص الإسبانى تكرر كلمة "سبحانك").

(**) (المترجم: سورة آل عمران، الآيات ٣٨-٣٩).

(٤٣) انظر صفحة ١١١ من هذا الكتاب.

(٤٤) MBCEH, n XXX. Fol. 39-45.

(٤٥) يشير إلى مغفرة الله لداود بعد أن ندم على اقترافه الإثم مع زوجة أوريا (القرآن، سورة ٣٨، الآيات ٢٣-٢٤)(*).

(٤٦) انظر صفحة ٩٧ من هذا الكتاب.

(٤٧) القرآن، سورة ٢٧، الآيات ٩-١٢.

(٤٨) ربما يشيرا إلى ليلة القدر وهى ليلة السابع والعشرين من رمضان، انظر صفحة ١٠٩ من هذا الكتاب.

(٤٩) من الغريب حقا ذكر هوميروس هنا، فمبلغ علمنا أن الشاعر الإغريقى لم يكن شعبيًا مطلقا فى الإسلام وإنما كانت معرفته فى نطاق الفلاسفة فقط(**).

(٥٠) انظر صفحة ١١١ من هذا الكتاب.

(٥١) اسم يرد فى القرآن للملك الذى تمرد على الله فقال له ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ القرآن، سورة ١٥ (الحجر)، آية ٤٢.

(٥٢) القرآن، سورة ١٥ (الحجر)، الآيات ٢٨-٢٩: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

(٥٣) القرآن، سورة ١٥، الآيات ٣٢-٣٥: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

(المؤلف: "الرجيم" صفة تطلق دائما على الشيطان إذ أن التراث يقول إن إبراهيم ذات يوم طارد الشيطان الذى كان يريد إغراءه، انظر: Kasim, Le Koran, p. 47.

انظر أيضا القرآن، سورة ١٢، آية ٣١(***).

(*) يلاحظ أن تفسير الآيات على هذا النحو خطأ وقع فيه بعض المفسرين المسلمين للأسف الشديد، إذ أن هذا التفسير يتنافى مع المبدأ الإسلامى الذى يقول بعصمة أنبياء الله عليهم السلام، راجع "صفوة التفاسير" لمحمد على الصابونى، الجزء الثالث، دار القرآن الكريم، بيروت عام ١٩٨١م، ص ٥٤-٥٥). (المترجم)

(**) يجب أن نضع فى الاعتبار أنه خلال القرن السادس عشر شهدت أوربا - وإسبانيا - حركة نهضة تمثلت فى دارسة التراث اليونانى واللاتينى ونظن أن الموريسكى، مؤلف المخطوطة قد تأثر بشكل أو بآخر بحركة النهضة التى كانت تدور حوله). (المترجم)

(***) الآية ٣١ من سورة يوسف لا يرد فيها ذكر الشيطان، والآية ٥ من نفس السورة يرد فيها ذكر الشيطان، ولكنها ليست مناسبة للمعنى الذى يريده المؤلف. (المترجم)

الفصل العاشر

الصــلاة (الجزء الثامن)

الخطبــة[1]:

الخطبة فى الطقوس الإسلامية عبارة عن احتفال يسبق صلاة الجمعة التى تؤدى فى المسجد. كان الموريسكيون يعلمون أنه – فى كل بلد به اثنا عشر شخصا أو أكثر ومسجد جاهز للعبادة وإمام صالح لأداء الصلوات الخمس الواجبة يوميا صيفا وشتاء – يجب أن تكون هناك خطبة يلقيها الفقيه. كان المنبر فى المسجد بمثابة منصة مخصصة لمن يلقى الخطبة، وإذا كان هناك مسجدان ليس بينهما إلا مسافة قصيرة، ولكن يفصلهما نهر أو وادٍ أو برج أو قنطرة فيجب أن تُلقى خطبة الجمعة فى كل منهما إذا كان المسجدان يتبعان بلدين مختلفين.

وكان يجب أن يحضر خطبة الجمعة كل من يقيمون بالقرب من المسجد بحيث يمكنهم بعد انتهاء الاحتفال أن يعودوا إلى بيوتهم قبل غروب الشمس عبر طريق آمن بحيث لا يزيد طول الطريق عن ستة أميال. وكان من المحظور أداء صلوات تطوعية فى المسجد أثناء الخطبة وبعدها. وكانت الخطبة تسبق صلاة الظهر بين الحادية عشرة والثانية عشرة صباحا وهذا التوقيت الرسمى للخطبة[*] كان يطبق فى عيد الفطر

(*) ليس هناك توقيت رسمى للخطبة إذ تلقى خطبة الجمعة فى وقت صلاة الظهر، أما خطبة العيدين فتلقى كل منهما بعد صلاة الصبح. (المترجم)

وعيد الأضحى وكل احتفالات العام وفي يوم الاحتفال بمولد النبي محمد(*) (الثاني عشر من ربيع الأول)(٢). أما في الليلة التي تسمى ليلة القدر، التي توافق السابع والعشرين من شهر رمضان(٣)، فكانت الخطبة يجب أن تسبق صلاة العشاء(**).

كانت الخطبة تتضمن عادة ثلاثة أجزاء: حمد الله، والصلاة على النبي محمد، وتلاوة آيات قرآنية وتفسيرها بحيث تحتوي الآيات على نداء مناسب لحاجات المصلين الروحية. وبعد الخطبة كان الجميع يخضعون لله طالبين من رحمته المغفرة. و إلى جانب الخطبة التقليدية في كل جمعة وفي الأعياد والاحتفالات كانت هناك خطب خارج الطقوس تشبه المواعظ في ديننا. إذن يمكن أن نميز نوعين من الخطب:

(أ) أخلاقية وهي تسمى أيضا أمثال ومواعظ وفيها يُحَثّ على أداء الأعمال الطيبة بصفة عامة مثل البقاء فترة طويلة في المسجد، صيام النهار وقيام الليل، عيادة المريض، المشي وراء الجنازة، الامتناع عن الأكل والشرب لتعذيب النفس(***)، التصدق على الفقراء، أداء الزكاة كل حسب ما يملك من متاع(****)، الاحتراز عن السكر(*****) واستعمال الخمر، احترام الوالدين، الزهد في متاع الدنيا وغير ذلك من الأعمال المشابهة.

(ب) طقوسية ويجب أن تلقى يوم الجمعة، وكانت الخطبة تختلف باختلاف الشهر، بل في كل جمعة خلال السنة(٤) وفي العيدين والاحتفالات الأخرى. وكان محتوى هذه

(*) يجب أن نضع في الاعتبار أن الاحتفال بالمولد النبوي لا أساس له في الإسلام الصحيح ومن ثم فلا صلاة بهذه المناسبة ولا خطبة. (المترجم)

(**) لا أساس في الإسلام كذلك لخطبة ليلة القدر. (المترجم)

(***) يوصي الإسلام بعدم الإسراف في الأكل والشرب، أما الامتناع عن الأكل والشرب بغية تعذيب النفس فلم يقل به أحد. (المترجم)

(****) وهل كان للموريسكيين متاع؟ إذن نظن أن الخطبة تعود إلى فترة ما قبل سقوط غرناطة. (المترجم)

(*****) يحرم الإسلام تماما شرب الخمر، سواء أسكرت أم لم تسكر، أما محاولة عدم السكر فهو تصريح ضمني بجواز شرب الخمر بحيث لا يصل الشخص إلى درجة السكر، ونظن ذلك أثراً مسيحياً. (المترجم).

الخطب يشمل حمد الله وتعديد صفاته والمطالبة بأداء شعائره والشهادة الإسلامية والإشارة إلى مرارة الحياة الدنيا والدعوة إلى التوبة ووصف حساب الله وطلب رحمته الواسعة مع خشوع صادق.

نعرف نص الخطب التى كان يجب أن تسبق دعاء الاستسقاء والتى تناولناها بصفة خاصة(٥)، وسنرى الآن ما هو مضمون خطبة عيد الأضحى وهو أحد الأعياد التقليدية فى الاحتفالات الدينية الإسلامية. يبدأ الخطيب بحمد الله وتعديد صفاته ويصف النعم التى يهبها الله لمخلوقاته وبعثة محمد والأصل - والصفة الوجوبية - للصلاة والزكاة والحج والجهاد، ويوصى الأبناء بطاعة الوالدين الخالصة كواجب، كما يوصى الوالدين بأن يعلّموا أبناءهم الدين، وينتقد الحلف كذبا ويدعو المؤمنين إلى أن يحبّ بعضهم بعضا كما يجب، ويدين الخيانة وينصح المتزوجين باحترام النساء ومساعدتهن، وينتقد التكبر والاحتقار والسب والتزاوج بين الأقارب وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وشرب الخمر، وذبح الحيوان دون ذكر الكلمات التقليدية: "بسم الله"، "الله أكبر"، وينتقد كذلك الانتفاع ظلما بمال الأيتام، والزنا، ويحدد صفة الزكاة الواجبة فى العيد المذكور(*) الذى يحتفل به من خلال التضحية بحيوانات معينة. عد ذلك يصف طريقة أداء هذه الشعيرة ويشير إلى الطريقة التى ذبح بها محمد كبشين، كما يشير إلى فضل هذا العيد فى الطقوس الإسلامية. بعد ذلك مباشرة يروى قصة ظهور الملائكة لإبراهيم من قبَل الله لكى يقدم أضحية تكريما لاسمه الإلهى وكيف أن إبراهيم ضحى أولا بجمل ثم ببقرة ثم بخروف وفى النهاية كيف كان مستعدا للتضحية بابنه إسماعيل. ويضيف الإمام أن إسماعيل قد استحم وتعطر بمساعدة أمه هاجر التى تركته فى رعاية أبيه، ثم يحكى قصة ذهاب إبراهيم وإسماعيل على ظهر دابة، وكيف أن إبليس اللعين(٦) ظهر لهما أولاً فى هيئة عجوز له لحية بيضاء ثم فى هيئة طير دون أن يحقق أهدافه الشريرة حتى بدأ يصيح "كما لو كان الجبل يصيح بهما" ذاكرا لإسماعيل قرب ذبحه.

(*) مع أن الإسلام يوصى دائما بالتصدق فإنه ليست هناك زكاة مفروضة تؤدى فى عيد الأضحى. (المترجم)

يواصل الحكاية بهذا الشكل: ينحنى إسماعيل القانع للتضحية ويتألم بمرارة لأنه لم يودع أمه، لكنه يحفز أباه على تنفيذ إرادة الله. وعن طريق الملائكة يجعل الله السكين التى بيد إبراهيم لا تذبح حتى نزل الملك جبريل ومعه كبش ليذبحه إبراهيم بدلا عن ابنه، فقد رضى الله عن استعداد إبراهيم لتنفيذ أمره. يهبط إبراهيم وإسماعيل من الجبل، وتخرج هاجر لاستقبالهما. تحتضن الأم ابنها المحبوب وهو يروى لها القصة ويشكر الله على إنقاذ حياة ابنه(*). لا تهدأ هاجر حتى يوحى الله بأن من نسل إسماعيل بن إبراهيم سيولد النبى محمد. تنتهى الخطبة بالكلمات التى يطلب بها الفقيه رحمة الله لنفسه ولكل من حضر الخطبة.

وهذا هو نص الخطبة:

خطبة عيد الأضحى(٧):

الله أكبر (تسع مرات)

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض والظلمات والنور، يعلم الحاضر والغائب. تبارك الله وتنزه عن وصف أولئك الذين يعتقدون بوجود شريك له فى عظمته. هو الذى خلقكم من طين ثم أرسل التعاليم التى خالفتموها. هو الموجود فى السموات وفى الأرض ويعلم ما تبدون وما تكتمون وما تتخيلون(**).

الحمد لله الذى أنزل الكتاب مصدقا لعبده ليبشر بالحق بإذنه وليفرح المؤمنون الذين يعملون الصالحات ولهم أجر عظيم خالدين فيه أبدا ولينذر الذين قالوا اتخذ

(*) هكذا ورد فى النص الإسبانى والمعنى لا يستقيم إذ المتحدث هنا إسماعيل عليه السلام. (المترجم)

(**) من الواضح أن هذه الفقرة عرض للآيات ١-٣ من سورة الأنعام ونصها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ① هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ② وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾. (المترجم)

الله ولد مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا(*).

الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض، الحمد لله فى الآخرة وهو العليم. الحمد لله خالق السموات والأرض وجاعل الملائكة رسلا. يزيد فى خلقه وفقا لإرادته فهو القدير، لا شيء يمنع رحمته لخلقه ولا معطى لما يمنع وهو العليم، الله أكبر (ثلاث مرات)، عظيم فى عظمته، تبارك الله بكرةً وأصيلا، تبارك ذو الجلال والقوة. تبارك ذو الجلال والإكرام. تبارك الحى الدائم الذى لا يموت. تبارك الله عشيا وصباحا. له الحمد فى السموات والأرض وعشية وظهرا، يحيى الميت ويميت الحى، ويحيى الأرض بعد موتها وهكذا يبعثكم منها والحمد لله رب العالمين.

تبارك من استوى إلى السماء وهى دخان غير ثابت (القرآن سورة ٤١ آية ١٠) وقال لها وللأرض "ائتيا طوعا أو كرها" قالتا "أتينا طائعين، نطيعك عندما تأمرنا ونخضع لك فأنت ربنا" وخلق سبع سماوات ونظمهما فى يومين وكشف فى كل سماء أمرها وزين السماء الدنيا بالنجوم والشمس والقمر وجعل النجوم حرسا(**). تبارك الذى يسمع الأصوات ويحيى الأموات وينظم الأوقات ويعلم الماضى والآت. تبارك البعيد القريب الذى يسمع ويرى الذى يعلم ويدرك، ينظم ويحكم، يغنى ويفقر، يضحك ويبكى، يميت ويحيى، ذى الحرس العالى رب الآخرة والحياة الدنيا. تبارك الذى لا ينفد ملكه، ويعلو شرفه على كل شيء، الحى الذى لا ينام، العظيم الذى لا يتضاءل، المنتقم من كل من عصاه، الله أكبر (ثلاث مرات).

(*) هذه الفقرة أيضًا تشمل الآيات الأولى من سورة الكهف، لكن الترجمة الإسبانية لا توافق النص القرآنى دائمًا كما هو واضح. (المترجم)

(**) هذه الفقرة عبارة عن تفسير للآيتين ١١-١٢ من سورة فصلت ونصهما: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا...﴾، والنص الألخميادو لا يوافق النص القرآنى دائما كما هو واضح. (المترجم)

الله أكبر كبيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا، يا الله أشهد أنك الله الرب الواحد لا شريك ولا نقيض ولا ندّ ولا شبيه لك، بلا أب أو ابن أو زوجة، ونشهد أن محمدا عبدك ورسولك مخلصًا لوحيك ورعايتك، أرسله الله واصطفاه من أفضل كتيبة للدفاع ومن أشرف القبائل ومن أعلى نسب وطأ الأرض وأفضل من نزل عليه وحى، رسول من أشرف نسب، قائد الأمة إلى الإقامة الدائمة الكريمة والواقى من الحزن يوم القيامة، المبعوث بالرحمة والعقاب، المنسوب إليه صفات حق الرسالة، إليه جاء جبريل الروح الأمين من قِبَل رب العالمين وقال له "يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر"، بشريعته أبطل الله كل الشرائع الأخرى. هو الذى أمر بتحطيم الأصنام والأوثان وحث الناس على عبادة الرحمن وغلب حيل الشيطان. هو الذى شرع الحج وشعائره(*) والأضحيات والصدقة وصلاة الجمعة، فلتصل عليه الأرض والسموات، الله أكبر.

الله أكبر كبيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا. عباد الله رحمكم الله الحميد العظيم، هو الذى فرض الواجبات وفرض الأوامر ولا يرضى عن عباده إلا بتنفيذ هذه التعاليم وأولها الشهادة بوحدانية الله والاعتراف بربوبيته والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واعتقاد ذلك اعتقادا جازما فى الظاهر والباطن. يقول الله "إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا"، ويقول النبى إن أداء الصلوات الخمس اليومية مثل نهر عذب يمر بباب كل واحد منكم خمس مرات فى اليوم ولا يريد أن يبقى فى أحدكم درن. مثل ذلك مثل الصلوات الخمس التى تؤدى بالوضوء والركوع والسجود والخضوع الذى يصاحبها. قال الله: "قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون" وقال النبى "إن الله قد شرّع خمس صلوات فى اليوم والليلة فمن جاء وقد أداها وليس عليه شىء ينقص من أجرها فجزاؤه من الله أن يدخله الله الجنة، ومن لم يؤدها فلا ينتظر ذلك الجزاء ويتوقف مصيره من رحمة أو عقاب على إرادة الله وحكمه".

(*) لاحظ خطأ الفقيه الموريسكى، فمن المعلوم أن النبى (ﷺ) ليس المشرع ولكن الله سبحانه وتعالى هو المشرع. ونستغرب أن يكون مفهوم المؤلف المدجن أو الموريسكى على هذا النحو. (المترجم)

عباد الله، لقد رفع الله الصلاة على كل العبادات، فقال فى القرآن: "حافظوا على الصلوات فى كل أوقات النهار، ومن يترك صلاة وهو فى صحة جيدة فليس من الإسلام"(*). ويروى عن محمد أنه قال إن الذين يتركون الصلاة كمن لا دين لهم وكمن لا يدفعون الزكاة أو كأن الإسلام لا يوجد ولن تفيدهم شهادة أن لا إله إلا الله، فالله يلعنهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وتلعنهم الملائكة ألف مرة فى كل وقت صلاة. ويوم القيامة يأتى تارك الصلاة وبين عينيه عبارات مكتوبة بغضب الله القادر، تقول الأولى "يا من عليك بغضب الله" والثانية "يا من استهنت بحق الله" والثالثة "كما استهنت بالفروض التى فرضها الله لا تأمل اليوم فى رحمة الله". الله أكبر (ثلاث مرات)، الله أكبر كبيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا. أخرِجوا من مالكم – وهو المال الذى رزقكم الله إياه – ما تؤدون به واجب الزكاة التى فرضها عليكم، فالله تعالى منحكم المال كهبة وقرض كما يقول فى قرآنه الكريم "إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم فهو الغفور الرحيم، عالم الغيب والشهادة العزيز"، أعينوا بصدقاتكم مرضاكم وتقبلوا بروح الصلاة كل أنواع البلاء(**)، ويروى عن محمد أنه قال:

"إن الله يعاقب بالموت كل من تخلف عن وعده تنفيذ أوامره ووقع فى الإثم. والله يحرم من الانتفاع بالمطر كل من لا يدفع الزكاة".

تصدقوا سرا بحيث لا تعلم شمالكم ما أنفقت يمينكم، وأخرجوا الصدقات من طيبات متاعكم، فالله لا يتقبل إلا الطيب الحلال. لهذا يقول محمد "إن الصدقة الخفية أفضل من الصدقة المعلنة بسبعين مرة، وإن الصدقة المخفية تطفئ غضب الله وتنقذ عبد الله نار الله".

(*) الآيات الكريمة التى تأمر بالصلاة كثيرة ولكننا لم نعثر على آية تتضمن هذا المعنى المحدد الوارد فى النص الإسبانى. (المترجم)

(**) "إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم، عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم" (سورة التغابن، الآيتان ١٧–١٨) وبقية النص الإسبانى زيادة ولعل الجملة الزائدة شرح للحديث الشريف "داووا مرضاكم بالصدقة". (المترجم)

حجوا إلى بيت الله الحرام من استطاع إليه سبيلا، فقد قال النبى إن من حج فلم يذنب ولم يفعل السوء خلال الحج نظف من الذنوب كيوم ولدته أمه وتغفر له من الحج إلى الحج كل الذنوب التى ارتكبها، والحج المبرور ليس له جزاء له إلا الجنة، وقال النبى أيضا "من مات فى الحرب صائما رمضان أو فى الحج مات شهيدا"(*).

جاهدوا فى سبيل الله فهذا حقه، وأقبلوا على الله فالله ينقذ المؤمنين به فى أنفسهم وفى أموالهم ويدخلهم الجنة، يجاهدون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون لكن وعد الله حق فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى عهدا من الله فارضوا عن بيع أنفسكم للجهاد، فهو أفضل جزاء يمكن أن تتمنوه. وقال النبى "لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها" وقال أيضا: "إن الله ينجى من النار أولئك الذين تغطت أقدامهم بتراب الجهاد"(**) الله أكبر (ثلاث مرات).

الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا. أطيعوا الله فى كل ما فرضه عليكم من واجبات، وبرّوا بوالديكم فإلى الله يعود الفضل الذى ينسب إليهما وهو المصدر الذى تنبع منه كل حقوق الآباء. يقول الله: "أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير" وقد أمر الله ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، ويروى عن النبى أن رجلا جاء إليه ليرافقه فى الجهاد فسأله النبى:

– ألك أب و أم؟

أجاب: نعم يا رسول الله.

قال النبى: كيف تركتهما؟

أجاب: تركتهما باكيين.

(*) لاحظ المفهوم الخاطئ للاستشهاد عند الموريسكيين، فالشهيد هو من يموت فى الجهاد فى سبيل الله سواء فى شهر رمضان أو غيره من الشهور. (المترجم)

(**) الحث على الجهاد لا يتفق مع وضع الموريسكيين كأقلية مغلوبة على أمرها. (المترجم)

فقال: عد إلى رفقتهما وأضحكهما كما أبكيتهما، فقد ربياك طويلا منذ الصغر، وقاسوا من أجلك.

وقال النبى أيضا إن عقوق الوالدين إحدى الكبائر. ويُروى أنه قال: "من استيقظ صباحا أو نام مساء وقد أرضى عنه والديه فُتح له بابان من أبواب الجنة، ومن أصبح أو أمسي وقد غضبا عليه فُتح له بابان من أبواب النار حتى لو جهل أحدهما عليه" وأبناؤكم، عظوهم صغارا، وأجبروهم على الإيمان، وعلّموهم كتاب الله وسنّة نبيه محمد فقد قيل إن تعليم الصغار كتاب الله يطفئ غضب الله، وحق الابن على الأب هو أن يختار له اسما حسنا عندما يولد، وأن يعلمه القرآن عندما يرشد، وأن يزوجه عندما يصل إلى سن مناسبة، وأن يكون له قدوة فى السر والعلن. ويروى عن محمد أنه قال: "أيها الناس، اتقوا السوء فلو بغى جبل على جبل فإن الله يحول الجبل الباغى إلى تراب، واتقوا الحلف الكذب فالحلف الكذب يخلى البيوت من السكان والمتاع" ويروى أيضا أنه قال: "من حلف كذبا فحرم مسلما من حقه فقد حرم من جنة الله وحق عليه عقاب النار". ولما سئل النبى "يا رسول الله، وإذا كان الحلف فى قليل؟ أجاب: "حتى لو كان فى برعم صفصاف".

لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تباعدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا، تعاونوا فى الخير وحبوا الله. يروى عن النبى أنه قال "سيقول الله يوم القيامة أين المتحابون؟ بعزتى لأظلنَّهم اليوم بظلى يوم لا ظل إلا ظلى" ولا يؤمن المؤمن حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه، ولا يحل لمسلم ألاّ يكلم أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام "وخيرهما الذى يبدأ بالسلام". الله أكبر (ثلاث مرات)، الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا. اتقوا الغش والظلم والخيانة، فالله لا يهدى فنون المزيفين، وأكبر الزيف "أن تحدّث أخاك المسلم... فيصدق ما تقول له وأنت تكذبه". يروى عن النبى أنه قال "إن المخادع يرفعون إليه يوم القيامة راية يكتب فيها غشه وزيفه، فيقال له هذا هو غش وسوء فلان". وقال النبى أيضا" ثلاثة [أنواع من الناس] سأكون أنا سائلهم يوم القيامة: الإنسان الذى يطيعنى ثم يخادع، والذى يبيع المعتق ويأكل من ثمنه، والذى يؤجر عاملا فيأخذ العمل ولا يدفع للأجير. كل هذه صفات الأشرار".

أحسنوا عشرة زوجاتكم فهن لكم شريكات ومعينات، امنحوهن الغذاء والراحة اللازمة وكرموهن بما هو طيب، تأملوا إنكم أسرى محكومون(*) وهن ضعيفات، وقال النبى "اتقوا الله فى الضعيفين: المرأة واليتيم" وقال أيضا: "خلقت المرأة من ضلع أعوج فإن أردت أن تقيمه كسرته وإن تركته كما هو وأردت استخدامها فهن يغلبن الشرفاء ويغلبهن الزمن". وقال النبى "أفضل ما يُرزق المؤمن المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته" وقال أيضا: "خيركم خيركم لزوجاته، وأفضل الصحبة الزوجة الصالحة"، ولم يضع الله شيئا أبغض إلىّ من الطلاق، والله يبغض من يطلق بلا سبب، وقد قال النبى لزوجته عائشة: "يا عائشة إننى سأكون مدّعيا لصالح كل زوجة بغى عليها زوجها، وسيكون القاضى هو الله فأين المفر"؟ وقال "من يصبر على عادات زوجته السيئة سيكون له جزاء أيوب".

ولا يحقرن أحدكم مسلما، فمن يراه الناس حقيرا فى نظرهم قد يكون عظيما عند الله. وحاولوا أن تخجلوا، فالخجل يقود إلى الشرف، والشرف يؤدى إلى الجنة، والشريف ذو أعمال صالحة، وابتعدوا عن الكبر فهو كالشرك الأصغر، ومروا إخوانكم بأن يؤدوا الصلوات الخمس المكتوبة وأن يؤدوا واجب الله، وتحاشوا المعصية فستحاسبون عليها يوم القيامة. الله أكبر (ثلاث مرات).

الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا. حرمّت عليكم الإساءة إلى العائلات والزواج من الأم والأخت و الابنة وكل المحارم التى نصت عليها الشريعة[٨] وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وحُرم عليكم عند ذبح الحيوان أن تذكروا إلا اسم الله، ولا تأكلوا مال اليتيم إلا بالعدل، فمن يأكل مال اليتيم ظلما ستأكل النار بطونهم وستشويهم النار. يقول النبى "أنا وكافل اليتيم فى الجنة" وجمع بين إصبعيه، وقال أيضا "من يلمس رأس اليتيم لمسة عطف يكتب الله له بكل شعرة يلمسها حسنة ويغفر له سيئة" الله أكبر (ثلاث مرات).

(*) المعنى يستقيم لو أنه خاطب الرجال فذكّرهم بأنهم أصحاب سلطة وعليهم تقوى الله فى زوجاتهم. (المترجم)

الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا. أيها الناس اجتنبوا الزنا فهو ليس إلا فاحشة تؤدى إلى الغضب [غضب الله] وطريق الهلاك، وقد قال النبى "اجتنبوا الزنا بكل سبيل فهو يؤدى إلى ستة أنواع من الحقارة: ثلاثة فى الدنيا وثلاثة فى الآخرة، فى الدنيا يحرم من بركة المال ويضيع جمال وجهه ويسخط الناس عليه، وفى الآخرة عليه غضب الله والضيق عند الحساب ودخول نار جهنم". وانتهوا عن كل ما نهى الله عنه وعن كل معصية. وامتنعوا أيضا عن شرب الخمر فهى أم الخبائث وهى إحدى الكبائر ومفتاح العصيان وشبكة الشيطان وهلاك الإنسان وغضب الرحمن وتدفع إلى ارتكاب الذنوب وتؤدى إلى عبادة الأوثان فبالخمر لا تؤدى الواجبات التى فرضها الله وبها ينقاد الإنسان إلى الحرام. وقد قال النبى فى كل أمة وثنيون ووثنيو أمتى هم شاربو الخمر. والوثنى لا دين له ومن يشرب الخمر فى الدنيا يحرمه الله منه فى الآخرة ومن يمتنع عن الخمر يسقيه الله شراب الجنة الذى تفوح منه رائحة المسك".

عباد الله، لقد طهَّر الله يومكم هذا وجعله عيدا ويوما لاجتماع المسلمين وفرضا فى دينكم، وهو اليوم الذى تؤدى فيه الصدقة، وفيه تتضاعف حسناتكم وتتضاءل سيئاتكم. فى هذا اليوم يجب أن تؤدوا الواجبات وتمتنعوا عن المحرمات. ويجب عليكم تقديم الأضحيات وإطعام العراة السائلين، ففقد قال الله إنه لا يتقبل لحم ولا دم الأضحية وإنما يتقبل النيات، ولهذا سخرها لكم حتى تسبحوا الله على نعمه التى أنعم عليكم وليفرح المؤمنون. عباد الله، عندما تعودون إلى بيوتكم بعد أداء الصلاة سيروا فى طريق مغاير للطريق الذى أتيتم منه حتى تغيظوا الكفار بالبرهان على إيمانكم. ومن لديه أضحية يريد ذبحها فليذبحها بنفسه إلا إذا منعه عن ذلك مانع خطير، ومع أن ذبح الإنسان بنفسه أفضل فإنه يمكن أن يفوِّض شخصا آخر بذبح أضحيته دون أن تفقد الأضحية شرعيتها. وعند ذبح أضحياتكم وجهوا وجوهكم نحو القبلة وحدوا شفراتكم واستعدوا للتضحية برحمة ودون غضب، وتجنبوا تعذيب الحيوانات فهى ستكون دوابكم التى تركبونها للمرور على الصراط(٩)، ولا تذبحوا أضحياتكم قبل أن يذبح الإمام أضحيته فقد جعله الله رئيسا لكم فى الشعائر الدينية ولن تقبل أضحية من يذبح قبل أن يذبح الإمام، واختاروا أضحياتكم من بين أفضل ما لديكم، فالله لا يتقبل

إلا طيبا، واجتنبوا أن تكون الأضحية معيبة كأن تكون قد وُلدت وبها عيب كالعور أو يكون بها قطع فى الأذن أو جريحة أو بها أى مرض عضوى آخر. ويقال عند الذبح "بسم الله، الله أكبر، اللهم هذه الأضحية لك، تقبلها منى كما تقبلتها من خليلك إبراهيم ومن نبيك محمد".

ومن المعلوم أن النبى قد ضحى "بكبشين جميلين ذوى أقران ينظران فى سواد ويمشيانه فى سواد ويرعيان فى سواد.... وكانت أقدامهما فوق عنقيهما، ووجهاهما نحو القبلة". وعند ذبح الخروف الأول قال "بسم الله، الله أكبر، هذه الأضحية لك، اللهم هى عن محمد وآله" ثم ذبح الخروف الثانى وقال "بسم الله، الله أكبر، اللهم هذه الأضحية عن من يشهد أني رسولك حتى يثبت على حق ما شهد به وأن يرى - كما شهد - ألا شريك لله فى عظمته وأنه ليس هناك أعظم من تعاليمه". وبعد الذبح تأكلون من لحم الأضحية ففى ذلك فضل كبير وأجر عظيم. وليأكل منها "الفقير والمسكين المحتاج" ولا تبيعوا لحم الأضحية ولا جلدها، واعلموا يا عباد الله أن يومكم هذا عظيم وعيد شرّعه الله فى دينكم عندما شرف شريعتكم بتكريمه لنبيكم محمد، فقدّسوه وعظموه. إن هناك من يدرك هذا اليوم ولا يدرك قيمة ما يدركه فيضيّع اكتساب الحسنات فيه جاهلا قيمة ما يضيع. إنه يوم الحج الأكبر والأعظم للفضائل التى تدرك (فيه).

يتحدث القرآن عن فضله فيشهد الله عندما يقول: "وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود، وأذّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كلّ ضامر يأتين من كل فج عميق" وقال ابن عباس(١٠):"عندما أراد الله - تبارك اسمه هو ربنا وولينا - أن يتخذ إبراهيم خليلا قالت له الملائكة" ربنا وولينا لماذا تريد أن تتخذ خليلا من بين ولد آدم إذا كانوا يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء بلا سبب؟ وقال الله للملائكة: إنى أعلم ما لا تعلمون، وقال ملك الموت: "ربى ووليّى، ومن يتجرأ على قبض روح هذا العبد إذا كان خليلك؟ وأجاب الله بهذه الكلمات: أنت تقبض روحه يا ملك الموت، انزل إليه وفرحه".

ونزل ملك الموت فى أجمل صورة لبنى آدم وجها ورشاقة وريحا وأعذبهم حديثا وأنظفهم ثيابا، وكان إبراهيم أفطن الناس فشم رائحة المسك فى مجلسه حتى وقف أمامه ملك الموت فقال له: "من الذى أدخلك بيتى دون إذنى؟" فقال الملك: أدخلنى رب البيت والذى أسسه "فقال له إبراهيم: كيف ذلك؟ أفى بيتى مالك آخر غيرى؟ فقال الملك: نعم يا إبراهيم، ذلك الذى خلقنى وخلقك هو رب البيت" أجاب إبراهيم: حقا ما قلت رحمك الله، قل لى هل أنت رسول من قِبل رب كل شيء؟، إنك تقول إن من أدخلك هو رب البيت، ومن أنت؟ فقد تغير لونى بمجرد سماع كلماتك وارتعدت فرائصى وارتبك لسانى واقشعر جلدى".

قال الملك: أنا الذى أزيل عروش الملوك وأفرق الجماعات، وأخلى المنازل وأعمّر المدافن. أنا ملك الموت يا إبراهيم. وسقط إبراهيم كالميت، وعندما أفاق قال للملك: لماذا جئت يا ملك الموت؟ ولماذا أرسلت لذلك؟.

قال ملك الموت: أُرسلت لأفرح عبدا يريد الله أن يتخذه خليلا.

قال إبراهيم: من هذا الصديق يا ملك الموت؟ دلنى عليه حتى أعصر له الطعام بيدى وأحضر له الماء على كتفى وأخدمه طول حياتى.

قال الملك: وهل تقنع بذلك يا إبراهيم؟

قال إبراهيم: سبحان الله وكيف لا أقنع بأن أكون خادما لخليل رب العالمين؟

قال الملك: فأنت ذلك الخليل يا إبراهيم.

وخر إبراهيم ساجدا لرب العالمين قائلا: ربى ووليى، أحمدك حتى تزيد من قربى إليك، ولكن لماذا حصلتُ على هذه الدرجة من الشرف وكيف وصلتُ إلى هذه الرتبة؟ وأجاب الله: "يا إبراهيم لقد حصلتَ على ذلك منى لأنك تصدقت بالطعام وأفشيت السلام وقمت بالليل والناس نيام". وبالفعل ظل إبراهيم زمنا طويلا يقوم الليل ويصوم النهار دون أن يتناول طعاما ولا يتوقف عن عبادة الله حتى وهن جسمه ونحفت عظامه. وذات ليلة، بينما هو نائم، ظهر له مخلوق يمكن أن تراه العين فقال له "يا إبراهيم إن

رب العباد يقول لك قم وقدم أضحية تكريما لاسمي، وسأتقبله منك وسيكون مثلا للناس وسأجزيك عليه يوم القيامة".

استيقظ إبراهيم فزعا يرتعد وذهب إلى مكان إبله ونحر إحداها وأطعم منها الفقراء والمساكين ثم قال: "يا رب هل قبلت منى الأضحية التى قدمتها لك؟ إذا لم يكن كذلك فأرنى الليلة رغبتك". وفى الليلة التالية بينما هو نائم ظهر له فى الحلم رسول قال له "إن رب العالمين يقول لك قدم أضحية تكريما لاسمى وسأتقبله منك وسيكون مثلا للناس وسأجزيك عليه يوم القيامة"، استيقظ إبراهيم فزعا مرتعدا وذهب إلى مكان أبقاره فذبح إحداها وأطعم بها الفقراء والمساكين. وقال: "إذا كنت قد قبلت هذه الأضحية فأعلمنى بذلك فى الليلة الثالثة". وفى الليلة الثالثة بينما هو نائم ظهر له من يقولون(*): "يا إبراهيم قدم أضحية تكريما لاسمى"، واستيقظ إبراهيم خائفا مذعورا فأخذ خروفا وذبحه وأطعم به الفقراء والمساكين. وقال إبراهيم: "ربى وقائدى ووليى، بماذا أضحى لك إذا كنت قد ضحيت بالإبل والأبقار والغنم؟ بماذا تريدنى أن أضحى يا رب حتى تكون الأضحية مقبولة"؟ فقال له الله: "يا إبراهيم إن الله لا يريد جملا ولا بقرة ولا شاة ولكنه يأمرك أن تذبح ابنك المحبوب إسماعيل قرة عينك وراحة فؤادك، ضحِّ به تكريما لاسمى(**) سأجزيك على ذلك يوم القيامة".

يحكى أنه فى تلك الليلة كان إبراهيم مستيقظا يفكر ويقبِّل ابنه الحبيب ويضمه إلى صدره حتى أنه لم يتركه يستريح. وعندما رأت أمه هاجر ذلك قالت "يا إبراهيم ماذا بك الليلة لا تترك حبيبى وقرة عينى إسماعيل ينام"؟ فقال لها إبراهيم: "صمتا يا هاجر، إن قلبى يتملكه حب ابنك وأرجو منك يا هاجر فى فجر غد إن شاء الله أن تدخلى ابنى إسماعيل إلى الحمام وأن تغسلى رأسه حتى تكون نظيفة جيدا وأن تلبسيه ثيابا نظيفة لكى يذهب معى إلى المكان الذى أريد أن أقدم فيه الأضحية". وفى فجر اليوم التالى أخذت هاجر ابنها إسماعيل وأدخلته الحمام وبدأت فى غسل رأسه بالسدر(١١)

(*) وردت صيغة الجمع فى النص الإسبانى. (المترجم)

(**) لاحظ تغير الضمير من الغائب إلى المتكلم. (المترجم)

والكافور، وقال الابن الحبيب إسماعيل لأمه "أرى أنك تغسلين رأسى بالسدر والكافور اللذين يغسل بهما الأموات عند تجهيزهم للرحيل من هذه الدنيا إلى العالم الآخر". وقالت له أمه: "يا بنى، لقد أمرنى بذلك أبوك إبراهيم"، وقال إسماعيل: "إذا كان أبى قد أمرك بذلك فعليك إطاعة أمره". وغسلت رأسه حتى نظفتها جيدا وألبسته ثيابا جديدة نظيفة من الصوف من أفضل الثياب. ودخل بعد ذلك إبراهيم سرا إلى حجرته وأخذ سكينًا ووضعها بين ثيابه وقالت له هاجر"خذ يا إبراهيم طعاما وشربا وغطاء لرأسه وإذا عطش ابنى الحبيب فاسقه، وإذا جاع فأطعمه، وإذا ضايقته أشعة الشمس فظلل عليه بهذا الغطاء".

وقال لها إبراهيم "يسرنى يا هاجر".

وسار إبراهيم وركب دابته، وركب إسماعيل وراءه. وعندما تقدما فى السير ظهر لهما إبليس اللعين فى صورة عجوز ابيضّ شعره ولحيته وقال لهما: "إلى أين أنت ذاهب بابنك يا إبراهيم"؟

فأجاب: "ذاهب إلى حيث يجب أن أذهب".

فقال العجوز: "بالله لقد خدعك إبليس ولن تذهب إلا لذبح ابنك".

علم إبراهيم أن ذلك العجوز هو إبليس فقال له: "اغرب عنى يا عدو الله". وعاد إبليس اللعين حزينا لأنه لم يحقق غرضه. بعد ذلك ظهر إبليس لإسماعيل وقال له: "إلى أين يذهب أبوك بك؟" فأجاب إسماعيل: "إلى حيث يجب أن يذهب لحاجة عُرِضتْ له"، فقال له إبليس (لعنة الله): "اعلم أن أباك يحاول أن يذبحك اليوم"، فقال له: "أيها العجوز، هل رأيت أبا يذبح ابنه بلا سبب؟"، قال إبليس: "يقول أبوك إن الله أمره بذلك". وأوحى الله إلى إسماعيل أن يقول: "أيها العجوز، إذا كان الله قد أمره بذلك فعليه طاعة ربه فيما أمره به". ورحل عدو الله إبليس اللعين ضائعا ومحتقرا. وبكى إسماعيل بمرارة، وأدار إبراهيم وجهه إلى ابنه فلما رآه يبكى سأله "يا بنى الحبيب لماذا تبكى؟"، فأجاب إسماعيل: "يا أبت وكيف لا أبكى وهذا العجوز قد أعلمنى أنك تريد أن تذبحنى؟" فقال له :"يا بنى لا تخف فأنا معك".

عاد إبليس عدو الله بعد ذلك في صورة طير يحلق حول رأس إسماعيل ويقول "ما أعظم حزنى عليك يا صبى! وكيف يريد أبوك اليوم أن يذبحك!" فقال إسماعيل: "وهل رأيت أبا يذبح ابنه بلا سبب؟" فرحل عدو الله ضائعا خاسئا، ثم ظهر للمرة الثالثة لإسماعيل وقال له: "يا إسماعيل، إنهم يذهبون بك إلى الموت وستُطرح فوق الجبل وتُذبح بالسكين". وألقى الله فى روع إسماعيل وأوحى إليه أن يقول لأبيه إبراهيم: "يا أبت، إذا كان العجوز يكذب فالطائر لا يكذب وهما يقولان لى إنك تريد أن تذبحنى" فأجاب إبراهيم: "يا بنى، إن من الطير ما يكذب وما يصدق، فاترك نفسك لحكم الله. ستكون مكرما لو كنت أضحية يقبلها رب العالمين".

ولما يئس إبليس اللعين من إبراهيم وإسماعيل، ولم يستطع تحقيق غرضه منهما بدأ فى الصياح – وكأن الجبل هو الذى يصيح – بأعلى صوته قائلا: "يا إسماعيل، اليوم ستذبح علىّ وسيسيل دمك فىّ وستدفن فوق قمتى، ويوم القيامة سأزهو بك على بقية الجبال". وعندما سمع إسماعيل هذه الكلمات قال لأبيه:"إذا كان العجوز والطير يكذبان فالجبل لا يكذب فليس فيه ذنب أو حسنة". وهنا بدأ إبراهيم فى الدعاء والخضوع لله والصلاة. ولما بدأت أشعة الشمس تضايق الصبى قال لأبيه "يا أبت، إنى أشعر بحرارة الشمس تلسعنى ولا أراك تنفذ وصية أمى، ما تحبه لى معبودة قلبى". حينئذ قال إبراهيم لابنه إسماعيل "إنى أرى فى المنام أنى أذبحك[١٢]، فانظر ماذا ترى، وها أنت فى حضرة ربك، إذا شاء يرحمك ويرحم أباك. تأمل فيما أقوله لك وأقبل على المعاناة يا بنى. هذا ما رأيته فى المنام، وكل إنسان سيدركه الموت وأنت أول من يذوقه وأنا الأخير فى التنفيذ وألمك لفراق أبيك وأمك ضئيل بالمقارنة بألمهما وحزنهما عليك". عندئذ بكى إسماعيل بكاء مراً واستولى عيه الحزن وقال لأبيه "لو أنك أعلمتنى بذلك لودعت أمى الرحيمة، ووضعت رأسى تحت قدميها، وتقبلت منها البركة قبل أن تخرج روحى من الحياة الدنيا".

قال إبراهيم: "يا بنى، خشيت إن قلت لك ذلك فربما ذكرته لأمك ولم تكن لتدعك تأتى معى وكنا سنعصى ربى" قال إسماعيل لأبيه إبراهيم: "يا أبت، افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين[١٣]. اقتربْ منى يا أبى لكى أقبلك بين عينيك

وأتقبل منك البركة قبل أن تفارق روحي الحياة الدنيا"، بعد ذلك بكى إبراهيم بكاء مرا وقال "اللهم ارحم شيبي وارحم ابني واغفر لي ما سأفعل". وأخذ سكينه فما رآه إسماعيل قال "يا أبت، إن الموت مرّ، ومع ذلك يا أبي ضم ظهري وضع قدميك على كتفي حتى لا أتحرك ولا تصيبك قطرات دمي فيحرمني الله من جزء من الأجر". ولما أرقد إبراهيمُ ابنه في الأرض ارتعشت الأرض والسماء بمن فيهما، وصاحت الجبال والأشجار والحيوانات والملائكة المكرمون وكل ما خلق الله قائلين: "إن مثل هذا العبد لا يستحق إلا أن يتخذه الله خليلا".

ثم قال إسماعيل لأبيه: "يا أبت عندما تذبحني كفنّي في هذه الثياب، واذهب بقميصي إلى أمي حتى تتعزى وتستريح عندما تعلم مصيري". وبعد أن خلع إبراهيم ملابس ابنه إسماعيل وفوّض أمره إلى الله رفع بصره إلى السماء، وأمسك بالسكين ووضعه على رقبة إسماعيل، وبدأ في ذبح ثمرة قلبه ومتعة نفسه. وجعلت الملائكة السكين لا تذبح، وقالت الملائكة لما رأت ذلك: "ربنا ومولانا، ألا ترى ما يفعله خليلك إبراهيم بابنه إسماعيل؟" فقال الله: يا ملائكتي كل ذلك تحت بصري، وإذا طلب معونتكم فأعينوه، ولو طلب مني عونا سأعينه، فأنا الرحيم".

ولما وضع إبراهيم السكين للمرة الثانية على رقبة إسماعيل جعلتها الملائكة لا تذبح فقال إسماعيل لإبراهيم: "يا أبت لا تخف واجرح رقبتي بطرف السكين ونفِّذ ما أُمرت به ستجدني بعون الله صابرًا". وها هو إبراهيم يجرح بطرف السكين، لكن السكين لا تذبح، وهنا رفعت الملائكة – من الأفق حتى فوق العرش – تسبيحها وسلامها وتحياتها وحمدها لله رب العالمين معجبين بصبر، إبراهيم وتفويض أمره لله، ولما رأى إسماعيل أن طرف السكين لا يذبح قال لأبيه: "يا أبت، من الذي كان معك يوم أن قذفوك في النار؟" قال إبراهيم: "كان معي ربي"، فقال إسماعيل: "يا أبت، دعني إذن فربي سيفعل بي ما يشاء وسيرحمني لضعفي وصغر سني".

وعاد إسماعيل إلى البكاء والدعاء والخضوع لله قائلا: "ربي ومولاي، ارحم ضعفي وطفولتي ولا تمتحن أبي وأمي بهذا الألم ولا تنتقم مني (بسبب) عدوي إبليس. اللهم أعنّي واجعل قدري سعيدا، إنك على كل شيء قدير".

ولما وضع إبراهيم السكين للمرة الرابعة أرسل الله ملائكة تبكى وتصيح ووضع طبقة من النحاس بين الجزء الأسفل من رقبة إسماعيل وأنفه، ولعلمه بطهارة إبراهيم قال الله: "يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . إنا كذلك نجزى المحسنين" ونزل جبريل الأمين بأمر الله من السماء ومعه كبش جميل رعى فى الجنة خمسين قرنا وقال: "يا إبراهيم، قد تقبَّل الله منك يا إبراهيم. اترك ما تحتك وخذ ما خلفك". ونظر إبراهيم خلفه فرأى كبشا فأخذه وذبحه. يقول الله: "ضحِّ به كتضحية نبيلة" وأسماه الله عظيما. ولولا رحمة الله بالناس لذبح الناس أبناءهم حتى يوم القيامة. لا إله إلا هو الرحمن، الرحيم بمخلوقاته.

خرّ إبراهيم كالميت مما رآه، ولما أفاق أدار وجهه فرأى ابنه قد فُكّ وسأله من فكّ قيدك؟. قال إسماعيل: "رجل عليه ثياب بيضاء تفوح منه رائحة المسك". وألبس إبراهيمُ إسماعيلَ ثيابه، وفك قيده(*) وبدأ فى تقبيله واحتضانه، وقال: "الحمد لله الذى نجانا بعد أن اختبرنا"، ونزل جبريل وقال: "لقد أعطى الله لابنك دعاء مستجابًا لصبره وعندما يدعو به سيجاب" فقال إسماعيل: "اللهم اغفر لى، وأدخل الجنة كل عبد لك لا يشرك بك". بعد ذلك هبط إبراهيم وابنه إسماعيل من الجبل فرحين مسرورين شاكرين الله رب العالمين لما منحه لهما. ولما كان قريبا من البيت خرجت هاجر للقائه فى الطريق وعندما رأت أن إسماعيل قد تغير لونه ضمته إلى صدرها وأخذت تقبله. ثم حكى إسماعيل لأمه هاجر ما حدث وبكت هاجر ثم قالت: "يا بنى الحبيب، يا ثمرة قلبى أكان أبوك يريد أن يذبحك لإرضاء رب العالمين؟ الحمد لله الذى نجاك وأبعد الضر". ولم ينته خوف هاجر حتى طمأنها الله أن النبى محمدا سيولد من نسل إسماعيل بن إبراهيم، فرضيت هاجر حينئذ بحكم الله[١٤].

(*) لاحظ ضعف الرواية رغم جمالها - فقبل قليل ذكر المؤلف الموريسكى أن ملكًا قد فك قيد سيدنا إسماعيل، وها هو يقول إن سيدنا إبراهيم هو الذى فعل ذلك. (المترجم)

نفعنى الله وإياكم بالقرآن العظيم وبالصلاة، وكشف عنا برحمته الضر، وجمعنى وإياكم تحت راية النبى محمد الكريم. أقول قولى هذا لأعظكم به، واستغفر الله لى ولكم وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، هو الغفور الرحيم، هو الحى لا إله إلا هو، ادعوه مخلصين فله الدين، والحمد لله رب العالمين.

هوامش الفصل العاشر

(١) MBCEH, n III. Fol. 100.

(٢) انظر صفحة ١٠٧ من هذا الكتاب.

(٣) انظر صفحة ١٠٩ من هذا الكتاب.

(٤) Ribera y Asin: Ms. ar. Y alj. de la Bobl. de la junta, p .464.

(٥) انظر صفحة ١٢١ من هذا الكتاب.

(٦) انظر صفحة ٩٧ من هذا الكتاب.

(٧) MBCEH, n XXV, fol 100 - 148 v.

(٨) يحرم الدين الإسلامى الزواج بين الأقارب المباشرين كالأخوة وأبنائهم وبين الأقارب بالمصاهرة وبين الأخوة فى الرضاعة.

(٩) انظر صفحة ٦١ من هذا الكتاب.

(١٠) محدّث شهير من صحابة محمد، يُروى عنه الكثير من الأساطير الخاصة بالتوراة والإنجيل.

(١١) ربما يشتق الاسم من السدر وهى أوراق من نبت يستعمل فى الشرق كصابون.
انظـر: Dozy, suppl. I. 641.

(١٢) القرآن، سورة ٢٧، آية رقم ١٠١ (المترجم: سورة الصافات، آية ١٠٢).

(١٣) القرآن، سورة ٢٧، آية ١٠٢. (تحقيق الآية)

(١٤) أعرف رواية أخرى عن قصة تضحية إبراهيم بإسماعيل، وتتفق الرواية التى أعرفها مع الرواية التى تعرض هنا ولكنها موجزة، انظر:

Mirkhoud, Rauzat Us - safa (Bible de i'Islam) ps. 55-60.

الفصل الحادى عشر

الصـــــوم

الصوم ووجوبه[1]:

بعد أن عرضنا أول ركنين من أركان الإسلام، وهما الشهادتان والصلاة، نعرض الآن الركن الثالث وهو صوم شهر رمضان، الشهر القمرى التاسع من العام الإسلامى. ويتمثل هذا الفرض بصفة أساسية فى الامتناع عن الأكل والشرب منذ أن يبدأ الفجر حتى تغرب الشمس "ويكون الشفق قد اكتسب فى تلك الساعة لونه الأبيض المميز". ويُستمد هذا الركن من السورة الثانية فى القرآن، آية ١٨١ ونصها ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾(*).

وطبقا لهذا التشريع كانت فريضة الصوم تبدأ مع رؤية هلال رمضان ولا تنتهى إلا برؤية هلال شوال. وكان ظهور الهلال بوضوح ورؤية الناس له هو الذى يحدد بدء الصوم. وعندما كان هناك شك فى ظهور الهلال إذا لم يره الجميع بوضوح كانت تكفى شهادة اثنين من المسلمين المتمسكين بدينهم يشهدان أنهما رأيا هلال رمضان حتى يلتزم الجميع به ويبدأون الصوم. ولهذا السبب نفسه إذا تواجد الإنسان بمفرده ورأى الهلال عليه أن يُعلِم الفقيه تحسبا لما إذا كان مسلم آخر قد رآه. وبشهادة الاثنين

(*) الآية ١٨٥ من سورة البقرة. (المترجم)

يمكن أن تبدأ فريضة الصوم رسميا. وكان هـذا يُلزم من يرى الهلال المذكور. وبهذا الشكل إذا ترك أحد الصوم رغم علمه (بظهور الهلال) فعليه أن يصوم يوما آخر وأن يصوم الكفارة alcafara[٢].

إن الشهادة المذكورة تلزم كل أهل منطقة الشاهدين و- بالتالى - أهل المناطق الأخرى إذا علموا بذلك، وإذا لم يُر هلال رمضان لأى سبب، كأن يحجبه الضباب، فيكفى حساب شهر شعبان (أى الشهر السابق) وأن يبدأ الصوم بعد ثلاثين يوما من ظهور هلال شعبان. ولكى يكون الصوم - الواجب أو التطوعى - صحيحا كان لابد من توافر شرط النية. والوقت المناسب لإعلان النية هو الذى يسبق الفجر أو مع بداية الليل عشية الصوم. فى هذه الحالة الثانية أى عندما ينوى الإنسان عشية الصوم مع بداية الليل كانت النية تظل سارية المفعول حتى لو أدى المسلم أعمالا يحظرها قانون الصوم. ومن الملاحظ أيضا أن النية التى تعلن مع بداية الشهر تسرى خلال الشهر كله، ولكن يجب تجديدها إذا قُطع الصوم ولو بعذر شرعى.

وكانت فريضة الصوم تشمل المسلمين جميعا. كان الرجل يبدأ الصوم فى سن السادسة عشرة أو قبل ذلك "إذا بلغ الحلم". وكانت المرأة تبدأ الصوم فى سن الرابعة عشرة أو قبل ذلك إذا بلغت[٣]. وإلى جانب ذلك كان من ضمن الشروط الضرورية توافر شرط العقل. وكان من الممنوع خلال شهر رمضان ممارسة ألعاب القوة كالمصارعة وسباق الخيل دون ضرورة.

وكانت تمنع أيضا المواقف والألعاب غير الشريفة. وكان يستنكر القيام بمشتريات كبيرة أو عقد الزواج، فكل ذلك يجب أن يؤجل. ويُفهم أنه من المناسب أن يشمل الصوم كل المجالات التى تتطلب بذل قوة عضلية أو تدعو إلى التخلى عن الجدية والوقور اللذين يجب مراعاتهما فى هذا الشهر.

ورغم أن شعيرة الصوم لم تكن واجبة إلا فى شهر رمضان فإن الصوم كان سنّة تقليدية فى أيام وشهور معينة من العام حيث يحتفل المسلمون بذكريات لها أهمية خاصة

من وجهة النظر الدينية – كمولد النبى – ويخصصون أياماً لعبادة الله أو عبادة محمد. والأيام التى نعنيها هى الأيام التالية: الثالث والعاشر من محرم، الثانى عشر من ربيع الأول، الثالث والسابع والعشرين وأول خميس من رجب، والخامس عشر من شعبان، كما سنفصل ذلك فيما بعد. وكان يُعتقد أن من يصوم رمضان كما يجب دون أن يهمل شيئا من الأمور الواجبة يدخل الجنة الدائمة. أما من يأكل عمدا بحجة أن الصوم ليس واجبا فيستحق العقوبة القصوى (الإعدام) كمن ينكر الأوامر الإلهية.

حالات الإعفاء من الصوم(٤):

عندما وضع القانون الإسلامى شعيرة الصوم كفريضة عدّد حالات الاستثناء الأكثر شيوعا وهى المرض والسفر كما ذكرنا. وعليه فإن الإنسان الذى يمرض فى يوم يجب فيه الصوم يمكن أن يفطر وأن يقضى اليوم الذى فاته بمجرد أن يذهب عنه المرض. وينطبق نفس الشىء على من يسافر مسافة ٤٨ ميلا (١٦فرسخا تقريبا) أو أزيد، فيمكنه أن يفطر وأن يقضى ما فاته عند انتهاء السفر. وحتى فى هاتين الحالتين لم يكن الإعفاء مطلقا كما نرى، ففى الحالة الأولى لا يتعدى الأمر مجرد تغيير أيام الصوم، وفى الحالة الثانية كان تغيير الصوم إلى يوم لا يكون فيه الموريسكى على سفر. ولم يكن هذا التغيير صالحا إلا بشرط الامتناع عن أى عمل يخل بالفرائض الأخرى أو عن معصية الله خلال السفر. وعند مخالفة هذا الشرط لم يكن مشروعا تغيير يوم الصوم حتى لو زادت المسافة عن ٤٨ ميلا.

وبالإضافة إلى الحالتين الرئيسيتين اللتين أشرنا إليهما تذكر الشعائر الموريسكية بعض الحالات الأخرى للإعفاء من الصوم. وتبنى هذه الحالات على الوضع الاجتماعى للشخص أو على عدم قدرته الجسمانية أو الخلقية على أداء واجب الصوم. وفى هذه الحالات أيضا يلاحظ الاتجاه – الذى يقره الشرع وتجرى به العادة – إلى تعويض عدم الصوم بتأدية الصدقة، خاصة إذا لم يكن ممكنا قضاء الأيام التى يفطر فيها.

وتجب تأدية الصدقة إلى الفقراء تعويضا عن الإفطار بناء على الآية ١٨٠ من السورة الثانية فى القرآن التى تقول ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ (*).

وحالات الإعفاء التى أشير إليها هى:

(أ) الشيخ المسن الذى لا يقوى على الصوم إلا إذا تعرضت صحته للضرر.

(ب) المسلم الذى يضطر إلى العمل فى خدمة مسيحى كان يعفى من الصوم، إذ كان عليه أن يأكل فى نفس الساعات التى يأكل فيها سيده(**). ومع ذلك كان عليه أن يطعم فقيراً كتعويض عن الإفطار تحسبا، لأنه قد يتوفى قبل أن يتمكن من قضاء اليوم الذى أفطر فيه.

(ج) العبد الذى لا يسمح له سيده بالصوم، وعلى السيد فى هذه الحالة أن يطعم فقيرا، فقد يموت العبد دون أن يتمكن من قضاء اليوم الذى أفطره كالحالة السابقة.

(د) المسجون بناء على قرار محكمة التفتيش أو لقضاء فترة عقوبة أو الأسير فى بيت أحد المسيحيين أو فى السجن. وحتى فى تلك الحالات كان على المورسكى أن يعوض الإفطار إذا تمكن من ذلك، فإذا لم يتمكن فعليه أن يقضى أيام الصوم التى فاتته عندما تنتهى الظروف التى منعته. وإذا مات أحدهم قبل أن يتمكن من أداء هذا الواجب "فليثق فى رحمة الله الذى يعلم ظروفه".

(هـ) المرأة التى تجهض عليها أن تطعم فقيرا وأن تقضى الأيام التى فاتتها عندما ينتهى عذرها وعندما تكون فى حالة طهارة شرعية.

(*) هى الآية ١٨٤ من سورة البقرة، والترجمة الإسبانية للآية الكريمة غير صحيحة إذ تقول إن الصدقة تجب على المسلم الذى يستطيع تأدية الصوم، ولكنه يفطر. (المترجم)

(**) نظن أن هذا الوضع خاص بالموريسكيين نظرا للظروف التى كانوا يعيشونها. (المترجم)

(و) المرأة المرضعة بعد الولادة إذا رأت أنها لو صامت ستضعف ويمرض الطفل. في هذه الحالة يمكنها أن تفطر وأن تعوض ذلك بإطعام مسكين وبأن تقضى ما فاتها عندما لا يكون هناك خطر على صحتها.

وحتى نعطى فكرة عن أدق التسهيلات التى اضطر الموريسكيون إلى إدخالها على فريضة الصوم أنقل فيما يلى حالة يبدو أنها كانت شائعة، إذا وضعنا فى الاعتبار التعايش بين المسيحيين القدامى والمسيحيين الجدد أو الموريسكيين، وإذا وضعنا فى الاعتبار أن كثيرا من الموريسكيين كانوا يعملون فى مهنة النقل، وفيما يلى نص الفقرة التى أشير إليها[٥]:

حالة "إذا اضطر مسلم إلى صحبة مسيحى[٦] فى الطريق لمسافة تقل عن ١٦ فرسخا التى لا تبرر الفطر. إذا حدث خلال السفر أو عند التوقف فى بلد أن حانت ساعة الغذاء فليعتذر المسلم للمسيحى عن الأكل بكلمات طيبة، وإذا لم يتمكن من ذلك فليأكل حتى لا يتعرض لخطر الشكوى، وعليه أن يأكل أقل قدر ممكن - لا أن يبالغ فى الأكل والشرب - فقط حتى يحافظ على صحته. ليأكل قليلا وليشرب وعليه ألا يعود إلى الأكل والشرب فى ذلك اليوم إلا إذا ضايقه المسيحى حتى لا يعلم أنه يؤدى الصوم. ليكمل يومه وليقض ما فاته عندما يتمكن. وحتى لو كثرت الأيام التى يسافر فيها أو يصحب فيها المسيحى فليفعل ذلك وعليه ألا يقوم أو ينام إلا وهو ينوى صيام ذلك اليوم، فقد يستطيع التخلص من دعوة المسيحى. وإذا فعل المسلم شيئا آخر وبالغ فى الأكل أو الشرب أو أكل كثيرا بحجة أن صومه فسد فعليه الكفارة **alcafara**: صيام شهرين أو تحرير رقبة أو إطعام ستين مسكينا. والذى يأكل خوفًا يمكنه أن يأكل، ولكن عليه ألا يفعل ذلك إلا تلبية للدعوة وحتى يحافظ على نفسه. وإذا أكل ما يزيد عن ذلك بحجة أن صومه فسد فعليه الكفارة **alcafara**".

وهناك حالة أخرى شائعة هى موت أحد الموريسكيين خلال شهر رمضان، وأن يكون هذا الموريسكى قد أفطر أياما لمرضه. تقرر الشريعة الإسلامية أن يقوم أقرب الورثة بصوم الأيام التى فاتت المتوفى، أو أن يتصدق عن كل يوم أفطره المتوفى - ١١/٤ مكيالا من القمح.

مبطلات الصوم[٧] :

هناك كثير من الحالات يبطل فيها الصوم إذا حدث شيء خلال النهار. لن أتعرض الآن لمعظم هذه الحالات، وسأقتصر على ذكر أكثرها شيوعا مثل:

(أ) إذا تقيأ الإنسان، وابتلع القيئ، وكان يمكنه تجنب ذلك أو إذا ابتلع البلغم بدلا من أن يطرده فيجب عليه قضاء اليوم.

(ب) من يستنشق الماء فيدخل أنفه حتى الحلق ويصل إلى المعدة عليه قضاء اليوم. ومن هنا توصى السنّة بوجوب استنشاقَ الماء بالقدر القليل الذى يكفى للدخول إلى الأنف فقط.

(ج) معاشرة المرأة خلال نهار رمضان إذا حدث ذلك عن طريق الخطأ أو النسيان كان يوجب إتمام الصوم ويفرض على الزوج والزوجة قضاء اليوم، أما إذا تمت المعاشرة عمدا فكان عليهما قضاء اليوم الذى أفطرا فيه وكان عليهما الكفارة alcafara وهى كما ذكرنا عبارة عن تحرير رقبة أو صيام الشهرين التاليين لرمضان دون انقطاع أو إطعام ستين مسكينا دفعة واحدة. أما إذا كان الزوج قد أجبر الزوجة على الجماع فكان عليها أن تقضى اليوم فقط وكان على الزوج أن يؤدى كفارتين: واحدة عن نفسه وواحدة عن زوجته. وإذا جامع الزوج امرأة أجنبية كان عليه أن يصوم أربعة أشهر متتالية (فى حالة كون المرأة مسلمة) أو ثمانية أشهر (إذا لم تكن مسلمة)(*).

السحور[٨] :

كانت الشريعة الإسلامية تسمح لمعتنقيها بالأكل خلال الليل فقط فى رمضان، فى الوقت بين غروب الشمس وشروق فجر اليوم التالى، أى حتى اللحظة التى يتبين فيها "الخيط الأبيض من الخيط الأسود"[٩]. وإذا أكل المسلم قبل غروب الشمس أو بعد بزوغ الفجر لخطأ فى تقدير الوقت كان عليه أن يتم صومه وأن يقضى يوما آخر بعد رمضان، وإذا كان الشك يتعلق بغروب الشمس - حتى لو كانت قد غربت بالفعل - فكان عليه القضاء والكفارة.

(*) لا نعلم أصلاً شرعياً لهذا النص الموريسكى. (المترجم)

وكان الموريسكيون يلتزمون بدقة بفريضة الصوم الإسلامية. وهناك نوعان من الأدلة على ذلك: وصف الشعائر التي يستعملها الفقهاء، والأقوال التي تحتوي عليها قضايا الموريسكيين أمام محكمة التفتيش(١٠). كان الموريسكيون يتناولون وجبتين خلال الليل: إحداهما عند ظهور النجوم في الأفق بعد غروب الشمس، والثانية عند الفجر قبل صلاة الصبح.(١١) : ولهذا كان لهم في كل حي أشخاص مكلفون بأن يجوبوا البيوت عند الفجر وبأن يطرقوا الأبواب حتى يرد ساكنوها، وذلك لكي يقوم هؤلاء لتناول الوجبة الأولى بابتلاع كمية قليلة من الملح ثم بصقها بعد ذلك والمضمضة بالماء حتى يجري الريق فيتهيأ الفم لعملية الأكل. وكان هناك أشخاص - كالمكفوفين في هذه الأيام - يكسبون قوتهم بترديد أغان إسلامية ودعوة الناس إلى صيام رمضان(١٢).

دعاء(*) تقديم صوم رمضان(١٣) :

لاحظ أن المسلم الذي يرغب في تأدية فريضة الصوم عليه إعلان نية ذلك، وهكذا بعد أن يؤدي المسلم واجب الصوم يحمد الله على هذه النعمة ويرجو حمايته بالشكل الذي يوضحه الدعاء التالي:

"خضعَ وجهي لله الذي خلقني وشكلني ووهبني (نعمة) النظر. تبارك الله أحسن الخالقين".

"اللهم تقبل صيامي وارحم ضعفي واغفر ذنوبي".

"اللهم وضعت فيك أملي وخضعت لك ووكلت نفسي (إليك) وعلى رزقك أحيا".

"اللهم انقضى شهر رمضان الذي يجزي فيه كل العباد الذين قاسوا وأظهروا تقواهم بالتصدق على الفقراء فيه كما جاء في القرآن الكريم" يا عبادي المتقين تراحموا. كم من الذين صاموا(رمضان) لن يصوموا أبدا إذ سيمنعهم الموت"(**).

(*) يعود المؤلف إلى استخدام لفظ Oracion بمعنى دعاء. (المترجم)

(**) لم نتمكن من العثور على آية قرآنية بهذا المعنى فآثرنا ترجمة النص الإسباني كما هو. (المترجم).

ارض عنى يا رب فى رمضان، واجعله مغفرة لذنوبنا ولمن تريد معاقبتهم بذنوبهم وتقبل أعمالنا فيه يا رحيم يا من وسعت قدرته كل شيء.

اللهم بارك على نبيك المختار محمد وعلى آله واغفر لهم يا من تغفر برحمتك، جعلنا الله – وإياكم يا من صمتم صوما مقبولا – من المكرمين فى الجنة برحمته، فهو يجيب من يدعوه، واغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين الأولين والحاليين والآخرين فهو الذى نأمل فيه ويأمل فيه المسلمون أجمعون. رحمنا الله آمين، يا رب العالمين".

صيام التطوع[١٤]:

اعتاد بعض الموريسكيين، خاصة المتدينين منهم، صيام ستة أيام بعد عيد رمضان، وكانوا يسمونها الأيام "البيض"، وكانوا يعتقدون أن هذه الشعيرة توجب لهم جزاء يعادل أو يفوق جزاء رمضان. واعتاد الفقهاء الموريسكيون صيام بعض الأيام خلال الأسبوع على مدار العام كله، فقد عُرف عن موريسكيين فقيهين من كوفرنتى Cofrente بفالنسيا أنهما تعودا صيام ثلاثة أيام من كل أسبوع طوال السنة بالإضافة إلى شهر رمضان[١٥].

لكن أهم ما يميز صيام التطوع كان ما يعرف باسم "التواسع" وكانت تلك – كما يدل اسمها – تسعة أيام بلياليها يخصصها الموريسكى للعبادة بالصلاة والصيام فيظل فى المسجد دون أن يمكنه شرعا الخروج منه إلا لأحد الأغراض الثلاثة التالية: لقضاء الحاجة أو لتجديد الطهارة أو لشراء طعام إذا لم يوجد من يحمله إليه. كان على الموريسكى أيضا أن يمتنع عن الحديث مع أحد، لأنه إذا تحدث فإن "التواسع" تبطل ويلزم بإعادتها. كانت عيادة المرضى والمشى وراء الجنازة والمعاشرة الزوجية أمورا ممنوعة على الذين يؤدون "التواسع"، وإذا قطع المسلم عبادته لنسيان أو لمرض كان يكفيه إتمام ما فاته، وكانت المرأة لا بد أن يصبحها زوجها أو نساء أخريات أو رجال من محارمها خلال اعتكافها فى المسجد(*).

(*) يبدو أن الأمر يتعلق بالاعتكاف خلال العشر الأواخر من رمضان، ومن ثم لا نعلم أصل تسمية الاعتكاف بالتواسع. (المترجم)

وكان من الشائع أيضا بين الموريسكيين صيام ثلاثة أيام خميس من شهر شعبان كتطوع: الخميس الأول والخميس الأوسط والخميس الأخير. وتبنى هـذه الشعيرة – كما كانوا يعتقدون – على هذه الكلمات المنسوبة إلى محمد: "شهر شعبان شهرى، فمن صام فيه ثلاثا لحبّى كان فى الجنة بجانبى كأصبعى اليد".

صيام العقوبة(١٦) :

كان هناك نوع آخر من الصيام يسمى صيام الصابرين alceberin وهو عبارة عن الامتناع عن الأكل خلال لثلاثة أيام بلياليها. وكان هذا النوع من الصيام يفرض كعقوبة على جرائم فظيعة كالوحشية. وكان من المعتقد عامة أن المعاقب إذا عاش بعد هذه الأيام الثلاثة يكون ذنبه قد غُفر، أما إذا مات فى هذه الفترة فهو "يذهب مباشرة إلى جهنم، لأنه لم يتطهر من ذنبه ولم يُغفر له".

أيام الصوم خلال السنة بالإضافة إلى رمضان(١٧) :

عند دراستنا لصوم رمضان تجاهلنا بعض التفاصيل لأننا أجّلنا ذكرها إلى الآن، وتخص هذه التفاصيل الصوم الواجب وصيام التطوع خلال العام الإسلامى كما تُعرض فى الشعائر الموريسكية وهى:

الشهر الأول: محرم، كان اليوم الثالث من هذا الشهر يوم صيام وعيد كبير، لأنه أول يوم من أيام سبعة شرع فيها النبى محمد وجوب الصوم، بالإضافة إلى رمضان. اليوم العاشر (عاشوراء) عيد مهم، ويعتقد المسلمون أن من يصومه يحصل على أجر يعادل أجر مائة ألف شهيد ممن ماتوا فى الجهاد.

الشهر الثالث: ربيع الأول، اليوم الثانى عشر من هذا الشهر وهو عيد مولد النبى محمد، كان يجب الصيام فيه.

الشهر السابع: رجب، كان من الواجب صيام اليومين الثالث، والسابع والعشرين، وكان المسلمون يصومون - من باب التطوع - أول ثلاثة أيام وثلاثة أيام في المنتصف والثلاثة أيام الأخيرة من الشهر بالإضافة إلى كل أيام الخميس في الشهر.

الشهر الثامن: شعبان، كان اليوم الخامس عشر يوم صيام كتطوع، وكان المسلمون يصومون أيضا ثلاثة أيام خميس: أول خميس ويوم الخميس الذي يأتي في منتصف الشهر وآخر يوم خميس في الشهر، بالإضافة إلى ثلاثة أيام في أول الشهر وثلاثة في وسطه وثلاثة أيام في آخر الشهر.

هوامش الحادى عشر

(١) MBN, n 4870 (Sa. Gg, 2), fol. 40.

MBCEH, n IV, fol. 138-139.

Bc en Me HE, t. V, ps. 303-305.

(٢) أى عقوبة للتعويض كما سنبين فيما بعد.

(٣) من المعتاد حتى الآن فى فاس الاحتفال باليوم الذى يبدأ الأطفال فيه صيام رمضان، مع أنه فى الحقيقة لا يلزمهم الصيام حتى سن الثامنة عشرة، ومع ذلك لا يُترك الطفل يؤدى الفريضة مع تنفيذ كل التعاليم وإنما يراعى استعداده الجسمانى، انظر:

Aubin, Le Maroc, p. 328.

(٤) MBCEH, n III, fol. 92, 96 - 97 v.

(٥) MBCEH, n III, fol. 96 v-97.

(٦) يعتبر فى حكم الكافر المسلم الذى يرافق مسيحى أو مسيحية طوال أربعين يوماً دون سبب شرعى، وهذا يؤدى إلى أنه فى العلاقات الاجتماعية يتهرب المسلم من التعامل مع المسيحى بقدر الإمكان، انظر:

MBCEH, n III, Ibidem.

(٧) MBCEH, n IV, fol. 141-142.

(٨) MIV, leg 49, exp. 1. AHN.

BC, en Me HE. t. V, ps. 308-309.

رغم أن كلمة "سحور" لغويا تشير إلى الوجبة التى يتناولها المسلم قبل الفجر فى رمضان فإنها فى المخطوطات الألخميادية التى أستعملها تشير كذلك إلى الوجبة التى تُتناول فى أول الليل، ومن هنا جاء فعل Sahorar بمعنى "أكل فى رمضان خلال الوقت المباح" انظر:

MBCEH, n IV, fol 140.

(٩) القرآن، سورة ٢، آية ١٨٣(*).

(*) (المترجم: سورة البقرة، آية ١٨٧).

(١٠) انظر الأقوال التي أنقلها فيما يلي كدليل:

عام ١٥٨٢، قضية ميغيل كايوسا، موريسكي، من بلدة ريال دى غانديا Real de Gandia "إنه في ذلك الوقت كانوا يقولون إنه صيام المسلمين، وإنهم كانوا يعملون في البلدة، وكانوا لا يأكلون طوال اليوم حتى الليل، وإنهم كانوا جميعا قبل ذلك الوقت يأكلون ويشربون ويحضرون طعاما يكفي طوال اليوم، وكانوا يأكلون في مواعيدهم مع المسيحيين القدامى، وإنهم بعد انتهاء شهر الصيام الذي يتحدثون عنه كانوا يحضرون طعاما لتناوله خلال النهار، وإنهم يأكلون في مواعيدهم مع المسيحيين القدامى"، انظر:
MIV, leg. exp. 18. AHN.

عام ١٥٩٣، قضية فرانثيسكو أثان دى ماتيت ن بلدة ماتيت Matet، شهادة ابنته خيرونيما مينغيث، من بلدة أنديا Andilla، متزوجة من خايمى مينغيث، مسيحي، خياط، من أنديا "إنه لما كان أبوها فرانثيسكو حسن دى ماتيت....... الذي يقيم في بلدة ماتيت، رأته يفعل أفعال المسلمين وهى صيام رمضان....... وفى وقت رمضان كانوا يغسلون اليدين إلى المرفقين والأرجل والفم والوجه والأنف والجسم كله ويرتدون ثيابا نظيفة ثم يقفون على حصيرة ثم يركعون وينهضون ويحنون الرأس قائلين "بسم الله العالمين الرحيم"(*) وإنهم كانوا يحثونها على الوضوء والصلاة وكانوا يجبرونها على ذلك وعلى أداء هذا الصوم وعلى أن تصوم بعض الأيام. ولما رأت أنها هزيلة قالت "أهذا يجب أن أفعله؟" وأنها كانت تأكل خفية وأنها اغتسلت ذات مرة ولما رفضت الاغتسال مرة أخرى قالت لها أمها: "إذا اغتسلت بسوء نية فلا تغتسلي "وأنها لذلك لم تغتسل مرة أخرى" انظر: MIV, leg. 48, doc. 22. AHN.

(١١) عام ١٥٧٣م، قضية لوبى غيثيرى ولقبه روبو، موريسكى من خيا دى البرازين Gea de Albarracin، شهادة ماريا ديل غيثيرى وشهرتها الحدادة Herrera، موريسكية، متزوجة ومقيمة ببلدة خيا دى البرازين: " لكى يتناولوا السحور وحتى لا يناموا لديهم في كل حى شخص يطوف على المنازل ويقرع الأبواب حتى يستيقظوا، ويقرع الباب حى يجيب (من بالداخل) ثم يمر، وهكذا يفعل كل واحد فى حيه، والأشخاص الذين يؤدون هذه المهمة يفعلون ذلك سنويا ويسمون "أصحاب الصدقة وهما شخصان" انظر: MIV, leg. 50, exp AHN . 25.

انظر أيضا صفحة ٨٦ من هذا الكتاب.

(١٢) عام ١٦٠٦، فى ملف قضية فرانثيسكو ديسكالث، مسيحى قديم من كوثينتاينا Cocentaina، يذكر أنه كان يعيش كمسلم ولم يكن يكتفى بإقامة الشعائر الإسلامية بل إنه كان يردد أغنيات إسلامية يدعو بها جيرانه إلى صيام شهر رمضان ويعزف على آلة، متنقلا من مكان إلى آخر بصحبة شخص ما، متنصر حديثا ...... كان يساعده أيضا على ترديد تلك الأغنيات فيصاحبه ومعه الدف ويذكرون محمداً فى تلك الأغنيات. وكانوا بصفة خاصة يرددون – باللغة العربية – أغنية معناها بالإسبانية " أيها الناس صوموا هذا الشهر العظيم كما تعودتم حتى تدخلوا الجنة " انظر: MIV, leg. 50, exp. 27. AHN.

(*) المؤلف: ربما كانت "رب العالمين" أو خطأ فى ذكر "الرحمن الرحيم" والجملتان جزء من السورة الأولى فى القرآن التى تُتلى فى كل صلاة.

(١٣) MBN, n 4955 (Sa. Gg. 84), fol. 149-150.
MBCEH, n III, fol. 159 v-160.

(١٤) MIV, leg. 49, exps. 1 y 27 (a. 1582 y 1583) AHN.
Bc. en Me HE. t. ps. 302-303.

(١٥) انظر صفحة ٦٩ من هذا الكتاب.

(١٦) Pr.de Francisco Hazan, Chovi el Mayor, baile y vecino de Algar (Valencia) MIV. Leg. 51. exp. 32. AHN.

(١٧) MBN, n 5306 (Sa. Gg, 85), fol 1-14.

الفصل الثانى عشر

الزكـــــاة

عرضنا حتى الآن ثلاثة أركان واجبة فى الإسلام، وهى الشهادتان والصلاة والصيام، ومن المهم أن نعرض الآن:

الزكاة azaque ووجوبها :

الزكاة هى رابع ركن من أركان الإسلام، ويجب أن تؤدى وفقا لما يملك كل مسلم من متاع، سواء عملات من الذهب والفضة وحلى أو ماشية أو ثمار. إن وجوب الزكاة عام لدرجة أنه لا يعفى منها حتى الأسرى، رغم أن هؤلاء يؤديها عنهم صاحبهم. ويبنى حكمها على ما جاء فى القرآن سورة ١٤ آية ٣٦ ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ (*). ويقول المفسرون[١] إن هذه الفقرة يجب أن تفهم بمعنى أنه فى القيامة الذى يشير إليه النص لن يتمكن المذنب من شراء أى شيء يقدمه عوضا عن تقصيره، ولن يجد أصدقاء يتوسطون من أجله بفعالية.

والشخص الفقير الذى لا يملك ما يتصدق به يمكنه – كتعويض – أن يتلو إحدى هذه التسبيحات: "سبحان الله" الحمد لله "لا إله إلا الله" "الله أكبر". ومن يتلوها يجد من الله جزاء يفوق ما يحصل عليه عندما يتصدق[٢].

(*) هى الآية ٣٠ من سورة إبراهيم. (المترجم)

أنـواع الصـدقات:

بالإضافة إلى الصدقة الواجبة (الزكاة azaque) كانت هناك صدقة أخرى تطوعية asadaca تعطى للفقراء رحمـة بهم دون أى إلزام يفرضـه الشرع . ويساهـم فى تأدية هذا الواجب الأخير كل أفراد البلد أو الجمـاعة بالشكل الأنسب طبقـا للمسـاواة والإدارة الصـالحة.

تـوزيع الـزكـاة[٣]:

كانت الأمتعة التى تجمع كزكاة من المسلمين فى الممالك المسيحية تحفظ عند المسلمين الأكثر تقوى. وكان الملك أو أحد القادة يكلفهم بتولى شئونها. ويبدو أن هذا النظام الإدارى كان سـارى المفعول بين الموريسكيين فى الأماكن والأزمنة التى كانوا يتمتعون فيها بنوع من الاستقلال . ومن الصعب فى النواحى الأخرى أن نتحدث عن قاعدة عامة فى هذا الشأن، إذ أنه فى كثير من الأحيان كانت أماكن (تجمعات) الموريسكيين توقع – لتحقيق هذه الأهداف الاقتصادية – معاهدات خاصة مع الملك أو مع السادة الذى يتبعهم الموريسكيون، بل إن هذه المعاهدات كانت تخضع لتعديلات مستمرة. كانت أموال الزكاة المجموعة تصرف فى أمرين: الأول مصروفات الملك وحاشيته أو لصالح القادة أو رجال القضاة والفقهاء والمؤذنين أو لبناء المساجد أو لحفر الآبار أو لتحرير الأسرى وبناء المدارس أو كرواتب للمدرسين الذين يعملون فيها.

والجزء الثانى من الزكاة وهو المخصص للفقراء كان يجب توزيعه على المسلمين المحتاجين الذين يُعـرف عنهم أنهم يواظبـون على أداء الصـلوات الخمس اليومية . كان من المحظور تسليمها لفقراء يهود أو مسيحيين(*) أو وثنيين، ولم يكن من الممكن دفع الزكاة للأب أو للأم أو للزوجة أو للأبناء. وكان السيد لا يدفعها إلى الأسرى الذين

(*) من المعلوم أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أعطى فقراء أهل الكتاب من بيت مال المسلمين. (المترجم)

بحوزته أو للأسير الذى يدفع الفدية على أقساط، ولا إلى الخدم الأسرى، ولا إلى الأسيرة التى أنجب منها سيدها أولادا حتى لو كانوا مسلمين. أما الصدقة التطوعية فكان يمكن توزيعها بحرية، حتى على الأقارب الفقراء.

قيمة الزكاة:

رغم أن قيمة الزكاة فى الإسلام تتناسب - كما أشرنا - مع المتاع الذى يملكه الشخص أو مع كمية الثمار التى يجنيها أو مع راتبه عن مهنته، فإن الشائع بين المسلمين المقيمين فى الممالك الإسبانية المسيحية كان أداء هذا الواجب الدينى دفعة واحدة وبشكل جماعى وبكميات كبيرة . وهكذا كان يحدد لكل بلد قيمة الضريبة. ولما كانت الضريبة ذات أصل إسلامى فى البداية، فقد تحولت فيما بعد إلى ضريبة مدنية تصرف إلى احتياجات الملك. وكانت هذه الضريبة تُفرض على الماشية، وكانت تقدر فى كل بلد بنسبة عدد الرءوس ولا تتغير كل عام، وإنما كانت لها صفة الاستمرارية(٤).

ومن وجهة النظر الدينية فقد كانت قيمة الزكاة عامة تشكل نسبة ٢,٥٪ وتفرض هذه النسبة على أنواع الثروة بالشكل الذى سنفصله فيما بعد.

زكاة العملات الذهبية والفضية(٥)

كان واجب الزكاة الدينى فى هذا الشأن يؤدًى على النحو التالى: كان من الواجب حساب العملات الذهبية والفضية فإذا كان مجموعهما عشر عملات ذهبية ومائة درهم فضة كان من المفروض أن تؤدى الزكاة، وهى ربع العشر من الذهب ومن الفضة.

وإذا كان المجموع يزيد عن الرقم المشار إليه كانت الزكاة تؤدى بواقع عملة ذهبية عن كل أربعين عملة من الذهب، وعملة فضية عن كل أربعين عملة من الفضة. أما من ليس عنده سوى عملات فضية تزيد عن مائتى درهم فيجب أن يؤدى خمسة دراهم، وما قل عن ذلك فلا تجب فيه الزكاة. ومن ليس عنده إلا الذهب يدفع عنه نصف

عملة عن كل عشرين عملة. ومن عنده تسع عشرة عملة ذهبية وعشرة دراهم فضة كان يدفع الزكاة عن الفضة فقط. وما قل عن ذلك، حتى لو كان بنصف درهم فضة، فلا تجب فيه الزكاة. وبنفس الطريقة كان من يملك مائة وتسعين درهما "وزنا" وعملة ذهبية يؤدى الزكاة، ومن عنده أقل من ذلك - حتى لو بنصف درهم عن الكمية المشار إليها - لا تجب عليه الزكاة.

زكاة الحلى[٦] :

كانت تعتبر من الحلى - من حيث الزكاة - كراسى الخيل واللجام المحلى بالذهب أو الفضة والمهماز والرِكاب والأدوات الذهبية أو الفضية. وكانت كل هذه الأشياء تعتبر زائدة عن الحاجة ومحرمة على المسلمين بمقتضى الشرع . وكان يجب وزنها ودفع الزكاة عنها بواقع ربع العشر أى ٢,٥٪.

زكاة الماشية[٧] :

كانت الزكاة عن الماشية تجب إذا زاد عددها عن أربعين رأسا، ومضى عليها عام فى ملك صاحبها. ويندرج فى العدد الماشية الصغيرة والكبيرة، الذكور والإناث، الماعز والنعاج. وكانت الزكاة تجب إذا بلغ عدد الماشية عشرين ثم ولدت فبلغ عددها أربعين. فى هذه الحالة كانت تدفع رأس ماشية وتسلم حية إلى الفقراء، فلم يكن مسموحا ذبحها وتسليم لحمها. وإذا بلغ عدد الماشية أربع عشرة وولدت كل منها خروفين حينئذ تجب الزكاة بواقع رأس كبيرة. ولم يكن من الممكن دفع خروف كزكاة، وإذا بلغ عدد الماشية مائة وعشرين رأسا أو أكثر يؤدى عنها رأسان، وعن المائتين أو ما يزيد يؤدى ثلاثة رءوس وإذا بلغ عدد الماشية أربعمائة رأس يؤدى عنها أربعة. وإذا بلغ عدد الماشية أربعمائة أو أزيد تعطى رأس عن كل مائة.

زكــاة الإبــل[٨] :

رغم أنه من الناحية العملية لم يكن من الممكن تطبيق نظام زكاة الإبل على الموريسكيين – فلم يثبت امتلاكهم لهذه الحيوانات – فإننى لا أعتقد أنه من غير المناسب تحديد هذه النظام إذ أنه يشكل جزءاً من المذهب الإسلامى فى الزكاة . كانت التعاليم الموريسكية تطابق التعاليم المعمول بها فى آسيا وإفريقيا، حيث كان الجمل حيوانا أليفا. نورد هذه التوضـيح لكى نفـهم أن التـعـاليم الموريسكيـة فى هذا الشـأن لـم تكن لهـا أهـمـيـة إلا كمضمون مذهبى، لا كدليل أكيد على واقع تاريخى يشار إليه. وكانت زكاة الإبل تجب على من يملك خمسة، أى أن من عنده جمل أو جمـلان أو ثلاثة أو أربعة كان يعفى من الزكاة عنها. والجدول التالى يوضح قيمة الزكاة الواجبة عن عدد الإبل:

عدد الإبـل	الزكاة الواجبة عنها
من ٥ إلى ٩	جمل واحد
من ١٠ إلى ١٤	جمــلان
من ١٥ إلى ١٩	ثــلاثـة
من ٢٠ إلى ٢٤	أربعــة
من ٢٥ إلى ٣٥	ناقة لبون عمرها عام أو عامان إذا لم تكن هناك ناقة عمرها عام.
من ٣٦ إلى ٤٥	جمل عمره عامان.
من ٤٦ إلى ٦٠	جمل عمره ثلاثة أعوام
من ٦١ إلى ٧٥	جمل عمره أربعة أعوام
من ٧٦ إلى ٩٠	جملان عمر كل منهما عامان

من ٩١ إلى ١٢٠	جملان عمر كل منهما ثلاثة أعوام
من ١٢١ إلى ١٣٠	جملان عمر كل منهما ثلاثة أعوام[٩]
من ١٣١ إلى ١٣٩	ثلاثة جمال عمر كل منهما عامان وجمل عمره ثلاثة أعوام
من ١٤٠ إلى ١٤٩	جملان عمر كل منهما ثلاثة أعوام وجمل عمره عامان
من ١٥٠ إلى ١٥٩	ثلاثة أجمال عمر كل منهما ثلاثة أعوام
من ١٦٠ إلى ١٦٩	أربعة جمال عمر كل منهما عامان
من ١٧٠ إلى ١٧٩	ثلاثة جمال عمر كل منها عامان وجمل عمره ثلاثة أعوام
من ١٨٠ إلى ١٩٩	جملان عمر كل منها ثلاثة أعوام وجملان عمر كل منها عامان.
من ٢٠٠	أربعة جمال عمر كل منها ثلاثة أعوام، أو خمسة جمال عمر كل منها عامان، طبقا لاختبار دافع الزكاة.

وما زاد على المائتى جمل كان يؤدى عنها جمل عمره ثلاثة أعوام عن كل خمسين جملا، وجمل عمره عامان عن كل أربعين.

زكاة الأبقار[١٠]:

عندما كان عدد الأبقار التى يملكها الموريسكى - الكبيرة والصغيرة، والإناث والذكور بما فيها المخصصة للحرث - يبلغ مجموعها ثلاثين كان عليه أن يؤدى زكاتها وهى عبارة عن عجل، وإذا زاد عدد الأبقار عن ٣٠ وقل عن ٤١ كان عليه أن يدفع بقرة عمرها أربعة أعوام. وما زاد على ذلك "حتى لو وصل العدد إلى عشرة آلاف" كان يدفع عنه عجلا عن كل ثلاثين بقرة، وبقرة عمرها أربعة أعوام عن كل أربعين بقرة.

زكـاة الثمـار[١١] :

تجب زكاة الثمار إذا زادت كميتها عن خمسة أحمال[١٢]، ويدفع عنها العشر فى البلح والعنب والزيتون والثمار المزروعة بطريق الرى. ويجب أن تقدر الثمار عندما يبدأ نضجها، ويجب أن يقوم بذلك مقدّرون صحت ضمائرهم، فيحسبون الثمار المخصصة لكى تكون زبيبا، أى التى لم تتحول إلى خمر أو زيت... إلخ. وإذا كانت الثمار غير المخصصة للزبيب تصل كميتها إلى خمسة أحمال تحسب قيمة عشرها وتدفع كزكاة. والزيتون المخصص لاستخراج الزيت يُدفع عنه العشر زيتا. والزيتون المخصص للزبيب يدفع عشر قيمته. وإذا كانت الثمار تخرج فى أرض جافة أو لا تروى باليد تكون زكاتها نصف العشر. وهناك ثمار كانت تعفى من الزكاة كما سنذكر فيما بعد.

زكاة الأخباز أو الحبوب[١٣] :

كلمة أخباز panes فى المخطوطات الألخميادية تعنى كل أنواع الحبوب والبقول التى يمكن أن تستخدم كغذاء للإنسان أو للحيوان. وزكاة " الأخباز" كانت تجب عندما تبلغ الكمية خمسة أحمال. وكان القمح والشعير والسلت يعتبرون نوعا واحدا فيما يخص الزكاة، أى أنه إذا بلغت كمية هذه الأصناف الثلاثة خمسة أحمال أو أزيد تؤدى عنها الزكاة وهى العشر من كل نوع.

أما بالنسبة للدخن والذرة فكان يُحسب كل صنف على حده بحيث يدفع العشر عن كل منها إذا بلغ النصاب المذكور. وكانت البقول تعتبر نوعا واحدا بالنسبة للزكاة، وكان يُدفع عنها العشر إذا بلغت كميتها خمسة أحمال.

زكـاة الخـازن[١٤] :

كانت كلمة الخازن recardero فى المخطوطات الألخميادية تشير إلى من يجمع مواد معينة ويحفظها فى حوزته إلى أن تحين مواعيد الأسـواق والاحتفـالات عادة. ولم يكن على "الخازن" دفع الزكاة إلا إذا مر عام على امتلاكه للمحاصيل التى اشتراها،

إذ أن الزكاة الواجبة على الثمار قد دفعها البائع . وإذا مر العام يؤدى الخازن الزكاة طبقا لما ذكرنا[١٥] إذا بلغت مبيعاته عشرين عمله ذهبية أو مائتى درهم من وزن الفضة. وإذا زادت مبيعاته عن ذلك قليلا أو كثيرا يجب عليه أن يؤدى ربع العشر عن كل ريال من الذهب أو كل درهم فضة. لم يكن على الخازن تأدية الزكاة عن الدين حتى يُسدَّد إليه. لم يكن من الواجب عليه كذلك أن يدفع زكاة أعوام متتالية عن المواد التى يحفظها فى حوزته حتى لو استمرت معه عشرين عاما أو أزيد، إذ أنه قد دفع الزكاة عنها وقت تخزينها.

زكاة البائع[١٦] :

لتقدير قيمة الزكاة الواجبة على البائع المتجول يجب أن يحسب البائع خلال شهر فى العام كمية البضائع التى يتاجر فيها ويضيف إليها النقود التى حصل عليها من البيع والتى فى حوزته . ويجب أن يضيف إلى ناتج الجمع أيضا المبالغ المستحقة السداد عند أشخاص أثرياء يغلب على ظنه أنهم سيدفعونها، أما إذا كانت المبالغ عند فقراء فلا تدفع الزكاة عنها إلا بعد السداد. إذا بلغ ناتج الجمع مائتى درهم من الفضة أو عشرين عملة من الذهب يجب على البائع أن يؤدى الزكاة عن هذه المبالغ[١٧] وإذا زاد عن ذلك يجب أن يدفع ربع العشر عنها.

الإعفاء من الزكاة[١٨] :

كان يعفى من دفع الزكاة عن الحالات التالية:

(أ) الأسرى والخدم.

(ب) الخيل والبغال والحمير.

(ج) حلى الزينة كاللؤلؤ والسيوف التى بها حلية، والفضة التى تستخدم فى غلاف الكتاب، وخاتم الرجل، والجواهر من الذهب أو الفضة التى فى حوزة شخص يصلحها

حتى لو كانت تجب عنها الزكاة. ومع ذلك كان من الواجب تأدية الزكاة عن الجواهر من الذهب أو الفضة التى اشتراها صاحبها لكى يتهرب من تأدية الزكاة عن العملات الذهبية أو الفضية. كانت هذه الحلى توزن كل عام ويدفع عنها ربع العشر.

(د) الزعفران (المزروع أو فى المناطق الخلوية) والكتان والقطن والحرير.

(هـ) ثمار البساتين كالتين والرمان والخوخ والكمثرى والتفاح والبرقوق والشمام والفلفل.

(و) العسل.

إعفاءات أخرى[١٩] :

كان الأسرى طوال وجودهم فى الأسر يعفون من تأدية الزكاة عن الزروع والكرم والماشية والذهب والفضة التى فى حوزتهم وعن البيع أو الشراء الذى يقومون به. وعندما يحصل الأسير على حريته كان يُعفى من الزكاة لمدة عام. وبعد مرور العام كان يدفع الزكاة عن الأشياء التى فى حوزته والتى يجب دفع الزكاة عنها. بل إنه خلال العام الأول كان عليه أن يؤدى الزكاة عن الأشياء التى فى حوزته والتى يجب دفع الزكاة عنها . بل إنه خلال العام الأول كان عليه أن يؤدى زكاة الحبوب والثمار إذا كان قد حصل على حريته قبل أن تنضج الحبوب والثمار وقُدرت قيمتها بخمسة أحمال أو أكثر طبقا لما هو معمول به. أما إذا أفرج عن الأسير بعد الحصاد أو بعد نضج المحاصيل فلا يدفع الزكاة.

وكان يعفى من الزكاة الرجل الحر الذى يترك عند موته زرعا لم يحصد أو ثمارا لم تنضج. كانت الزكاة فى هذه الحالة تنتقل إلى الورثة، كلٌ بمفرده، إذا بلغ نصيب الواحد منهم قدرا تدفع عنه الزكاة. وإذا مات الحر بعد أن حُصد الزرع أو نضجت الثمار فيجب تأدية الزكاة عنه أولا إذا بلغت النصب ثم يوزع الباقى على الورثة. كان المسيحى بالنسبة للزكاة يعامل كالأسير فكما أن الأسير لا يؤدى الزكاة

إلا بعد حصوله على حريته كذلك كان المسيحي لا يدفع الزكاة ما لم يدخل في الإسلام، وفي هذه الحالة كان متاع المسيحي يخضع للزكاة بنفس طريقة الأسير، أي بعد مرور عام على إسلامه.

زكـاة العيـد[٢٠]:

هي الزكاة التي يدفعها المسلم - حرا أم عبدا، رجلا أم امرأة - عند انتهاء شهر رمضان وبدء العيد، وكانت عبارة عن مكيال من القمح أو الشعير أو البلح، طبقا لما يُستهلك عادة في كل إقليم. كان هذا الواجب محتما لدرجة أن المسلم كان يدفعها عن كل الأشخاص الذين تجب عليه إعالتهم ولا يستثنى منه من ولد أو مات في اليوم الذي تجب فيه تأدية الزكاة وهو يوم عيد الفطر alfitra وهو أول أيام عيد رمضان أو العيد الصغير الذي يوافق أول أيام شهر شوال. وكان واجب هذه الزكاة لا يسقط حتى بعد مرور عدة سنوات على عدم تأديته.

وكان الوقت المناسب لتأدية الزكاة في هذا اليوم هو بين الفجر وحتى قبيل غروب الشمس وهو وقت الإفطار(*). ومع ذلك ينصح علماء المسلمين بتأدية الزكاة في الفجر قبل الصلاة التي كان الموريسكيون يؤدونها في المصلى في ذلك اليوم. وطبقا لما ذكرنا، كان الزوج يؤدي الزكاة عن زوجته، حتى لو كانت ثرية، كما يؤديها عن أبيه وأمه وأبنائه الذكور الصغار وعن بناته حتى يتزوجن. وكان رأس العائلة يدفع الزكاة أيضا عن الأسرى الذين في حوزته، لكنه لا يدفعها عن أسرى أسراه، ولا عن الشخص المستأجر للخدمة (ولا عن الشخص الملزم بخدمته) ولا عن الأيتام الذي يكفلهم ولا عن أسرى زوجته إلا إذا كانوا يخدمونه، فإذا كانوا يخدمون الزوجة فقط حينئذ تجب زكاتهم على الزوجة.

(*) لاحظ الخلط بين عيد الفطر ورمضان. ذكر المؤلف أن زكاة العيد تؤدى في أول شوال ثم يتحدث بعد ذلك عن وقت الإفطار. من المعلوم أن زكاة العيد يمكن تأديتها خلال شهر رمضان أو يوم العيد قبل صلاة العيد. من المعلوم كذلك أنه يحرم صيام أول أيام العيد. (المترجم)

الصدقة التطوعية[٢١] :

ذكرنا أن الزكاة يمكن أن تكون واجبة أو تطوعية. ومن الواضح أن هذا النوع الأخير يمكن أن يؤدى بلا قيود من حيث الكمية أو الوقت. ومع ذلك كانت الأعياد هى الأوقات الأكثر مناسبة لذلك. كانت هذه الزكاة التطوعية – التى تسمى صدقة asadaca – تدعوا إليها خطب شائعة فى تعاليم الموريسكيين. وفى هذه الخطب يشار إلى فضل المسلم الذى يتصدق من باب التقوى فقط. وبعض هذه الخطب توجد فى روايات قصصية أو أمثلة تؤثر على خيال العامة. ونورد فيما يلى إحدى هذه الروايات، فقد رأينا أنها تعكس بحيوية القيمة الروحية للصدقة التطوعية عند الموريسكيين ولأنها – لشكلها الأدبى البرئ الطفولى – لها أهمية ما:

"كان اليوم يوم عرفة (٩ من ذى الحجة) عندما ذهب مسلم صائم لرؤية الفقيه وقال له: أيها الفقيه، غدا عيد الأضحى ولا أجد ما آكله. دلنى على من يقضى حاجتى جزاك الله خيرا. وقال له الفقيه اذهب إلى العمدة وقل له إننى أرسلتك إليه لكى يقضى حاجتك. ذهب المسلم إلى بيت العمدة وكان بالباب خادم دخل وقال لسيده إن رجلا بالباب يريد أن يتحدث معه. أدخلوه وقص عليهم سبب زيارته وحاجته ومن أرسله فقال العمدة لخدمه أن يصرفوه فليس بمقدره أن يعطيه شيئا. انصرف الرجل حزينا وأتى الفقيه وقص عليه ما حدث. قال الفقيه "اذهب إلى بيت فلان المسيحى وقل له إننى أرسلتك لكى يقضى حاجتك". بدأ الرجل فى البكاء وقال "أيها الفقيه، وهى يحل لى أن أتقبل (الصدقة) من المسيحى؟. قال الفقيه "نعم. اذهب لرؤيته" وذهب إلى المسيحى وقص عليه سبب زيارته ومن أرسله وذكر له حاجته، قال له المسيحى "انتظر" وأمر أبناءه بأن يُخرجوا له عشر مكاييل من الدقيق وإن يعطوه خروفا فأعطوه، ثم أدخل يده فى جيبه وأعطاه عملتين من الذهب وقال له "خذ هذه الصدقة فى حب الله وانصرف فى سلام، وعد إلى بعد عام وسأعطيك مثل ما أعطيتك وهكذا كل عام، طالما أنا على قيد الحياة فى وقت العيد. وعندما أموت سأكتب فى وصيتى أن يعطيك أبنائى نفس الشىء فى حب الله طالما أنت على قيد الحياة".

انصرف الرجل مسرورا إلى بيته ثم ذهب إلى الفقيه، وقص عليه ما حدث وذكر له وعد المسيحى له فَسُرَّ الفقيه كثيراً. فى تلك الليلة رأى العمدة فى المنام قصرا من الذهب والأحجار الكريمة وبه كثيرات من الحور العين ممن يسكنَّ الجنة، ورأى كذلك قصرا مليئا بالنار وبه الكثير من العذاب والعقاب. وقال له الملك "هذا القصر الجميل كان الله يحجزه لك (لتسكنه) بعد موتك والآن قد أعطاه للمسيحى، فقد تصدق أمس على فلان بينما لم تشأ أنت قضاء حاجته، وذلك القصر من النار والعذاب كان له وهو الآن محجوز لك". استيقظ العمدة حزينا كئيبا، وأرسل يطلب المسيحى وقال له "يا فلان ماذا فعلت أمس يا فلان؟". قال: "لم أفعل شيئا" فقال: "بحق حياتك لا تكتم عنى الحقيقة"، وحينئذ ذكر له الصدقة التى أعطاها لذلك الرجل.

قال العمدة: كم تريد ثمنا لهذه الصدقة؟

قال: لا أريد بيعها.

قال العمدة: هل تريد نصف مالى ثمنا لها؟

قال: لا

قال العمدة: هل تريد مالى كله؟

قال: لا

بل إن العمدة قال: هل تريد متاعى كله وأبنائى وأنا نفسى لكى تبيعنا فى السوق وتعطينى صدقتك؟.

أجاب: لا أنوى بيعها بأى ثمن فقد دفعتُها فى حب الله. فانطلقت من العمدة صرخة و مات وذهب إلى نار الجحيم. ذهب المسيحى إلى الفقيه وقص عليه ما حدث مع العمدة فطلب منه الفقيه أن يسلم. قال المسيحى "أعطنى يدك" وأسلم واعتاد الوضوء

والطهارة وأداء الصلوات الواجبة. انصرف المسيحى إلى بيتــه، وقال لزوجته وأبنائه إننى أودعكم فلا يمكننى الآن أن أعيش معكم(*).

قالت له الزوجة: لماذا لا تستطيع العيش معنا؟

فقال لها: "لأننى أسلمت" وروى لها ما حدث.

قال الزوجة: "أعطنى يدك".

فأعطاها لها وقالت: أقسم لك بالله، إننى أعيش معك منذ أربعين عاما، وإننى كنت دائمـا مـسلمـة دون أن تلاحظ أنت ذلك. سـر الزوج بذلك، وأسلم كـل من فى البـيت. رحمهم الله ورحمنا ورحم أمة محمد أجمعين آمين.

(*) لاحظ خطا هذه الفكرة عن الإسلام، فمن المعلوم أن للزوج المسلم شرعا أن يواصل الحياة مع زوجته المسيحية. (المترجم)

هوامش الثانى عشر

(١) Kasim. Le Koran.p.201.

(٢) MBCEH.nV III. Fol.189.

(٣) MBCEH.nXII.fol.203.
Bc.en el Me HE. t. V. p 320.

(٤) Bofaruli:Col.doc.in Arch.Cor.Ar.t.XXXIX.ps.120 y 1222.

(٥) MBCEH,nXII.fol.201.

(٦) MBCEH,nXII,fol.205.

(٧) MBCEH.nXII.fol 199 200v.

(٨) MCG,T-19.ps.260-267.

(٩) هذا طبقا لرأى بعض الكتاب. ويرى آخرون أن جامع الزكاة يمكن أن يختار بين جملين عمر كل منهما ثلاث سنوات أو ثلاثة جمال عمر كل منها سنتان.

(١٠) MBCEH.n XII.fol.200v-201.

(١١) MBCEH.n XII.fol. v 199.

(١٢) كلمة الوسق alguisque التى تظهر فى المخطوطات تعنى لغويا "حمولة جمل"، وقد استمر استعمالها إلى زمن لم تكن تشير فيه إلى المعنى الأول فقط، وإنما تشير أيضا إلى حمولة بقرة أو بغل أو أى حيوان أخر من الحيوانات المستخدمة فى النقل. والحمولة أو الوسق كانت تتكون من ٦٠ مكيالا وكل مكيال عبارة عن أربعة أمداد almudes من أمداد النبى وكل منها يساوى ٢٠ مكيالا من المكاييل المستخدمة فى أراغون. كانت الحمولة عبارة عن ألف ومائتين من الإمداد.

(١٣) MBCEH,nXII,fol.197-198.

(١٤) MBCEH,nXII,fol.202-203.

(١٥) أى ٥ ,٢٪ انظر صفحة ١٦٨ من هذا الكتاب.

(١٦) MBCEH,nXII,fol.203-204v.

(١٧) أى ٥ ,٢٪ انظر صفحة ١٦٨ من هذا الكتاب.

(١٨) MBCEH,n'XII,fol.204v-205.

MBCEH,n'XII,fol.207. (١٩)

MBCEH,n'XII,fol.205v-206, nIII, fol. 102v. (٢٠)
Bc, en el Me HE, t .V, p. 319.

MBCEH,n' III, fol. 95-96 (٢١)

الفصل الثالث عشر

الحـــج

الحـج وشـعـائره[1] :

الحج إلى مكة هو خـامس وآخـر أركـان الدين الإسـلامى. يجب مـرة واحـدة فى العـمر على كل مسلم بالغ يتمكن من السفر مـشـيا أو على فـرس[2]. إن وجوب هذه الفريضـة ذو أسـاس إلهى بنص الآيتين ٨٩-٩٠ من السـورة من السـورة الثـالثـة من القرآن ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾(*) وفى السورة الثانية، الآية ١٩١ ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ ﴾[3](**). أمـا بالنسبة للظـروف التى تواكب أداء الفريضـــة فلا يأتى وجوبها فى القرآن، وإنما فى السنة.

وطبقا للسنة فـإن كـان مسلم يسـتـعد للحج إلى مكـة يجب أن يتـزود بأطعمـة تحلها الشريعة الإسلامية ويمكن أن يأكل منها بحرية حتى يصل إلى مكان يسـمى الحليفة alholaifa[4]. عند الوصول إلى ذلك المكان يجب على المسلم أن يتـوضـأ، وأن يرتدى لباس الحج، وأن يؤدى صلاة واجبة، إذا كان وقت صلاة، أو صلاة تطوعية إذا لم

(*) الآيتان ٩٦-٩٧ من سورة آل عمران. (المترجم)

(**) الآية ١٩٦ من سورة البقرة. (المترجم)

يكن وقت صلاة، ثم ينوى زيارة مكة حتى يؤدى الفرض فيقول بصوت مرتفع "لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك". ويسمى هذا التسبيح التلبية talbiya، لأنه يبدأ بكلمة "لبيك" labayca التى تعنى ها أنذا "ويطلق لفظ الإحرام alihram على مجموعة الشعائر المذكورة التى يبدأ بها الحاج حجه، كما يطلق هذا الاسم أيضا على اللباس الذى يرتديه.

بعد ترديد التسبيح المذكور يواصل الحاج رحلته حتى يصل إلى مكة، وقبل أن يدخلها يجب أن يتوضأ. وكان من المستحسن أن يدخل المدينة من أعلى مرتفع، فيجمع بين هذه التضحية والتضحيات التى يقدمها طوال الرحلة. بعد ذلك يطوف سبع مرات متجها إلى اليسار حول الكعبة الشريفة بمكة. فى المرات الثلاث الأولى يكون الطواف سريعا، وتكون الأربع مرات الأخيرة بخطوة عادية. ويقبِّل الحجر الأسود(٥) أو يلمسه على الأقل أو يصدر إشارة اللمس ثم يضع يده على شفتيه عند مروره به، كما يمكنه أن يقبِّل الباب أو يلمسه.

بعد انتهاء الطواف حول الكعبة يؤدى الحاج صلاة من ركعتين ثم يسعى - سبع مرات - بين الصفا والمروة الواقعين فى نطاق مدينة مكة وبينهما ٥٠٠ متر. ويعتقد المسلمون أن هاجر أم إسماعيل قد سارت هذه المسافة تدعو الله أن ينقذ حياة ابنها عندما كان أبوه إبراهيم سيضحى به. فى اليوم السابع من ذى الحجة يحضر الحجاج خطبة تشرح لهم فيها الشعائر والاحتفالات المعقدة التى يجب أن يؤدوها فى بقية الأيام. ويسمى اليوم الثامن يوم التروية، لأن الحجاج يشربون من ماء بئر زمزم. بعد ذلك يتوجهون إلى وادى منى فيسهرون حتى فجر اليوم التالى.

ويسمى اليوم التاسع من ذى الحجة بيوم عرفة، لأنه من المقرر فيه زيارة جبل بهذا الاسم قريب من المدينة(٦). يسير الحجاج عند طلوع الشمس وفى المكان المذكور يؤدون صلاتى الظهر والعصر معًا. ثم يتوقفون عند المحطات أو الأماكن التى لها ذكرى دينية معينة، ثم يولون وجوههم شطر الكعبة، ويدعون الله حتى غروب الشمس. وفى هذا الوقت يتوجهون بسرعة إلى المزدلفة، ويصلون فى مسجدها صلاتى المغرب والعشاء. وفى هذا المكان الواقع بين عرفة ووادى منى يمضى الحجاج الليلة مصلين ومسبحين.

وفى اليوم التالى - العاشر من ذى الحجة - والمسمى يوم التضحية، يؤدى الحجاج صلاة الصبح فى وقت مناسب ويتوقفون عند محطة المسجد الحرام، فيدعون الله حتى قبيل طلوع الشمس ثم يتوجهون بعد ذلك إلى جمرات العقبة حيث يرمون سبع جمرات متتالية يكون كل مسلم قد حملها معه، واحتفظ بها خلال الليلة السابقة التى أمضاها ساهرا فى "المسجد الحرام". وعند رمى كل حجر يجب أن يقول "الله أكبر". بعد ذلك يعود الحاج إلى وادى منى حيث يذبح الحيوان الذى يقدمه كأضحية. ولهذا الغرض يسلخ الحيوان وينزع الصوف أو الشعر من على الرأس ويأكل الحاج من لحم الأضحية ويوزع الباقى على الفقراء. ومنذ تلك اللحظة يحل للحاج استعمال الأشياء المحرمة خلال الحج عدا الروائح العطرية ومعاشرة الزوجة. بعد ذلك يزور الحاج الكعبة مرة أخرى ويطوف حولها سبعا كالطواف الأول. ويسمى الموريسكيون هذا الطواف الأخير "طواف التفريق" وكان هذا الطواف أمراً جوهرياً بالنسبة لتأدية فريضة الحج ومن تركه سهوا أو جهلا يجب أن يعود من بلده مرة أخرى. بعد ذلك تؤدى صلاة من ركعتين.

والحاج الذى نسى السعى بين الصفا والمروة قبل أن يدخل مكة عليه أن يسعى الآن. ثم يعود الجميع إلى وادى منى حيث يقضى الحاج ثلاثة أيام يرمى كل يوم قبل صلاة الظهر إحدى وعشرين جمرة قائلا "الله أكبر" عند رمى كل واحدة. وإذا قدم الحاج أو أخر زيارته لمنى يومين لا يأثم. منذ تلك اللحظة يحل للحاج استعمال العطور والمعاشرة الزوجية . كان البقاء فى مكة يومين أو ثلاثة بعد انتهاء الشعائر أمرا يتوقف على اختيار الحاج لكن فريضة الحج لا تنتهى إلا بوداع الكعبة كختام لتأدية الفريضة(٧).

هوامش الثالث عشر

(١) MBCEH,nXII,fol.213-216.

Bc,en el Me HE, t .V, p, 321.

(٢) تؤدى فريضة الحج حتى الآن فى المغرب، ليس من قبل الرجال فقط، وإنما من قبل النساء أيضا، فهن يذهبن إلى الحج يرفقه آبائهن أو أخوتهن أو محارمهن من الرجال. وإذا كانت المرأة متزوجة ولا يريد زوجها أن يرافقها فى الحج فيمكنها الطلاق والزواج من رجل آخر مستعد لأن يرافقها إلى مكة. وشعائر الحج – بصفة أساسية – واحدة بالنسبة للرجال والنساء: انظر:

Dumas, Le Femme arabe, RAfr, n 284, ps. 114 y sigs (Paris, 1912).

(٣) لا يذكر فى النصوص الألخميادية أن الموريسكيين الذين لم يكن بإمكانهم الحج كان عليهم التصدق أم لا. وفى كتاب Viajes de Ali Bey el Abbasi (t.i.p. 148) يذكر أنه كان من المعتاد فى شمال إفريقيا أن ينيب من لا يستطيع تأدية الحج بنفسه شخصا آخر يؤدى الفريضة عنه.

(٤) قرية على مسافة ستة أو سبعة أميال من المدينة فى الجزيرة العربية.

(٥) هو – كما فى التراث العربى – حجر شفاف نزل به الملك جبريل من السماء وسلمه إلى إبراهيم وإنه – الحجر – لما قبّلته إحدى بنات آدم، وكانت آثمة، اكتسب اللون الأسود وفقد شفافيته.

(٦) هكذا كان يسمى "جبل التعرف" لأنه – طبقا للتراث الإسلامى – تقابل فى سفحه آدم وحواء بعد أن كانا تائهين ومنفصلين عن بعضهما وقتا طويلا بعد أن أذنبا فى الجنة الأرضية.

(٧) رغم أنه ليس من الشائع فى المخطوطات الألخميادية الإشارة إلى رحلات قام بها الموريسكيون لتأدية الحج فإن هناك دليلا أكيدا على ذلك فى كتاب Coplas del Peregrino, de Puey Moncon وهو موجود فى Codice n XIII (fol.179-219V) de los Ms. ar. y alj. de la Bibl. de la Junta (p.75).

وهذه الأغنيات قد نشرها ماريانو دى بانو أى روانا فى كتاب:

Coleccion de estudios arabes, t. I (Zaragoza, 1897)

ونوصى القراء الذين يبحثون عن مزيد من التفاصيل عن هذه الفريضة الإسلامية بقراءة هذا الكتاب الذى يشير إلى أهم الأعمال الأدبية المتعلقة بالحج إلى مكة.

الفصل الرابع عشر

شعائر خاصة بالمواليد

الفضض[1] :

كان الاحتفال المعروف باسم الفضض fadas عبارة عن وهبة الطفل حديث الولادة لله حتى يكون تحت رعايته وعنايته. وكان الاحتفال يتضمن أن يعلن والد الطفل الشهادة الإسلامية فى أذن ابنه فى الوقت الذى يطلق عليه الاسم الذى سيسمى به طوال حياته(*). يوازى هذا الاحتفال إذن التعميد فى المسيحية.

وكانت هذه الشعيرة ذات صفة إجبارية وذات أصل تقليدى، وكانت تتم بعد مرور سبعة أيام على الولادة (ولا يحسب يوم الولادة نفسه). وكان يصاحب هذا الاحتفال التضحية بحيوان مشابه للحيوان الذى يضحًى به فى عيد الأضحى، وكان الحيوان يُذبح صباحا، وكان يجب الاحتراس من أن يتلوث المولود بدم الأضحية . والحيوانات المشرع التضحية بها كانت الجمال أو البقر أو الخراف أو الماعز أو الجدى . وكان يجب أن تكون الأضحية سليمة، وأن يكون عمرها سنة . وكان من المستحسن قض شعر المولود وإعطاء ما يعادل وزنه ذهبا أو فضة كصدقة. وكان من المقبول مس رأس المولود بدهن بدلا من مسها بدم الأضحية كما يفعل الوثنيون والكفار.

(*) لاحظ التشابه الكبير بين "الفضض" و "العقيقة" وربما تعود الاختلافات إلى عادات محلية أدخلها الموريسكيون. (المترجم)

وكان من الإجبارى كذلك كما يقضى التراث أن يطلق على المولود - والجنين الميت أيضا - اسم إسلامى فى المسجد. كان الموريسكيون يعتقدون أن الأجنة الموتى سيبعثون يوم القيامة وأنهم سيقولون لله "يا رب، من آباؤنا؟" وأن الله سيرد عليهم "دخلوا جنهم وهم فيها. اذهبوا أنتم إلى الجنة"، وسيعلق الأجنة قائلين "يا رب بكرمك وعلوك لن ندخل الجنة إلا مع آبائنا وأمهاتنا"، وحينئذ يأمر الله بإحضار الأب والأم فيقول لهما الجنين "ما الاسم الذى أطلقتماه علىّ؟" فيجيب الأب والأم "لم نطلق عليك اسما" فيقول الجنين: "لو أننا نسيناكم اليوم كما نسيتمونا لما أدركتكم رحمة الله". وتعكس هذه القصة الواجب الإلزامى على الموريسكى بأن يطلق اسما على الجنين.

وبعد أن ذكرنا بشكل عام الظروف والأفعال التى تصاحب الاحتفال الذى نتحدث عنه، نعرض الآن بالترتيب كل واحد من الأفعال التى يتكون منها الاحتفال. كانت هذه الأفعال هى:

(أ) إجراء عملية الوضوء والطهارة للمولود بالشكل الشرعى[٢]. يجب أن تتم العملية فى الظهر بعد أن تكون الأضحية قد ذُبحت . ويراعى ذلك بدقة لدرجة أن هذه الإجراءات كانت تشمل الحالات التالية:

إذا ماتت امرأة مسلمة متزوجة من مسيحى وهى تضع يجب أن يطهّر جسمها، لأنه كان يحمل ابن مسيحى بداخله. أما إذا كانت المرأة المتوفاة مسيحية وقد حملت من مسلم، فيجب أن يطهر بطنها فقط إذ أن الطفل لمسلم.

(ب) يلف الطفل فى قماش.

(ج) يؤذن فى أذنه اليمنى الآذان الذى يسبق كل صلاة[٣].

(د) تتلى صيغة الإقامة alicama فى أذنه اليسرى.

(هـ) تتلى على أعلى جزء من رأسه السورة الأولى من القرآن "الفاتحة" والسورة رقم ٣٦ "يس" والسورة رقم ٧٩ "القدر" والسورة رقم ١١٢ "الإخلاص" والسورة رقم ١١٣ "الفلق" والسورة رقم ١١٤ "الناس".

(و) ترديد الدعاء التالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم"، اللهم أسعد حظ هذا المولود الجديد، واجعله من الذين يذكرون اسمك من الشهداء والمتقين وعبادك التائبين، وأكرم والديه، واجعله من المختارين، وصله بالصالحين والمكرمين وبأمة النبى محمد. اللهم اكتبه فى خير أمة محمد، اللهم احفظه من الشيطان وهيئ قلبه ليكون حافظًا أمينًا للقرآن، وصله بعبادك المكرمين، واجعله عبدا تائبا يحبك، وارزقه الرزق الحلال، وثبته على الإيمان، وأبعده عن الكفر والخطأ، يا ذا الجلال والإكرام.

يا من تغفر وتحفظ، اغفر لوالديه ولكل الحاضرين، واجعلنا برحمتك من المختارين، فأنت الله رب العالمين. اللهم أسبغ رحمتك على قراء (القرآن) ومن يسمعون القراءة، وهب لهم النعم والجزاء الذى وعدت به الحافظين على التعاليم الواردة فى كتابك الكريم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

(ز) إطلاق اسم إسلامى على المولود(٤).

(ح) ترديد الأذان مرة أخرى فى أذنه اليمنى(*). خلال ذلك يردد الحاضرون اسم المولود.

(ط) يأخذ الأب المولود بين يديه (وإذا لم يستطع الوالد يقوم بذلك أقرب الأقربين) ويقول: "أيها الأخوة المسلمون المؤمنون بالله، ها أنتم شهداء يوم الدين على أننى جعلته مسلماً وأننى سميته "كذا". وهبه الله حظ المكرمين "ويجيب الحاضرون" آمين"(٥).

الختان(٦) :

لا يشير القرآن إلى هذه الشعيرة، وهناك خلاف بين فقهاء المسلمين حول ما إذا كان محمد قد أجريت له عملية الختان. ورغم كل ذلك يعتبر المسلمون هذه الشعيرة إجبارية بحكم السنة. وكان الموريسكيون الإسبان يجرون عملية الختان كشعيرة

(*) الصحيح أن يردد الأذان فى الأذن اليمنى للمولود، وأن تردد صيغة الإقامة فى أذنه اليسرى. (المترجم)

إجبارية وجزء متمم لإتباع الشريعة. وكانت العادة أن يُحتفل بهذه العملية في احتفال كبير وبتقديم مأدبة. وكان الفقهاء يقومون بذلك . وكانت هذه الشعيرة متأصلة بين الموريسكيين لدرجة أن السلطات المدنية – في محاولة للقضاء عليها – فرضت عقوبات على من يقومون بها، وأمرت القساوسة بأن ينظروا عند تعميد الطفل إلى ذكره، وأن يبلغوا السلطات إذا رأوا أن الطفل قد أجريت له عملية الختان.

ولا تشير المخطوطات الألخميادية إلى الشكل الذى كانت تتم به هذه الشعيرة، وفي بعض قضايا الموريسكيين التى نظرتها محاكم التفتيش، يشار فقط إلى أن العادة كانت ختان الأطفال بعد مرور ثمانية أيام على ولادتهم، ثم اختلفت العادة وكانت عمليات الختان تتم في سن الثامنة(٧).

هوامش الرابع عشر

(١) MBCEH,n III, fol,189,n LIII,fol,247-251.
MBN,n 5306 (Sa Gg,85), fol,61-62.
BC en el Me HE, t, V, ps, 381-382.

يتحدث الشاعر خوان رويث Arcipreste de Hita عن هذه الشعيرة كانحراف في العقائد الإسبانية خلال القرن الرابع عشر. وذلك في عمله Poema. يشير إلى ذلك منينديث بلايو في كتابه AT. P 95, Historia de Historia de los heterodoxos espa; noles، ويضيف: هكذا كان الاعتقاد في شعيرة الفضض حتى في الأمثال.

يوم ولدت أجروا لك عملية فضض فجرية.

إن فضضي الأسود لا ينفصل عني.

(٢) انظر صفحة ٦٨ من هذا الكتاب.

(٣) انظر صفحة ٨٥ من هذا الكتاب.

(٤) يشير غيرا دي لوركا في كتابه Catecheses, fol. 101 V إلى أن الموريسكيين كانوا - عندما ينادون - يرددون بلا تفرقة الاسم المسيحي الذي أطلق عليهم عند تعميدهم أو الاسم الإسلامي الذي كان يطلق عليهم قبل تحولهم الظاهري. ويضيف المؤلف: "إذا قلت هيا يا صديقي الموريسكي فالنتين قل ما هو اسمك في الكنيسة وما اسمك في البيت كان يرد - بعد أن يفرك جبهته - في الكنيسة يسمونني خوان وفي البيت اسمي حامد".

(٥) هذا الاحتفال الذي يطلق عليه تسميه Tasmia يقام حتى اليوم في القصر الكبير Alcazarquivir بالشكل التالي: بعد مرور ثمانية أيام على الولادة وفي الساعة الثامنة صباحا يجمع الأب أقاربه وأقارب زوجته وأصدقاءه وجيرانه ويذبح خروفا على الشريعة أي في اتجاه مكة، بعد أن يضع شريطا من القماش على الأرض لكي يختلط به دم الحيوان. وبعد الذبح يقدم الشاي ثم الإفطار في صحبة الموسيقى. وبعد أربعين يوما يحلق شعر المولود، وهي مهمة يؤديها أحد أفراد الأسرة من الرجال. وفي هذا اليوم يقام حفل عائلي لا يحضره من النساء إلا القريبات، ولا يغسل جسم الطفل إلا بعد مرور سنة على مولده، ولكنه - كاستثناء - يغسل جسمه مرة بعد ثمانية أيام على ولادته. انظر:

Michaux-Bellaire y Salamon, EL Qacr el Kebir, in Arch. Mar. t .II, p.73.

وفي مقاطعة Lucus المغربية، لا تكاد تمارس عـادة ذبـح الحيوان بمناسبة إطلاق اسم على المولود. وإذا كان الطفل من أسرة ثرية يذبح الأب كبشًا بعد مرور سبعة أيام على الولادة ويؤكل مع الكسكسى ويوزع على أهل الحى . وينتهى الاحتفال فى الظهر ولا تكون له أهمية الاحتفالات فى المدن الكبرى. ويختلف الاحتفال عند الفقراء، فهو يؤجل شهرا أو عدة شهور، وقد لا يقام فى بعض الأحيان. ويطلق على الطفل الاسم المتفق عليه عندما يجب تميزه عن بقية الأطفال، وعادة يسمى محمداً . انظر

Michaux-Bellaire y Salmon, Les tribus arabes de la vallée du Le KKous, en Arch. Mar., vol VI, p. 234.

ونظرا لاختلاف هذا الاحتفال اختلافا ملحوظا عن الاحتفال الذى يقام فى القصر الكبير نعرض بإيجاز كيف يمارس حاليا فى فاس: فى صباح اليوم السابع للولادة يُدعى أصدقاء أسرة المولود إلى الطعام فى التاسعة، ثم يقوم طالب taleb أو شريف jerife بذبح حيوان بنية المولود، ويردد عند الذبح كلمات "بسم الله. "هذا فضض فلان بن فلانة"، ثم يغسل جسم الطفل لأول مرة وتُحنّى قدماه ويداه ثم يوضع كحول تحت عينيه، ويلبس الطفل أزهى الملابس ويوضع بجوار أمه. وفى الوقت نفسه توضع شمعات متقدة عند رأسه. وبعد مرور أربعين يوما يمكن إخراجه من البيت ثم يقدم فى العادة إلى مولاى إدريس، وهو أحد القديسين الذى يجلهم مسلمو فاس، وتُقدم إلى القديس أضحية وتحمل إليه الشموع. وبعد مرور عام أو أكثر على الولادة يقوم الحلاق بقص شعر رأس الطفل انظر: Aubin. Le Maroc. P. 327.

يجب أن نهتم أيضا بالأسماء الأكثر شيوعا والتى تطلق على الأطفال.

"إذا كان ولد يسمى محمدا، مع أن أبويه يمكنهما عدم الاحتفاظ بهذا الاسم، وإذا كانت بنتا تسمى بأحد ثلاثة أسماء: فاطمة بنت محمد أو رقية عمته أو مارية خالته. بعد ذلك يعرف بين الأسرة باسم أحد الأصدقاء. أو باسم امرأة شهيرة، وفى تلك الحالة تقوم هذه المرأة بالواجبات والالتزامات التى تؤديها الأم الروحية عندنا.

انظر: Damas, Le Femme arabe, en la RA fr, n 284. p. 7

(٦) Miv. leg. 51. exp . 32 AHN.

Guerra, Catecheses, fol, 92v

Hughes Dict. op Islam, voz. cireumisciom. p. 57.

(٧) انظر صفحة ٩٢ من هذا الكتاب فى الملاحظات. ها هو النص المشار إليه: "إن هذا السجين - ومعه اثنا عشر فقيها لا يبوح بأسمائهم - كانوا يجتمعون فى مكان ما - لا يصرح به كذلك - لإجراء عمليات الختان للموريسكيين، وكانت لديهم سرائر معدة لمعالجتهم بعد الختان، وكان يحضر إليهم كثيرون، لأن هذا السجين والفقهاء كانوا يعلمونهم ويقولون لهم إن الختان واجب فى طائفة محمد ولدخول الجنة. وعندما يجرون عمليات الختان كانوا يقيمون حفلات كبيرة ومآدب. وبصفة خاصة قام هذا السجين باصطحاب رجلين إلى بيته لإجراء عملية الختان لهما وكان يعتبرهما كأبناء. وبناء على أوامره قام الفقهاء بالفعل بإجراء عمليات الختان، وأنفق هذا السجين كثيرا على الفقهاء وعلى خمسة وخمسين شخصا آخرين أجريت لهم عمليات الختان، فقدم لهم الهدايا و الطعام، وتحمّل نفقتهم لمدة ثلاثة أيام كرجل ثرى عُرف عنه الثراء: انظر:

Pr. De Francisco Hazan, Chavi el Mayor, vecino de Algar (Valencia), MIV, leg, 51, exp, 32, AHN.

وتمارس عادة الختان اليوم فى المغرب فى سن الثالثة وأحيانا فى سن السابعة أو الثامنة . ومن الشائع أن تمارس ببساطة وبلا أى احتفال. وإذا لم توافق الأسرة (على أجراء عمليات الختان) يكون من المحتم سرقة الأطفال لإجراء الختان لهم، مع أن الآباء أنفسهم يتعاونون بشكل غير مباشر فى ذلك لاعتبار سرقة الطفل لختانه عملا من أعمال التقوى جديراً بكل الثناء. وإذا صاحب العملية احتفال يقوم الأب - أو من يسرق الطفل - بحمله إلى المسجد على دقات الطبول والمزامير. وإذا كان الطفل قد سرق فإن الأب لا يحضر عملية الختان. وفى اليوم التالى يدعى إلى مأدبة تحضرها النساء المدعوات وتقدم كل واحدة منهن هدية طبقا للعادة الجارية.. انظـر:

Michaux-Bellaire y Salmon. El Qacr El kebir, en Arch, Mar, t, II, p,74.

الفصل الخامس عشر

شعائر الصيد وذبح الحيوان
الأطعمة الحلال

الصيد وذبح الحيوانات[1]:

لا تخلو بعض مظاهر الحياة العادية – مثل الصيد وذبح الحيوان – من أثر الدين: إن الشعور الديني يعم كل شيء في حياة المسلم. إن الصائد عندما يرسل كلبه أو صقره إلى الفريسة كان يردد: "بسم الله، الله أكبر". كان الصيد للتسلية محرما، ولم يكن يُسمح بالصيد إلا لمن يسعى بذلك إلى الحصول على قوته وقوت أسرته. كان يحل أكل لحم الصيد في الحالات التالية:

(أ) إذا سقطت ميتة كفريسة للكلاب أو الصقور أو الثعالب أو النسور.

(ب) إذا جرحها الصائد أو الكلاب، وفي كلتا الحالتين يجب أن يذبح الحيوان ليكون لحمه حلالا.

(ج) الحيوان الذي يصاد برمح أو سهم ويموت قبل أن يذبح كان يحل لحمه إذا اختفى عن عين الصائد بعد أن أصابه السهم.

(د) إذا عُثر على حيوان ميت نفذ فيه السهم.

ولم يكن يحل طعام الحيوان الذي افترسه دب أو ذئب أو أي حيوان مفترس آخر، إلا إذا كان الحيوان لا يزال حيا ولم تخرج أحشاؤه. في هذه الحالة يمكن أن يؤكل لحم الحيوان بعد أن يذبح.

ولم يكن يحل كذلك أكل لحم الحيوان إذا كان على هيئة شرائح، ولا شك فى أن ذلك يرجع إلى خشية أن يكون من أعد الشرائح لم يراع التعاليم السابقة الخاصة بالشريعة. وكانت الماشية بشكل عام يجب أن تُذبح ولكن لا يؤكل منها - حتى لو ذُبحت - فى الحالات التالية: الحيوانات المخنوقة بحبل أو نحوه، والتى جرحها سهم أو نحوه، والتى سقطت من هوة، والنطيحة، والتى أكلت الحيوانات المفترسة جزءا منها، إذا ماتت بعد ذلك مباشرة، أما إذا لم تمت فيحل طعامها بعد أن تذبح وفقاً للشريعة.

ويجب أن يقوم بالذبح إنسان مسلم طاهر متوضئ، ويجب توجيه الحيوان نحو الشمس المشرقة (نحو القبلة) عند الذبح(٢). وكان الموريسكى عندما يذبح يقول "بسم الله" و"الله أكبر". وبعد أن يختبر حدة السكين ينفذها فى رقبة الحيوان بحيث تكون الجوزة فى جانب الرأس (عند القطع) وبحيث يتم قطع الحلقوم وأوداج العنق فى دفعة واحدة. ولم يكن يحل لحم الحيوان الذى ذبح من القفا. وكان الموريسكيون يهتمون بتوزيع لحم الحيوان الذى ذُبح على الشريعة فيما بينهم. وكانوا يفعلون ذلك سرا تجنبا للشكوى أمام محاكم التفتيش، وكانوا يعهدون إلى أحد المسلمين بشراء الماشية اللازمة للاستهلاك، وكانوا يدفعون الثمن مقدما. وفى مناطق أخرى حيث يتمتعون بقدر أكبر من التسامح كان للموريسكيين مجزر مختلف عن مجزر المسيحيين القدامى. وكانوا يربون الماشية المخصصة للاستهلاك فى مراع أخرى(٣). وكان يفضَّل فى من يعمل بمهنة الجزارة الموريسكى الذى يعرف كيف يذبح طبقا لشريعة ويواظب على أداء الصلوات الخمس اليومية.

الأطعمة(٤):

من المعلوم - كما وضحنا - أنه لم يكن يحل لحم الحيوان إلا إذا ذبح طبقا للشريعة. ومن المهم أيضا أن نشير إلى الطعام والشراب الذى يحرمه الشرع تحريما قاطعا وأجزاء الحيوان ومنتجاته والميتة التى يحللها الشرع أو يحرمها.

كان من المحرم تماما أكل لحم الدواب والوحوش الضارية كالخيل والحمير والبغال والقطط والثعالب وما شابهها. وكان يستفاد من لحم الميتة بالشكل التالى: الجلد بعد دبغه كان يمكن استخدامه فى صناعة الأحذية وكقربة (لحفظ) المواد الجافة، أى باستثناء

ما يمكن عصره أو ما يمكن استخراج زيت منه وما شابه ذلك. وكان يمكن استعمال الصوف والشعر والريش والعظم والقرون وكل ما يمكن أخذه "من الحيوان وهو حي دون أن يؤدى ذلك إلى موته".

ولم يكن يحل كذلك الطعام أو الزيت الذى سقط فيه حيوان مفترس كالفأر، ولا لحم الخنزير ولا الطعام المستخدم كقربان فى احتفالات دين غير الإسلام. وكان من المحرم شرب الخمر وأى مشروب آخر مسكر: و"اجلدوا من يشربها ثمانين جلدة سواء شرب قليلاً أم كثيراً، وافعلوا ذلك أيضا مع من يشم رائحتها عمدا". وكان يجب الاحتراس من خلط سائل بآخر حتى لو كان كل منهما حلالا بمفرده، فلم يكن يحل خلط عصير بلح مع عصير عنب، أو خلط العصير بماء أو عسل أو ما شابه ذلك[٥]. ولم يكن يحل الدبس إذا صنع من عصير عنب باعه مسيحى. ورغم ذلك كان يحل للعليل أو المريض أن يتناول مشروبات يحرمها الشرع، وحتى فى تلك الحالة كان يحرم عليه أن يخلط سائلا بآخر.

ويبدو أن هذا التحريم كان يراعى بدقة كبيرة، ففى قضايا الموريسكيين أمام محاكم التفتيش يلاحظ بوضوح أنهم لم يكونوا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر[٦]. كانوا يتناولون غذاء يسمونه الخليع alhale يصفه الدكتور ثاراتى عضو محكمة التفتيش كما يلى: "هو لحم يصنعه المسلمون لكى يستعملوه فى كل وجبة كما يستخدم المسيحيون لحم الخنزير، وهو يؤكل مع خبز ساخن فى الصباح كما يؤكل الزبد، ويؤكل فى أى وقت وفى أى يوم من العام. ويُصنع الخليع بالطريقة الآتية: يأخذ المسلمون لحم أى ماشية كانت وينزعون عنه العظم، ويصنعون منه شرائح مملحة ثم تجفف، وبعد أن تجف يصنعون منها شرائح ثم يطبخونها ثم تقلى الشرائح فى إناء. وإذا كانت الشرائح رقيقة يضعون دهنا. وبعد أن تقلى الشرائح يضعون دهنا حسب كمية اللحم وتكون كمية الدهن ضعف كمية اللحم، ثم يضعون كل ذلك فى إناء ليبرد ثم يحفظونه لكى يأكلوا منه على مدار السنة. ويقال إن هذا الخليع[٧] لا يصنع كاحتفال إسلامى وإنما كمخزون طعام كالخنزير واللحم المقدد بالنسبة لنا".

هوامش الخامس عشر

(١) MBN , n 5306 (Sa Gg, 85), fol . 63.
MIV, leg 49, exp. 1. AHN.
Bc, en Me HE, t ,V, ps. 330-331.

(٢) عام ١٥٧٨-١٥٨٣، قضية دييغو دى أركوس، موريسكى من مدينة طرويل Teruel، شهادة لورينثو بولو، موريسكى من نفس المدينة " يقول هذا الشاهد ويشهد أنه كان مع أنطون بولو، يعيش فى نفس بيت انطون بولو وكانوا يعيشون معا، ورأى الشاهد أن لويس كامينيرو له محل جزارة وكان يذبح الماعز سرا طبقا لعادات وشعائر المسلمين لموريسكيى الشارع وانداغيا Andaguilla، وأنه بصفة خاصة ذات ليلة رأى لويس كامينيرو يذبح ماعزاً، وأن لويس كامينيرو قال للشاهد "لنوجهها ناحية القبلة وأن الشاهد قال له "وما القبلة؟، إلى أى جهة أوجهها"؟ فأجابه لويس كامينيرو "القبلة هى التوجه نحو السماء لكى ترى وجه ربك الله" وهكذا وجها الماعز" انظر: MIV, leg. 49, exp. 1. AHN.

(٣) نعلم أنه فى بلدة بلشيتى Belchite فى ثاراغوثا (سرقسطة) كان هناك محلان للجزارة فى أحدهما كان يذبح المسيحيون القدامى وفى الآخر كان يذبح المتنصرون حديثاً. وكان لهؤلاء ماشيتهم ومراعيهم المستقلة. ولما كانوا يذبحون الحيوانات طبقاً للشريعة الإسلامية صدرت الأوامر بألا يكون لهم محل جزارة، وأن يكون من يذبح مسيحيا قديما، وأن يتم الذبح فى حضور قسيس أو شخص محل ثقة، وأنهم لهذا السبب كانوا يضعون كل اهتمامهم فى أكل الحيوان الذى ذبحه متنصر حديثا". انظر:
MIV, Proced. AHS, A-227. AHN.

(٤) MBN, N 2076 (Sa. Gg, 138).
BC, en Me HE, t. V, ps. 328-330.

(٥) ينسب التراث الموريسكى إلى الخليفة عمر، ثانى خلفاء محمد، أنه حرم على المسلمين فى القدس أن يشربوا عصير العنب المصنّع حديثا، وأنه علمهم صناعة الدبس بطبخه "حتى يكون خيطا". ويُحكى أنه كان هناك ماكر صنع الدبس بكمية كبيرة وخلطه بالماء وباعه كشراب، فلما علم الخليفة بذلك يقال إنه أمر بجلد المسلم وهدم بيته وسكب الشراب، وإنه رفع يديه إلى السماء وقال "اللهم إننى وصفت لهم الدبس كغذاء وليس كذريعة لهذا الخداع والمكر كما تعلم، فاغفر لى إذا أخطأت فى حقك".

(٦) عام ١٥٤٦، قضية لوبى المريكى، فلاح، "متنصر حديثًا وكان مسلماً" من بلدة بولانييس (Ciudad Real) "Bolanes" أن الونسو المريكى لحبه واعتقاده فى شريعة المسلمين الزائفة لم يأكل أبدا – ولا يأكل – لحم الخنزير ولم يشرب – ولا يشرب – الخمر مراعاة والتزاما بشريعة طائفة المسلمين الزائفة.

وإن أشخاصا كانوا يأكلون الخنزير فى وجبة عشاء قد دعوا لوبى المريكى وشخصا آخر من أقربائه إلى العشاء معهم، وأن لوبى المريكى والشخص الذى معه كانا لا يرغبان فى ذلك أبدا، وأن أحد الأشخاص قال للوبى المريكى ورفيقه: "لماذا لا تتناولان العشاء معنا؟ ألأنكما لا تأكلان الخنزير؟" وأن لوبى المريكى قال " بما أن آباءنا لم يأكلوا الخنزير أبداً، فهكذا نفعل نحن ولا نأكله"، وأن لوبى المريكى لم يأكل مراعاةً والتزاماً بدين المسلمين، وأن أشخاصاً كانوا يطبخون الخنزير قد دعوا لوبى المريكى إلى أن يأكل الخنزير معهم ..... وأن لوبى المريكى رد عليهم أن يأكلوا هم (بالهناء والشفاء). وبعد أن انتهوا من الأكل أخذ لوبى المريكى الإناء وغسله جيدا وأعدَّ طعاما له ولم يشأ أن يأكل من الخنزير الذى أكله الناس، كل ذلك مراعاة لدين المسلمين المزيف والتزاماً به: انظر:

MIT, leg. 191, exp. 8 AHN.

(٧) الخليع لحم خروف مملح يوضع بعد ذلك فى زيت مغلى ويحفظ فى خليط من الزيت والدهن، تستعمل هذه الكلمة حالياً فى شمال إفريقيا كله: انظر:

Beaussier. Dict, prat. Arab-franc, p. 179.

الفصل السادس عاشر

الــزواج

لم يكن الزواج بين الموريسكيين يصحبه أى احتفال دينى، بل كانت له صفة مدنية، باستثناء أن يكون الشاهدان "ممن حسن إسلامهم"، ويتم الشاهدان – بالاشتراك مع الولى alguali أو ممثل الفتاة – عملية الزواج. ولما كان الزواج يتم طبقا للعادات لا بمقتضى شعيرة دينية، فليس من الغريب ألا تتضمن التعاليم الموريسكية فصلا خاصا يتناول هذا الموضوع. ولهذا فإننا سنقتصر على عرض الجزئيات النادرة المتعلقة بالزواج والتى أشارت إليها التعاليم المذكورة وهى: طريقة طلب اليد، والشروط المطلوبة لصلاحية الزواج، ووعظ المخطوبين عند زواجهما. وفى النهاية سنصف احتفال الزواج الذى يتم طبقا لعادات الإقليم الذى يقطنه الموريسكيون، كما يشير عالم اللاهوت الغرناطى بدرو غيرا دى لوركا فى كتابه Catecheses، وكما يتبين من شهادة أحد الجراحين الفالنسيين فى قضية امرأة موريسكية من قرية مجاورة للبيريا تدعى بنيسانو.

تعدد الزوجات:

من المعلوم أن الديانة المحمدية تبيح للمسلم أن يتزوج بأربع زوجات شرعيات وأن تكون له إماء لا حصر لهن. إن المخطوطات الألخميادية وملفات محاكم التفتيش لا تلقى كثيرا من الضوء على هذا الموضوع، ومن المحتمل أن حالات تعدد الزوجات لم تكن شائعة بين الموريسكيين، ومع ذلك لنقرأ النص التالى الذى عثرتُ عليه، وهو فريد من نوعه ويشير إلى موريسكى من فالنسيا:

"إنه متزوج من ثلاث زوجات، واعتقدَ أنه يمكنه فعل ذلك طبقا لدين محمد، ويُسكِن اثنتين منهن فى بيوت والديهما وأقاربهما حتى يخفى جريمته، وهكذا يعطيهما ما هو ضرورى لمعيشتهما، وقد تزوج بهن على يد فقيه، ويخفى أسماء الفقيه وزوجاته حتى لا يعاقبوا، وهو قد التزم بإعطاء كل زوجة ثمارا وأراض، قيمتها تزيد عن خمسمائة عملة مقابل الزواج. وقد تعاهد على أنه إذا مات تستطيع زوجاته أن يطلبن صداقهن أمام الفقيه المشار إليه، وزوجتان من الثلاث قريبات له من الدرجة الرابعة"[1].

صيغة طلب اليد[2]:

يتوجه والد الشاب برفقة بعض الأصدقاء والأقارب إلى منزل والد العروس أو منزل الولى ويطلب يد الفتاة بالشكل التالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

فلان بن فلان: جاء إلى هنا فلان بن فلان ومعه أصدقاؤه وأقاربه الحاضر منهم والغائب – كلهم بمودة ورغبة – ليطلب منكم يد فلانة بنت فلان لتكون له زوجة ورفيقة شرعا، بالبنود والشروط التى أقرها الله للعلاقة بين الرجال والنساء وعلى سنّة نبينا محمد وهى ثلاثمائة عملة Sueldo من الجواهر وثلاثمائة صداق (طبقا للمعمول به فى المكان الذى يتم فيه الزواج) ويمنحها كل شىء تستحقه شرعا. "والحاضرون شهود على ذلك وليس لدىَّ ما أضيفه سوى أننى أنتظر ردكم الطيب". ويجيب الولى أو والد الفتاة بنفس الطريقة فيكرر نفس الكلمات السابقة فى حضور الشهود. هنا يعتبر الزواج صالحا ويقول من يتولى الإجابة:

"يا فلان، مرحبا بك وبأصدقائك وأقاربك". بذلك وبدون ذلك "نتلقى مودتكم ورغبتكم ونحن مسرورون لقدومكم، أنا – فلان بن فلان – أقدم فلانة بنت فلان لفلان بن فلان كزوجة ورفيقة بالبنود والشروط التى أقرهاَ الله للرجال والنساء فى الزواج

وعلى سنة نبينا محمد وهى ثلاثمائة عملة Sueldos من الجواهر وثلاثمائة صداق (طبقًا للمعمول به فى المكان الذى يتم فيه الزواج) وأقدمها له بكل ما تستحقه شرعا. والملائكة والحاضرون شهود على ذلك، وليس لدىَّ ما أضيفه سوى أن يتمم الله ذلك بخير".

الشروط الواجبة لصلاحية الزواج[٣]:

لكى يكون الزواج صالحا يجب أن يكون الولى والشاهدان ممن حسن إسلامهم. ويُشترط أيضا أن يدفع الصداق خلال فترة محددة. بالنسبة للولى يجب أن يكون والد الفتاة، فإن لم يكن فالأخ فإن لم يكن فأقرب الورثة، وإذا لم يكن هناك ورثة يكون الولى هو القاضى أو الشخص الذى تثق فيه الفتاة وتعيّنه لذلك.

وكان واجب الولى هو أن يرد عن الفتاة خلال الاحتفال إذا كانت بكرا. وكان على الفتاة أن تلتزم الصمت إذا راقها ما يقول الولى باسمها وإلاّ فعليها أن تبين ما لا يعجبها فيما يقول الولى باسمها. والمرأة الثيب كان عليها أن ترد بنفسها على الأسئلة التى تطرح عليها. وفيما يتعلق بدفع المهر أدخلت عادة عدم دفعه حتى وفاة. الزوج ولكن من الواجب دفع خمس عملات sueldos إلى الزوجة قبل إقامتها مع الزوج. وهذه الكمية " طبقا للعادة " كانت تعتبر مقدما للصداق.

وعظ المتعاقدين[٤]:

قبل أن يتم الزواج كان يجرى إعداد الفتى والفتاة، فكان الفقيه يعلمهما فيعظهما حول العوائق التى قد تحول بينهما وحول أهداف الوضع الجديد. وها هو نص الوعظ الذى يذكر لهذا الهدف:

هذا هو الأمر الذى يجب أن يقال لمن يتزوج:

يُخاطَب الرجل بالطريقة الآتية: "يجب أن تتوافر لديك النية الثابتة لقول الحق (لأن الله لا يخفى عليه شيء) فى كل ما تُسأل عنه فى أمور الشريعة والسنّة، أنت ملزم

بأن تريح ضميرك، وذلك بأن تعلم من هو أكثر دراية بالشريعة والسنّة وأن تطلب منه – كوسيط لها(*) – أن يوضح أخطاءك وضعفك والإغراءات التى مرت بك والأفكار السيئة الأخرى، وإذا كان لديك علم بموانع كهذه: أن هذه المرأة قد رضعت من نفس الثدى الذى رضعتَ منه، أو أنك تشك فى كونها ابنة امرأة ضاجعتها، وأنك لم تقسم لأية امرأة – على قيد الحياة – أن تكون زوجا لها، وأنك لا تتزوج بهذه المرأة لفترة محددة، وأنك لا تتزوج من هذه المرأة بالخداع أو بنية سيئة كالرغبة الجنسية أو كالانتقام لإهانة وجهت إليك من قِبلها أو من قِبل أقارب لها، وأن هذا الزواج ليس للانتقام بل لإنجاب الأولاد وطاعة الله. أنت ملزم بمراعاة كل ما شرع أو عدم الزواج "قبل الدخول" فإذا لم تفعل ذلك تخطئ فى حق الشرع والسنّة ولا يكون زواجكما حلالا ولا يرث أبناؤكما مالكما شرعا، وسيسخط عنكما الصالحون، وستكونون فى هذه الدنيا مذنبين فى حق ربكما، وبما أن لديكما الوقت لكى تزيحا عنكما ما يخالف (الشرع) بألا تتزوجا فادعوا الله أن يهبكما النعمة فهو لم يمنعها عن أى تائب".

وتوعظ المرأة بنفس الطريقة وتسأل عما إذا كان لديها تصريح من أبيها أو من الولى، فإذا أجابت بالنفى لا يعقد الزواج، أما الأرملة فلا تحتاج لهذا الإذن. وعندما يصرح المتعاقدان أنهما يعملان وفقا لإرادتهما يقسمان بهذا الشكل "ماذا؟ أتحلفان بالله الذى لا إله إلا هو، وبالكلمات الواردة فى القرآن الكريم أنكما أجبتما على كل الأسئلة بصدق، وأنكما صادقان وتعتقدان أنكما متزوجان على سنّة النبى محمد؟" وبعد أن يحلف المتعاقدان يقال لهما "إذا بررتما بالقسم فالله شهيد ويهبكما النعمة، وإلا فالله يهلككما ولا يمنحكما النعمة"، ثم يقرأ الولى السورة رقم ٣٦ من القرآن والتى مطلعها "اقسم بالقرآن......"(**) وبهذا ينتهى مجلس العقد.

(*) لاحظ أثر المسيحية هنا: يلعب الفقيه دور القسيس. (المترجم)

(**) هى سورة يس ومطلعها "يس، والقرآن الحكيم". (المترجم)

الاحتفالات التى تعقب الزواج:

لا تتوافر لدينا أدلة أخرى نعرضها، ولذلك سنتحدث الآن عن الاحتفالات التى تقام بمناسبة الزواج عند المورسكيين، والتى نقلها لنا عالم اللاهوت الغرناطى بدور غيرا دى لوركا فى كتابه Catecheses، وهو يذكر لنا أنه - لكى يصف عادات المسلمين وشعائرهم فى هذا الأمر - استعان بشهادة "بعض القساوسة وجامعى الصدقة المتدينين الذين، وصلوا حتى الجزائر خلال مهمتهم فى إطلاق سراح الأسرى"(*). ويلاحظ أن أهل الجزائر فى هذا الشأن - مثل أهل فاس والمسلمين الإسبان - يحافظون على التعليمات المذكورة. هذا هو نص الرواية المشار إليها.(٥)

تتوجه الفتاة - التى عُقد عليها ولم يرها الزوج بعد - إلى بيت الزوج وعيناها مغمضتان ودون أن تحرك قدميها، فتجلس على أيدى شابين أو قريبين يقودانها. وتقضى عادات البلد بأن الفتاة يجب أن تحمل لإتمام الزواج. ومراعاةً لحيائها من الحاضرين لا يُسمح لها برفع عينيها ولا بلمس الأرض بقدميها. وعندما تصل إلى بيت الزوج تدخل برجلها اليمنى حتى "يتيمن" كل شىء، لأنها لو دخلت برجلها اليسرى، فكل شىء سيفسد منذ تلك اللحظة، بل إن الزواج نفسه قد يفشل. ويعتقد العرب بالفعل أن رجل العروس اليسرى تكون واقعة تحت تأثير نجم معين، وبناء على هذا الافتراض يأخذون فى إصدار تكهنات عن الزواج أساسها هذا الحدث المشؤوم ويقولون إن كل شىء من عمل القدر المحتوم. ونظرا لولعهم بالعرافة يبحثون عن تكهنات مشؤومة للزواج الذى تم ويؤكدون أن كل شىء سيتم طبقا لتكهناتهم.

وبعد أن يتم استقبال العروس على أنغام الموسيقى، تنتقل إلى المضجع المعد فى ركن خفى من البيت وتجلس عليه لبعض الوقت ثم تجلس فى صحبة الوصيفات اللاتى يرافقنها،

(*) كثيرا ما كان القساوسة يقومون بجمع الأموال لافتداء الأسرى الموجودين فى شمال إفريقيا. انظر كتاب "المورسكيون فى المغرب" تأليف غوثاليس بوستو، ترجمة مروة إبراهيم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة. (المترجم)

وتستريح فترة ثم تتملك بيتها المستقبلى طبقًا للعادات العربية، ثم تُحمل بعد ذلك فى احتفال مهيب إلى حجرة تزينها الأقمشة الغالية والمقاعد، ويسبقها جمع كبير من النساء وسط نغمات المزامير والعود والآلات الموسيقية. وفى أثناء ذلك يتوجه الرجال ومعهم الزوج إلى قاعة أخرى.

عندما تستقر الزوجة على مضجعها تتغطى بملاءة بيضاء، ويُسمح للنساء الحاضرات بأن يقتربن من العروس وأن يقدمن لها كل أنواع الهدايا الثمينة، أما العروس فلا يسمح لها – من باب التوقير – بالكلام ولا فتح عينيها. وتجنبا لأى خطأ فى مراعاة هذه التقاليد، يكون على جانبى العروس امرأتان يسميهما العرب مدّاحتين magitas[٦]، ولهاتين المرأتين علم تام بهذه التقاليد، وبعد رؤية هدايا النساء مباشرة يستدعى الرجال لتقديم هدايا نقدية تقدمها العروس إلى المداحتين كهدية ومكافأة على مجهودهما، ولهذا تكون قيمة هذه الهدايا النقدية متواضعة. وإذا حدث أن أحد الرجال الذين تقدموا بهدايا – خاصة من الأقارب والمعارف – طلب أن يسمح له بالنظر إلى وجه العروس، فمن العادة أن يوافَق على طلبه، فترفع الملاءة من عند الجزء الذى يغطى الوجه وتظل الزوجة مغمضة العينين، فيهنئها على الوضع الجديد، ويتمنى النجاح لها ولزوجها.

بعد الاطمئنان على صحة العروس وعلى الهدايا تزين المداحتان العروس مرة أخرى بالثياب القيِّمة والطرحة حتى تقوم إلى العشاء مع النساء عندما يحين الوقت، ولا يُسمح لها بالكلام كذلك. تعدّ حفلتان للعشاء، واحدة صباحية والثانية مسائية، والاثنتان طبقا للذوق العربى لعادت الطباخين، فتجهز الأطباق الكثيرة ويوضع عليها العسل والزبيب، وتقدم اللحوم وعليها الزيت – لا شحم الخنزير– فتسوى على النار لفترة قصيرة. والأطباق التى لا تحتوى على عسل ولا زيت لا تكاد تؤكل عادة. ومن العادة أن يوضع على النار عدد من الأطباق يراعى فيه عدد الضيوف حتى تكون الأطعمة المعدة فاتحة للشهية. وبعد تقديم اللحوم تقدم الحلوى بالجبن أو محشوة بالبرقوق أو التفاح بالإضافة إلى الحلويات والأطعمة الأخرى. ومن العادة أن توضع فى وسط المائدة حلويات بالعسل وعناقيد الزبيب والتين الجاف حتى لا يمل الضيوف الأطباق المعدّة أو لكيلا تسبب لهم هذه الأطباق غثيانًا.

وفى الحقيقة لو لم تكن الأطعمة المقدمة المعدّة طبقا لنظام البلد مادة للخرافات لكانت جديرة بأن تقدم على مائدة الملك ولا تحرَّم أبدا على الآكلين، ولكن بما أن علاقتها وثيقة بالشعائر المحمدية فلا يجب أن يسمح للقساوسة بتناولها حتى فى مأدبة الزفاف. وتجنبا للاستمرار فى إقامة شعائر عربية بسهولة، فإما أن يحضر القساوسة المآدب كمدعوين أو يزورون المطبخ بحجة الاستعلام عن الأطعمة التى ستقدم على المائدة، فإذا طابقت الأطعمة الشعائر فلا يأكلون هم منها، ولا يسمحون بأن يأكل منها الآخرون. وهكذا عن طريق العقوبة يحولون الخرافات إلى أحزان وتعاسة ولقد أخذوا يبغضون لحم الخنزير وشحمه اتباعا لعادة محمد التى تحرم هذه الأشياء، لا لسبب آخر. والحيوانات التى تعد لحومها وتقدم على المائدة، يجب أن تذبح طبقا لشعائر خرافية: يجب أن تذبح ووجوهها ناحية الشمس مع نطق كلمات معينة عند الذبح، أما الحيوانات التى تذبح بطريقة أخرى فهى تلقى فى القمامة حتى لا تروق لحومها لأحد. ولتحريم مشابه لا يشربون الخمر. لهذا يتناولون أطعمة تدعو إلى شرب الماء وسهلة الهضم.

وبعد انتهاء المأدبة نتحدث عن الزوجة التى ستسلم إلى زوجها عندما تقترب ساعة الليل الذى يبدأ. تنزل العروس إلى سرير الزوجية دون أن تحرك شفة، وطبقا للعادة لا يسمح لها بالبكاء على فقد عذريتها ولا أن يصدر عنها نحيب، بل عليها أن تستقبل زوجها بحنان عندما يقتحم السرير، وعندما يبزغ نور اليوم الجديد ينهض الزوج دون أن يلقى التحية على زوجته، ويأخذ معه إبريقا وسلة لإحضار ماء وطعام، فهى أمور تنوط به الآن، وعندما يعود يطرق باب الحجرة الموصد بحجر حتى ترد الزوجة وتوجه له الكلام لأول مرة بحنان أسرى، وتضع الزوجة الطعام والماء فى أماكنهما وتبدأ فى إدارة شئون البيت.

عندئذ تحضر الماحتان وتهنئانها على معيشتها مع الزوج وترجوان الرب (رب محمد كما أعتقد) أن يهبها ذرية منه، وتؤديان واجبهما فتقصان شعر الزوجة إلى مستوى الرقبة بعد أن كان يصل حتى ظهرها"، وإتماما للمعلومات السابقة عن احتفالات الزواج نقدم هذه الفقرة من قضية توصف فيها عادات موريسكيى فالنسيا(٧).

هوامش السادس عشر

(١) قضية فرانثيسكو حسن، موريسكيى، من بلدة الغار Algar بإقليم فالنسيا. انظـر:

MIV, leg. 51, exp. 32. AHN.

(٢) MCG, T-9. BRAH.

(٣) MBCEH; n III, fol. 98 v.

(٤) MCG, T-8. BRAH.

(٥) Guerra, Catecheses. fol. 55-56 v.

(٦) ربما كان اللفظ تغييرا لكلمة matijas وهى مشتقة من madihas وهى نطق أهل غرناطة لكلمة "مدّاحه" أى "المرأة التى تضرب الدف فى احتفالات الأعراس" كما يحدث فى المغرب حاليًا: انظـر:

Alarcon Santon, Textes arabes en dialecto vulgar de Larache (Glos, S. V.), p.186.

(٧) عام ١٥٦٧، قضية فيكتوريا فيلومينا، موريسكية من بلدة بنيسانو Benisano بفالنسيا، كانت أمةً للعمدة رونكيو، شهادة خوسيه توريس، جراح ومقيم فى فالنسيا، إن ما حدث فى قرية بيناغواثيل Benaguazil فى مملكة فالنسيا هذه فى عرس أحد خدم السيد خوان دى بن عامر(*) هو ما يلى: أولاً بعد أن تناول العريس طعام الغداء فى الساعة الثالثة تقريبا توجه إلى الحمام الذى يبعد عن القرية مسافة قوس تقريبا فتبلل واغتسل كما يقولون. بعد ذلك ذهب بعض الرجال والنساء والأطفال من القرية لإخراجه من الحمام فى احتفال، وأحضروه حتى ساحة القرية، ووضعوه على لوحة مستديرة لها ثلاث أرجل وعليها قطيفة، وجلس النساء حولها على كراسى، وقامت إحداهن بخلع غطاء رأسه، والثانية خلعت عنه الكوفية وقامت أمه بتمشيط شعره وصب ماء الورد - كما يقولون - ووضعت عليه مسحوقا، وقامت زوجة السيد خوان بوضع حزام حول الجزء الأيسر........ بعد ذلك أعادوا إليه الكوفية وغطاء الرأس، وحملوه كما أقول إلى بيت السيد خوان حيث تناولوا العشاء وأكلوا جديا أو اثنين. ويقولون إنهم ذبحوهما وهما متوجهان إلى القبلة. وبعد العشاء حملوا العريس بالشموع فى احتفال وطبول إلى الساحة، وكان فى الساحة، كرسى تزينه

(*) لمزيد من التفاصيل عن مأساة أسرة بن عامر انظر قضية كوسمى بن عامر الواردة فى كتاب "الموريسكيون الأندلسيون" تأليف مرثيديس غارثيا أرينال، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة. (المترجم)

أغصان الغار، وأجلسوا العريس على الكرسي، كما لو كان سيحلق.... وقصوا لحيته... ثم ظل جالسا على الكرسي كما ذكرتُ، وصبَّ عليه الحلاق ماء الورد. وبعد ذلك قدم إليه الرجال واحداً واحداً أو اثنين اثنين، كل منهم يضع عملات نقدية على وجه العريس أو جبهتـه أو عينه أو فمـه، وهكذا فعـل كـل الموجـودين، ثم فعلت النساء مثل ذلك، ثم حملوه إلى بيت العروس، وكانت العروس جالسة على وسادتين وعلى جانبها امرأة تحمل شمعة متقدة وعلى جانبها الآخر امرأة أخـرى. وكانت العـروس جـامدة لا تتحـرك يداها ولا قدماها ولا عيناها كما لو كانت حجرا...... ثم أعطوا العروس شرابا من العسل والفلفل والماء ..... هذا ما وعيته ورأيته. كان البيت مفروشا بالوسائد والقمصان وأشياء أخرى جميلة، وكانت النساء الأخريات ترقصن وفقا لعادتهن الموريسكية، انظـر:

MIV, leg, 51, exp, 13. AHN.

الفصل السابع عاشر

الشعائر الخاصة بالوفاة

بعد أن تعرفنا على الشعائر الإسلامية التى تؤدى فى ظروف الحياة العادية للمسلم – ولكى ننتهى من عرض الشعائر التى كان الموريسكيون يؤدونها – من المناسب أن نصف الآن تلك الشعائر ذات الصفة الدينية والتى تؤدى عند الوفاة.

سنرى كيف أن الموريسكى كان يتلقى مساعدة روحية فى آخر لحظات حياته وكيف كان جثمانه يُغسّل ويُجهز للدفن وما هى طريقة الدفن والدعوات التى تتلى على روح الميت عند الدفن على حافة القبر وفى الليالى السبع التالية ليوم الوفاة فى المكان المخصص لتلاوة الدعاء الجماعى.

المساعدة الروحية عند الموت[1]:

عندما كان أقرباء الموريسكى المريض يزورنه ويسألونه عن حالة مرضه كان من المفضل أن يرد عليهم "فى طاعة الله"، وفى لحظة الموت كان من الواجب مساعدة الموريسكى على تكرار نطق كلمات الشهادتين وهى "لا إله إلا الله محمد رسول الله"[2].

غسل الميت[3]:

منذ لحظة وفاة الموريسكى لا يستطيع أحد أن يلمس الجثة إلا بعد نطق الدعاء "اللهم اغفر لى" ثلاث مرات. ويُعزى ذلك إلى أن (لمس) الجسد الميت كان يعتبر غير طاهر من الناحية الشرعية. بعد ذلك مباشرة يغسل الجسد "فيغسَّل كما يغتسل الحى بالوضوء"،

ولهذا الغرض كان الميت يوضع فى مكان مرتفع حتى ينساب الماء على جسده كله فينظف. وكان من المعتاد أن تكرر عملية النظافة حتى سبع مرات إذا دعت الضرورة. ويعقب ذلك عملية الطهارة فتدلك كل أجزاء الجسد بورقة شجر مبللة بالماء. وفى أثناء ذلك تردد الكلمات التالية باستمرار "الله أكبر"، "اللهم اغفر له وارحمه"، ويجيب الحاضرون "آمين". وكان من المحرم تقليم أظافر الميت وقص شعره وختانه.

ولم يكن يسمح بالنظر إلى جسد الميت إلا للشخص المكلف بعملية الغسل، وكان ذلك محرما على بقية من يحضرون عملية الغسل ويعتبر إثما كبيرا. ولهذا كان الجسد يُغطى بملاءة أثناء الغسل. وكان يشترك فى هذه العملية رجال ونساء، فتغسله النساء ويقلبه الرجال من ناحية إلى أخرى. ولا تقرر الشريعة الإسلامية شيئا بالنسبة للشخص الذى يجب أن يغسل الجسد. وبصفة عامة كان يقوم بهذه العملية من له دراية أكثر بإتمامها طبقا للشريعة، ومع ذلك كان من المفضل أن يغسل الزوج جسد زوجته وأن تغسل الزوجة جسد زوجها وجسد الطفل الصغير. وبعد انتهاء الغسل يقول المغسل "الله اغفر لى" ثلاث مرات كاستغفار للمس الجسد، ويقول ذلك أيضا من يكفنه قبل وبعد عملية الغسل ومن يضعه فى النعش أو من يحمله إلى المدافن أو يضعه فى القبر. وبعد أن يغسل الجسد كانت تتلى عليه آية الكرسى(٤).

التكفين(٥) :

بعد الغسل وتلاوة آية الكرسى على الجسد تؤدى عملية التكفين فيلف الجسد بثلاث أو خمس أو سبع قطع من القماش أو نفس العدد من القمصان، ويكفن الرجالُ الرجالَ، وتكفن النساءُ النساءَ. وكان من المحرم استعمال الحرير للتكفين أو وضع الذهب داخل النعش، وكان من المعتاد وضع الطيب على أجزاء الجسد التى يستند عليها عند السجود. وكان يُحرص على أن يكون وجه الميت ناحية القبلة بعد التكفين(٦).

حمل الميت إلى المدافن[٧] :

بعد انتهاء عملية التكفين يُنتظر الوقت المناسب للدفن. وكان يتعين على من يحضرون الجنازة أن يسيروا وراءها، أما من هم أعلم بأمور الدين فيكونون أقرب إلى النعش. ويجب أن يكون الجميع قد تطهروا قبل ذلك. كان من المحرم حضور النساء ما عدا الزوجة والأم وأخت الميت. وكان يحاول بقدر الإمكان أن يكون وجه الميت ناحية القبلة فى أثناء الجنازة. وفى أثناء سير الجنازة من البيت حتى المدافن تتلى التسبيحات التالية "سبحانك، سبحانك اللهم غفرانك ونعمتك ورحمتك يمنعون عنا عذابك وخوفك" أو "لا إله إلا الله" و "الله أكبر"، وفى المدافن يحين وقت الصلاة على الميت.

صلاة الجنازة[٨] :

كانت صلاة الجنازة واجبة وتؤدى أربع مرات[*] على المسلم الذى يموت، سواء أكان كبيرًا أم صغيرًا، رجلا أم امرأة. ويُستثنى من ذلك المسلمون فى الحالات التالية:

(أ) الذين يستشهدون فى الجهاد المقدس يدفنون دون أن يسبق ذلك غسل ولا تكفين، بنفس الثياب التى كانوا يرتدونها عند الاستشهاد فى ميدان المعركة.

(ب) المحكوم عليهم بالإعدام، فلا يصلى عليهم الإمام بصفته الرسمية، وإنما يصلى عليهم بصفته الخاصة ويصلى عليهم الأقارب والمسلمون عامة.

(ج) الذى يولد ميتا دون أن تصدر عنه علامات الحياة كالبكاء، أما الحركة فلا تعتبر دليلا كافيًا.

وكان الوقت المناسب لصلاة الجنازة هو أى وقت خلال الليل أو النهار ما عدا ساعة طلوع الشمس وغروبها. ومع ذلك كان يمكن تأدية الصلاة فى هذه الأوقات عند خشية تعفن الجثة.

(*) لعل المؤلف لم يفرق بين أربع تكبيرات وأربع مرات. (المترجم)

أما المكان الذى يجب أن تؤدى فيه صلاة الجنازة، فقد ذكرنا أنه المدافن نفسها أى على حافة القبر، ولكن من الناحية العملية كانت ظروف المكان والزمان تتغير طبقا لدرجة الحرية التى تمنح للموريسكين فى الأقاليم المختلفة، فهكذا كانت صلاة الجنازة تؤدى وفقا للشرع على حافة القبر فى الأقاليم التى كان الموريسكيون يتمتعون فيها بحرية نسبية، أما فى الأقاليم التى لم يكن بها تسامح فكانت صلاة الجنازة تؤدى فى بيت الميت أو فى أى بيت آخر وفى أى وقت من ليل أو نهار حتى بعد دفن الجثة.

وكانت هذه الصلاة تحظى بأهمية كبيرة. وطبقا للتراث الإسلامى كانت الأعمال التى تؤدى فى سبيل الميت عبارة عن ثلاثة أنواع من الثواب أمام الله: أولها ثواب المساعدة فى غسل الميت وتكفينه، والثانى حضور الدفن أو المشى فى الجنازة، والثالث هو صلاة الجنازة. أصل هذا الاعتقاد يرجع إلى أنه لما سأل موسى ربه عن جزاء من يؤدى صلاة الجنازة أجابه الله "يا موسى من يؤدى هذه الصلاة ستحيطه الملائكة حتى وفاته". وعند صلاة الجنازة يذكر اسم الميت سواء أكان رجلا أم امرأة "حتى تكتبه الملائكة". وإذا كان الميت رجلا يقف الفقيه - أو من يقوم بدوره - أمام منتصف جسم الميت، وإذا كانت امرأة يقف أمام الصدر، وهكذا - والميت بجوار القبر - يرفع الحاضرون جميعا أيديهم فى نفس الوقت الذى يرفع فيه الفقيه يديه، بمستوى الكتفين ثم يتلون الدعاء التالى:

"الله أكبر، الحمد لله الذى يهب الموت والحياة، الحمد لله الذى يحيى الموتى، له العظمة والجلال والملك والقوة والحمد وهو القادر. اللهم صل على محمد وآله وارحمهم كما صليت على إبراهيم وآله ورحمتهم، فلك الثناء والحمد، اللهم إنه[٩] عبدك وابن عبدك وأمتك، أنت خلقته ورزقته وأنت أمته وتبعثه، أنت تعلم سره ومصيره، أتينا ندعوك من أجله فاسمع دعاءنا، إننا نأمل فى رعايتك له فإليك الملجأ والمآب".

اللهم قه فتنة القبر[١٠] وعذاب النار، اللهم اغفر له وارحمه، اغفر له وأظهر كرمك فى الأجر الذى تعده له وفى المكان الفسيح الذى تعده له. اللهم اغسله بالماء والبرد ونظفه من الذنوب كما تنظف الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله بيتا أفضل من بيته

ورفقة أفضل من رفقته، وزوجة أفضل من زوجته. اللهم إن كان محسنا فزد في إحسانه، وإن كان مسيئا فتجاوز عن سيئاته، فقد لجأ إليك وأنت الأكرم. إنه يحتاج إلى رحمتك وأنت تستطيع أن تظهر مغفرتك فلا تعاقبه. اللهم ثبت كلماته عندما يسئل ولا تمتحنه في القبر امتحانا عسيرا وألحقه بنبينا محمد. اللهم لا تحرمنا أجره الذي نطلبه منك ولا تفتنا بعده". واذا كان الميت امرأة يتلى الدعاء نفسه وفي الجزء الخاص بـ"زوجة أفضل من زوجته" لا يقال "زوجا أفضل من زوجها" وإنما تحذف هذه الكلمات والسبب هو أنه "لا يمكن للمرأة أن يكون لها في الآخرة أكثر من زوج واحد، أما الرجل فيمكن أن تكون له زوجات كثيرات في الآخرة".

أما الدعاء الذي يتلى على الطفل الميت فيتم تعديله جزئيا بالشكل التالي:

اللهم اجعل ها الابن قرضا لوالديه وكنزا يأتمنانك عليه ورسولا يبعثانه إليك، وتقبله اللهم كزكاة يدفعانها، واجعل وزن هذه الزكاة يثقل في كفة الميزان عندما توزن أعمال والديه، وأن يكون لهما به الجزاء الوافي. اللهم ألحقه بصالح(11) جد المؤمنين من أمة إبراهيم، وامنحه حجرة أفضل من حجرته وقرية أفضل من قريته وقه عذاب النار.

وبعد كل تكبيرة من التكبيرات Tacbiras الأربع يتلى الدعاء التالي:

اللهم اغفر لأحيائنا وأمواتنا وللحاضرين والغائبين وللصغار والكبار والرجال والنساء، فأنت تعلم المتقلبين منا والثابتين. اللهم اغفر لأبنائنا ولمن سبقونا إلى الإسلام وللمسلمين أجمعين رجالا ونساء وللمؤمنين أجمعين الأحياء منهم والأموات. اللهم من أحييته منا فأحيه على الإيمان ومن أمته فأمته على الإسلام، واغفر لنا يوم العرض عليك. اللهم اغفر لهذا الميت واجعل رفقته راحتنا الأبدية"، وبعد ذلك يسلم(*).

(*) لاحظ أنه لم يصف صلاة الجنازة وإنما ذكر الدعاء الذي يردد على حافة القبر، وهو خلط بين أمرين". (المترجم)

الدفـن[١٢] :

بعد الصلاة على الميت تجرى عملية الدفن، وعند وضع الجثمان فى القبر يردد الدعـاء التـالى:

"بسم الله وعلى سنّة رسـول الله وملة أبينا إبراهيم حنيـفا مسلمـا، ومـا كـان من المشركين. اللهم أكرم مثواه فأنت الأكرم" . ويجب أن يحفر القبر فى أرض بكر حتى منتصف طول رجل. وكان من المعتاد أن يوضع الميت على ظهره أو على جنبه، وفى كلتا الحالتين يكون وجهه متجها ناحية القبلة[١٣]. وقبل أن تنتهى عملية الدفن يردم القبر بالطوب أو الأحجار. يجب أن يقام احتفال دينى آخر له أهمية دينية خاصة: أن يوضع بجوار الجثمان ما يسمى:

رسالة المـوت[١٤] :

تُكتب هذه الرسـالة باللغة العربية بـالزعفران علـى جلد أو ورق، وتوضـع لكل ميت، رجلا كان أم امرأة، إما فى الكفن أو خارج الكفن داخل القبر. فى الحالة الأولى توضع الرسـالة تحت رأس الميت أو فى جانبه الأيمن، وأحيانا توضع بين الكفن والخد الأيمن. وفى الحالة الثانيـة توضع الرسـالة عند رأس الميت تحت الأرض. وكانت هذه الشـعيرة الثانية أسهل إذ أنها لا تكون عرضة للشكوى. وكان يُعتقد أن الرسالة لها فضل عظيم بالنسبة للميت فتجلب له الراحة وتكون له رفيقة فى القبر وتمنحه الثبات أثناء الإجابة على أسئلة منكر ونكير فى حساب القبر خلال تلك الليلة نفسـها[١٥]. وكان يُعتقد كذلك أن من يقرأ الرسـالة فى حياته يحصل على أجر كبير من الله فى حياته وفى مماته وفى القبر وعندما توزن أعماله فى ميزان العدل الإلهى[١٦].

ويقول نص الرسالة:

"بسم الله الرحمن الرحيم"

"اللهم إننى قد عاهدتك فى حياتى أن أشهد أن لا إله إلا أنت لا شريك لك، وأن أشهد أن محمداً عبدك ورسولك وأن الدين عندك هو ما جاء به، هو الإسلام الذى شرعه كقانون، وأن ما يقوله هو الحق، وأن القرآن هو ما أوصى به، وأنك الله لا إله إلا أنت الحق المبين (جزى الله محمدا خير الجزاء وغفر له)(١٧). اللهم إننى أطلب أن تكون عونى فى كل حزن، ورفيقى فى وحدتى، وعزائى فى مصيبتى، وأمانى فى عزلتى، ومؤنسى فى وحدة القبر. اللهم رب الأولين والآخرين رب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ورب عيسى ومحمد والقرآن كنز الحكمة، يا من تعلم السر وتسمع الشكوى، يا من تعلم ما يخفى وتكشف كل ضر، يا من تسمع دعاء الضالين، يا هدى من يرجون النصيحة، يا أمان الخائفين وثروة الفقراء والمحتاجين، يا قوة الضعفاء، يا من تحى العظام وهى رميم، اللهم لا تكلنى إلى أى أحد بل إليك وحدك. أدعوك أن تبعد عنى كل شر وألا تبعد عنى الخير.

اللهم أعطنى يوم الحساب كتاب الكرم، وحملنيه لحظة موتى، واحفظنى به من الوحدة التى سأشعر بها فى القبر. اللهم تقبل منى الإسلام والإيمان وتقبل صيامى. اللهم أعنّى على أعدائى ووسع قبرى. اللهم ضع فى شفتى كلمات الحق يا أرحم الراحمين. اللهم اجعلنى أمرَّ على الصراط Asirat المستقيم، صراط عبادك المؤمنين يا أمان المذنبين. اللهم تقبّل صلاتى وزكاتى. اللهم ثبت كلماتى عندما أسأل عما لا تدركه قواى. اللهم ارحمنى من هول يوم القيامة ومن فزع يوم القيامة ومن الصراط وزلته ومن ميزان الحساب ودقته والحقنى بنبينا محمد. اللهم أعنّى واهدنى إلى الطريق العظيم. اللهم كن معى فى السراء والضراء. اللهم أبدلنى بيتا خيرا من بيتى، وصحبة خيرا من صحبتى، وزوجة خيرا من زوجتى، وحوّل حياتى الحالية والمستقبلية إلى جنة.

اللهم إن كنت قد أحسنت فزد فى إحسانى، وإن كنت قد أسأت فتجاوز عن سيئاتى، فلا يمكن أن تضرك معصيتى شيئا ولا أن تعزك مصيبتى شيئا فأنت القوى. الحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم"[١٨].

العون الروحى بعد الوفاة[١٩]:

كان من المعتاد يوم الوفاة إعطاء الصدقات التى يعود أجرها على روح المتوفى حتى تكون له عونا على حساب القبر فى تلك الليلة. وكان من المعتاد كذلك قراءة القرآن خلال الليالى السبع التالية ليوم الوفاة، إذ كان يعتقد أن روح الميت تعود إلى القبر، بل وإلى المكان الذى يتلى فيه القرآن[٢٠]. وكان يُختار نفس المكان الذى أديت فيه صلاة الجنازة كأفضل مكان للتلاوة.

وكان الاحتفال يؤدى على هذا النحو: يجلس على يمين الفقيه كل من يعرفون قراءة صلاة الجنازة، ويجلس على يساره من لا يعرفونها، سواء أكانوا شيوخا أم شبابا. ويبدأ الفقيه - أو أكثر الموجودين علما ويقوم بدور الفقيه - مرددا: "الحمد لله" ويحدد من بين الحاضرين من الذى سيقرأ بصوت مرتفع ويرافقه الجميع فى صوت منخفض. ويردد الجميع خلفه نفس الكلمة. ويواصل المكلف بقراءة القرآن تلاوة بقية السور حتى النهاية، وعند الانتهاء منها يردد الفقيه - أو من يقوم بدوره - دعاء يرجوه فيه من الله أن يسمع الأدعية السابقة وأن يتقبلها كأجر للميت. ويقول الحاضرون "آمين".

وفى الليلة السابعة وهى آخر ليلة مخصصة لقراءة القرآن على روح الميت يجب أن يحضر الجميع بعد القيام بالطهارة والوضوء لهذه المناسبة - حتى لو لم يكن هناك سبب شرعى لهما - وعند انتهاء القراءة يؤدى الجميع صلاة من ركعتين على روح الميت، ويدعو فيها الفقيه لكل الحاضرين ولوالديهم ولأمة محمد أجمعين، الأحياء منهم والأموات. وكان من العادة أن يُقدم لمن يقرأ الدعاء على روح الميت طعاما "من مواد غير مطبوخة". وكان يوصى بالتقشف "لأنه يسمى الطعام المر، إذ أنه آخر طعام يؤكل على روح الميت فى الدنيا".

وفي هذه الليلة - وكلما أديت صلاة في جماعة - كان الاحتفال ينتهي بأن ينهض الفقيه أو من يقوم بدوره ثم ينهض الجميع بعد ذلك ويتوجهون واحدا واحدا ناحية الفقيه فيعانقونه من ناحية اليمين أولا ثم من ناحية اليسار. ويقول الفقيه: "رحمني الله وإياكم وكل الفقهاء ومن يقرءون الكتاب وأمة محمد أجمعين". ويجيب الحاضرون: "رحمك الله"، وبهذا كانت تنتهي الشعائر التي يؤديها الموريسكيون عادة على روح الميت.

هوامش السابع عشر

(١) MBCEH, n III, fol. 87-89 v.

(٢) تجنبا لأن يردد الموريسكيون فى آخر لحظات حياتهم - كمسلمين - صيغة الشهادتين وأن يتخذوا فى فراشهم وضع المصلى طبقا للشريعة، أمرت السلطات المسيحية بالآتى:

"يأمر أحد الأطباء بأن يظل المريض على ظهره وأن يرفع عينيه إلى السماء كإشارة لعبادة الله وأن يعبر فى دعائه - برغبة حارة - عن أمله المسيحى فى الفوز بالمجد الخالد بعد قليل. لا يستند المريض على وجهه فيكون عبداً لمحمد، إذ أن المسلمين عندما يدنوا أجلهم ينامون فى فراشهم على وجوههم لكى يدعوا محمداً وشيطانه بقلوبهم وبكلماتهم حتى يحملهم إليه ما دام لا يستطيع أن يقودهم إلى البيوت السماوية.

انظر: Guerra, Catecheses, fol. III V.

(٣) MBCEH, n III, fol. 88-89 v y 158 v.

Bc en el Me HE, t. V. ps. 299-300.

(٤) انظر صفحة ٨٩ من هذا الكتاب. (يراجع رقم الصفحة)

(٥) Bc en el Me HE, t. V. p. 300.

(٦) كتوضيح وتأكيد للشعائر الموصوفة فى النص تذكر بعض التفاصيل المأخوذة من قائمة استخرجها الدكتور ثاراتى عضو محكمة التفتيش عن الاحتفالات المعمول بها بين الموريسكيين، يقول عنها السيد إدواردو سابيدرا فى:

Discurso de recepcion en la Academia Española, p. 104.

"إلى جانب أمور كثيرة فإن الكتاب يحتوى على كثير من الأخطاء التى تدل على سوء مستوى دراسة الدكتور ثاراتى للعقيدة المحمدية"، ومع أن كتاب الدكتور ثاراتى معيب من حيث التحليل فإنه يحتفظ بقيمته كدليل على عادات الموريسكيين الدينية، يقول: "عندما يموت مسلم فإن أول ما يُصنع معه هو غسل جسده ورأسه وقدميه بالماء وذلك للوضوء ولغسله من الذنوب، ثم يضعون عليه قماشا ابتداء من العنق ثم المعدة وبين الرجلين ثم يعود من الظهر حتى يصل الرأس. ويوضع هذا القماش على الميت حتى لا تبدو عورته أمام الناس عندما يقوم فى الحياة الأخرى. ويؤدى المسلمون احتفال التكفين لا بأمر من القرآن وإنما بأمر من العلماء، فإذا دفن الميت بغير كفن فليس هناك إثم. ثم يُلبسون الميت سروالا وقميصا. وهذا الاحتفال تطوعى، ثم يضعون عليه خمارا كما لو كان حياً، وهو أمر تطوعى أيضا، وبعد ذلك يلفون الجسد كله بملاءة بهن خياطة تثنى بين الرأس والقدمين، وهذا أمر اختيارى كذلك ولا إثم (بتركه)، ولا يأكلون اللحم فى البيت لمدة أسبوع عندما يموت شخص وهذا هو احتفال المسلمين.

يكون غسل الميت بهذا الشكل: أولا تغسل اليدان ثم العورة والوجه والأذنان والأنف والذراعان والقدمان، وهذا يسمى الوضوء الأصغر. وفى أحيان أخرى يغسل كما سبق خاصة الجسد وأظافر اليدين والقدمين، وهذا يسمى الوضوء الأكبر، وهو احتفال إسلامى وأمر شرعى" انظر:

MBN, n 2076 (Sa. G, 138).

(٧) MBN, n 5301 (Sa. Gg, 180) fol. 3.
Bc, en el Me HE, t. V., p. 300

(٨) MBN, n 19474, fol. 74 v.
MBCEH, n LIII, fol. 251 y n L V,fol. 48-56v.
Bc, en el Me HE, t. V., ps. 300-302.

(٩) هنا يجب ذكر اسم الميت.

(١٠) انظر الصفحتين ٥٨-٥٩ من هذا الكتاب.. (يراجع رقم الصفحة)

(١١) انظر الصفحتين ٨٣-١٣٨ من هذا الكتاب.. (يراجع رقم الصفحة)

(١٢) MBN, n 5301 (Sa. Gg, 180), fol. 2v.
Bc, en el Me HE, t. V, p. 302

(١٣) عام ١٥٩٥، قضية خيرونيمو شيكلين، متنصر حديثا، من بلدة الكوديا Alcudia بفالنسيا: أن المذكور قد تواجد مرات كثيرة فى جنازات المسلمين، وأنه قد دفن وعمل حفرات ضيقة ليرقد الميت على جنبه ووجهه ناحية القبلة......" انظر:
MIV, leg. 50, exp. 23 AHN.

يؤكد غيرا دى لوركا فى كتابه المذكور (fol١١٣). أن المسلمين كانوا يضعون بجوار رأس الميت فى القبر بعض العملات حتى لا يخلو جيب المسلم من النقود خلال الطريق الطويل الذى سيسلكه فيضطر للتسوّل، ولا تؤكد المخطوطات الألخميادية المتعلقة بهذه الاحتفالات ولا الحفريات هذا القول، ومن المحتمل أنه خطأ أو تفسير خاطئ لحادث فردى.

(١٤) MBCEH, N VIII, fol. 67 v-69.

(١٥) انظر: الصفحتين ٥٨ - ٥٩ من هذا الكتاب.. (يراجع رقم الصفحة)

(١٦) لم تكن هذه الشعيرة تعرض الموريسكيين لخطر شكواهم إلى محاكم التفتيش كشعائر أخرى نظرا لسهولة التهرب من مراقبة هذا الفعل البسيط. لهذا يقرأ فى مقدمة رسالة الموت: " هذه شهادة رسالة الموت وفضلها للموتى فى كفنهم أو قبرهم طبقا لزمننا هذا ولقدر الحرية الذى نتمتع به. يجب أن توضع عند رأس الميت فى القبر تحت الأرض والله يرى لماذا نفعل ذلك"، انظر:
MBCEH, n VIII, fol. 65 v.

إن نص الشعائر هذا يقويه دليل محفوظ فى وثيقة بمحكمة تفتيش أراغون، تاريخها قريب من تاريخ طرد الموريسكين. يلاحظ فى الوثيقة أنه عند الدفن وبعد أن يبارك القسيس الكاثوليكى القبر، يقترب أحد الموريسكيين من الجثمان لمسه، ومن المحتمل أنه فى تلك اللحظة يضع رسالة الموت فى الكفن. هذا هو نص الوثيقة المشار إليها:

عام ١٦٠٩، التاسع من سبتمبر، شهادة ميغيل مونيبا، مسيحى قديم، من بلدة ريكلا Ricla، أمام الراهب أنطونيو لوبيث... مندوب محكمة التفتيش: "أنهم يعتقدون أن شخصا يدعى خوان لانثيرو، من بلدة ريكلا Ricla، فقيه يطيعه المتنصرون حديثا من بلدة ريكلا لهذه الثقة ويحترمونه جميعا ويحنون رءوسهم له..... وشخصا آخر يدعى فرانثيسكو كريسبو، هما اللذان يقومان بعملية الدفن.... وأن الشاهد رأى أن المدعو فرانثيسكو كريسبو - بعد أن بارك القسيس القبر - قد لمس بيده أكفان المتوفى"، انظر:

MEA, proced. AHS. A-227, tit. Zaragoza: Sobre moriscos. AHN.

وحتى يستطيع الميت الذى يرقد فى القبر أن يجثو على ركبتيه ويجيب على أسئلة الملكين كان المسلمون يتركون فراغا فى القبور، وكانوا يحرصون على عدم حياك الكفن عند الرأس والقدمين، انظر:

MBN, n 2076 (Sa. G, 138).

(١٧) هنا تضيف النصوص جملة "كهيعص" وتكرر كثيرا، إما بمفردها وإما مع جمل أخرى (مشابهة).

(١٨) سنرى فيما يلى كيف انه فى الوقت الحالى لا تزال تمارس فى المغرب نفس الاحتفالات الموصوفة سابقا مع تغييرات طفيفة:

"فى القصر الكبير عندما يموت شخص يقوم أحد الحاضرين من الأقارب بتشبيك إصبعيه الإبهام - أصبعى المتوفى - بشريط ويضع قطعة قماش تحت فكه الأيسر حتى لا يفتح فمه ويغمض عينيه ويوصد باب المكان الذى يوجد به الميت.

وتتوافق عملية الدفن مع إحدى هذه الصلوات: صلاة الظهر أو صلاة العصر أو صلاة المغرب، وقبل حمل الجثمان إلى المدافن بساعة يقوم رجلان أو امرأتان - طبقا لجنس المتوفى - يغسل الجثة كما يقومان بعملية التكفين أيضا فيصنعان لباسا واسعا من نسيج من القطن طوله ١٨ ذراعا، ويصنعان جرابا يلف فيه الجسد ثم يوضع على الجسد طيب. خلال ذلك يحضر.... أقارب المتوفى إلى بيته ويرددون بعض الأدعية، ثم يجتمع الأقارب والأصدقاء فى الشارع انتظاراً لساعة الدفن، وعندما يحين الوقت يُحمل الجثمان فى نعش مغطى بقماش أو براية الجمعية التى ينتمى إليها.

وفى المدافن يوضع النعش بجوار القبر الذى تم تجهيزه، ويؤدى الحاضرون الصلاة المفروضة ساعة الدفن. بعد ذلك يوضع الميت داخل القبر ويخيط طرفا الكفن اللذان يصلان بين الرأس والقدمين، ثم يغطى القبر بالأحجار أو بألواح ويلقى بالتراب فى القبر حتى تتكون كومة تعلوها أحجار"، انظر:

Michaux-Bellaire y Salmon, El-Qcar El Kebir, en Arch Mar. t. II, p. 76.

وفى إقليم Lucus المغربى "عندما تحدث عملية الدفن يقيم أقرباء المتوفى وليمة يذبحون لها خروفا أو خروفين ويوزعون قمحا لعمل الكسكسى، وتشترك فى الوليمة كل جماعات الحى، ويُصنع الكفن من نسيج من القطن، ويقوم الفقيه بغسل الميت ويتلقى عملةً أو عملتين كأجر على هذا العمل، وتكلف أسرة الميت الفقيه بقراءة القرآن على روح الميت وتدفع له - ولمن يعاونه - خمس أو عشر عملات أو عجلا. بعد تكفين الجسد يوضع على نعش...... وإذا كانت المدافن بعيدة يوضع الجثمان على دابة وترافق الجماعة النعش. وعند العودة من المدافن يؤكل الكسكسى، والوقت الذى يمر بين الوفاة والدفن لا يتعدى ثلاث أو أربع ساعات"، انظر:

Michaux - Bellaire y Salmon, Les tribus arabes de la vallée de Lekkous, en Arch. Mar, vol. VI. P.

(١٩) MBCEH, n III, fol. 89-90.

(٢٠) عام ١٥٨٢، قضية دييغو دى أركوس، موريسكى من بلدة طرويل Teruel، شهادة خيل بيريث "متنصر حديثا" من بلدة البرازين Albarracin: "وأدوا جميعا الصلاة فى بيت بيرى ألونسو، ولما كان البيت صغيرا انتقلوا إلى بيت بدرو كابيرو إذ أن به صالة أسفل البيت، ذهبوا ليلا وأغلقوا (الباب) على أنفسهم وراقب البعض مرور من يمكن أن يراهم، وقام الآخرون بالصلاة على الموتى لأن بيرى ألونسو كان قد أحضر من إشبيلية – من طرف عمه فيرناندو ألونسو – سورة acora تتحدث عن الموتى بعد دفنهم بسبع ليال. وهكذا علمهم بيرى ألونسو المذكور ألا يدخل أحد لمدة سبع ليال فى المكان الذى مات فيه شخص. ووضع مائدة عليها أقمشة نظيفة وإناء به ماء لغسل الميت، وأضاء شمعة طوال الليل وسجادة نظيفة لكى يصلى عليها الميت، وأشعل قنديلا فى كل ركن من أركان الحجرة وقرأوا جميعا باللغة العربية: قرأ كل شخص ما يعرفه" انظر: MIV, leg. 49, exp. 1. AHN.

وثائـــق

الوثيقـة الأولى

٣ مايو عام ١٥٦٣

تبسيط الشعائر الإسلامية فى حالة الضرورة
إجابة مفتى وهران على بعض الأسئلة الواردة من الأندلس

إلى إخواننا القابضين على دينهم كالقابضين على الجمر

حافظوا على الصلاة ولو بالإشارة. أدوا الزكاة ولو بالتصدق على الفقراء أو كافتخار، فالله لا ينظر إلى صوركم وإنما إلى قلوبكم. ولكى تتطهروا يمكنكم الاستحمام فى البحر أو النهر، وإذا منعتم من ذلك فتطهروا فى الليل وسيكون لكم أجرا من تطهر فى النهار. تيمموا ولو بلمس الحائط بأيدكم، فإذا لم تتمكنوا من ذلك فحاولوا توجيه نظركم ناحية الأرض أو الحجر الذى يضلح بنيّة أداء التيمم. وإذا أجبرتم على عبادة تماثيل المسيحيين فى أوقات الصلاة فاضمروا نيّة تكبيرة الإحرام وإتمام الصلاة ووجهوا أنظاركم نحو التماثيل حينما يفعل المسيحيون ذلك، ولتتجه نيتكم إلى الله حتى لو لم تتوجه وجوهكم شطر القبلة بنفس طريقة من يؤدى الصلاة وهو فى حالة الحرب ضد العدو.

وإذا أجبرتم على شرب الخمر أو أكل الخنزير فكلوه وطهروا نياتكم واعترفوا بحرمته، وافعلوا ذلك مع أى شىء آخر محرم. إذا زوجوكم من نسائهم فاعتبروا ذلك حلالا، فهن يؤمنّ بدين سماوى. وضّحوا أن هذا الأمر محرم وأنكم تفعلونه مكرهين وأنكم لو استطعتم لغيرتموه[١]. وإذا أجبروكم على الربا فافعلوا وطهروا نياتكم واطلبوا من الله المغفرة. إذا وضعوكم فى كفة الكفر واستطعتم التظاهر بذلك: فافعلوا وارفضوا بقلوبكم ما تؤكدونه بكلماتكم عند الاضطرار، وإذا قيل لكم سبوا محمدا فسبوه قولا وأحبوه بقلوبكم وانسبوا الشر إلى الشيطان أو إلى محمد اليهودى.

إذا قالوا لكم إن عيسى مات مصلوبا، فقولوا إن ذلك تكريم من الله له لكى يرفعه إلى السموات العلى، وفى كل ما يواجهكم من أمور اكتبوا إلى سوس Sus[٢] وسنفعل كل ما فى وسعنا لتوضيح ما غمض عليكم. إنه فى أول رجب عام ٩١٠ من الهجرة. كُتب فى ٣ مايو عام ١٥٦٣ م وسلام الله على المسلمين آمين.

(*) الملاحظ وجود بعض الاختلافات بين هذه الفتوى وفتوى أحمد بو جمعة التى أرسلها من وهران. لعل الجملة التى يقول فيها "اكتبوا إلينا فى سوس دليل على أنها فتوى أخرى غير فتوى بو جمعة". (المترجم)

هوامش الوثيقة الأولى

(١) يصرح الشرع الإسلامى فعلا أن يتزوج المسلم بمسيحية وليس العكس.

MCG T-13, fol. 22 BRAH

(٢) إقليم فى المغرب.

الوثيقة الثانية

٢٢ أغسطس عام ١٦٠٥

استدراك مقدم إلى محكمة تفتيش فالنسيا من خوان بيبى، مسيحى قديم، فرنسى الجنسية، يشهد كيف أن سيده فاكينيت، وهوموريسكى من فالنسيا، كان قد أقنعه بالدخول فى الإسلام وحثه على إقامة الشعائر المحمدية

فى الجلسة المسائية لمحكمة تفتيش فالنسيا فى اليوم الثانى والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٦٠٥ والتى حضرها السيد فادريكى كورنيت المفتش، وبناء على أوامره، جاء إلى المحكمة قادما من السجن السرى رجل أقسم أنه سيقول الحق فى هذه الجلسة وفى كل الجلسات الأخرى التى سيحضرها حتى انتهاء قضيته وأنه سيحافظ على السرية. قال إنه يدعى خوان بيبى، راع يقيم فى بلدة سوت Sot فى منزل ميلون دى كامرا المتنصر حديثا، وقال هذا إنه من مدينة روان Roan بإحدى محافظات مملكة فرنسا[١]. وقال إنه لا يدرى ما عمره ويبدو له أن عمره خمسة وعشرين عاما تقريبا ومظهره يدل على أن عمره يزيد على الثلاثين عاما، وأنه قد ألقى القبض عليه فى أطراف مانثانيرا Mancanera فى مونتيس بلانكو Montes Blanco وأنه يرعى ماشية سيده المذكور وأنه سُجن بالأمس فى السجن السرى لمحكمة التفتيش هذه. وأعلن نسبه وذكر أنه من أصل وسلالة مسيحيين قدامى فرنسيين من مدينة روان.

أن هذا الشاهد قد سُجن لأنه قام بأفعال إسلامية ولما أعطى الزاد الأول قال ما يلي ضد السجين:

قال إن السجين سيقول الحقيقة كاملة لأنه يريد أن يُنقذ ويرى أنه أذنب في حق ربنا الله ويطلب الرحمة، لأنه ندم ولن يعود أبدا إلى الحياة بين الموريسكيين، وأن الحقيقة أنه استقر في مدينة سيغوربي Segorve مع فاكينيت (متنصّر حديثا، من سوت Sot وهو الأكبر بين أخوين يدعيان (فاكينيت)، وإنه لما أمضى وقتا طويلا مع فاكينيت المذكور إذ أنه أمضى معه ست سنوات أحيانا وفي الأوقات التي أمضاها مع متنصّرين حديثا (آخرين) كان يعود للإقامة في بيت فاكينيت، ولما كان المدعو فاكينيت مسلما ويعيش حياة مسلم فقد أقنع الشاهد بأن يكون مسلما وأن يعيش كمسلم لأنه هكذا يُنقذ ولأنه لو عاش كمسيحي لا ينقذ. ورغم أنه كان باستطاعته الرفض وكان له ثلاث سنوات على الإيمان بيسوع إلا أنه كشخص بسيط، اعتقد أنه من الخير أن يكون مسلما وأنه يمكن أن ينقذ باتباع دين المسلمين. وهكذا قبيل عيد الميلاد في العام قبل الماضي..... قرر أن يكون مسلما ووعد فاكينيت بأن يكون مسلما وأن فاكينيت علّمه كيف يغتسل وكيف يؤدي الوضوء أمامه من نبع في سوت وأنه أدى الوضوء بالشكل التالي:

غسل قدميه ويديه ورأسه وعورته دون أن يقول هذا أية كلمة لأنه لا يعرف العربية. بعد ذلك أحضر فاكينيت..... سجادة وقف هذا في منتصفها فقبّلها فاكينيت أولا ثم قبلها هذا بعد ذلك ثلاث مرات، إذ هكذا علمه فاكينيت، وتوجه ناحية طلوع الشمس. رفع رأسه وخفضها ثلاث مرات، وكان فاكينيت يردد بعض الأدعية باللغة العربية، وأن هذا لم يكن يفهمها. وبعد أداء الصلاة انصرف هذا إلى رعي الماشية.

وفي اليوم التالي عند طلوع الشمس أدى الوضوء والصلاة بنفس الطريقة، وكان فاكينيت حاضرا يقول بالعربية أشياء إسلامية. وعندما كان فاكينيت يقوم أو ينخفض كان يجعل هذا يؤدي نفس الحركات. وفي اليوم الثالث في نفس ساعة طلوع الشمس قام هذا بأداء الوضوء والصلاة بنفس الطريقة وفي نفس المكان. وكان فاكينيت يعلّمه ما يجب أن يفعله، وكان فاكينيت يصلي باللغة العربية، وعندما أدى هذا الوضوء

والصلاة ثلاث مرات، أدرك أنه ارتكب ذنبا كبيرا وثقل عليه ما فعل واقترح ألا يعود إلى فعله وأن يكون مسيحيا، وحاول أن يستلم أجرته من سيده المذكور لكي يذهب إلى روما ويعترف بذنبه، ولكنه لم يذهب لأنه لم يقبض راتبه.

ولما سئل عن الأشياء والاحتفالات الأخرى فى طائفة محمد التى قام بها وطلب منه أن يعلن كل شىء دون أن يخفى شيئا، إذ أنه لكى يستريح ضميره و (لحسن) سير قضيته ما دام قد بدأ بالاعتراف فيناسبه أن يقول كل شىء دون أن يخفى شيئا دون شهادة مزورة لنفسه أو لغيره - وهكذا يمكن استعمال الرأفة معه - فقال إنه يود أن يستريح ضميره وسيقول ما يتذكره.

ولما قيل له أن يفكر فى ذلك جيدا هذه الليلة، لأنه يناسبه أن يذكر الحقيقة كلها إذا سئل متى وَعدَ بأن يكون مسلما وأدى الوضوء والصلاة المرات الثلاث التى اعترف بها وما إذا كان يعلم أن الوضوء والصلاة وهذه الاحتفالات تخالف الدين الكاثوليكى المقدس وما إذا كان قد اعتقد أن دين المسلمين دين حسن ويكفى للإنقاذ ودخول الجنة، أجاب بأنه كان يعلم جيدا أن دين المسلمين والوضوء والصلاة مخالفة لشريعة يسوع المسيح ربنا، لكنه لما أمضى فاكينيت المذكور وقتا طويلا فى إقناعه بأن يكون مسلما وبأن دين المسلمين دين حسن وأنه يمكن أن ينقذه ويدخل الجنة باتباعه، ولما كان هو إنسانا بسيطا، فقد اعتقد أن دين المسلمين يكفى لإنقاذه، وهكذا وعد فاكينيت بأن يكون مسلما. وقد أدى كمسلم الوضوء والصلاة ثلاث مرات بنية أن ينقذ عن طريق هذه الاحتفالات، وأنه بعد أن فعل ذلك عاد إلى رشده وثقل عليه ما فعل واقترح أن يعود إلى المسيحية وأن يذهب إلى روما وأن يعيش ويموت مسيحيا على الدين الكاثوليكى المقدس. وقد وُعظ بأن يفكر جيدا فى عمله وأن يقول الحقيقة كاملة حتى يُنقذ وأُمر بأن يعود إلى سجنه السرى.

وقعه الدكتور فادريكى كورنيت المفتش

اطلعت عليه: ب. خوان بيدال الكاتب MIV. AHN.

هوامش الوثيقة الثانية

(١) روان عاصمة نورمانديا Normandia القديمة تتبع إقليم السين الأسفل.

المؤلف فى سطور :

بـدرو لـونغـاس

- حاصل على الدكتوراه من جامعة مدريد المركزية عام ١٩٠٧.
- تتلمذ على يد اثنين من كبار الباحثين الإسبان المتصلين بالثقافة العربية الإسلامية: أسين بالاثيوس وخوليان ريبيرا.
- عمل بقسم المخطوطات بالأكاديمية الملكية للتاريخ.
- له دراسات عديدة تتعلق بالثقافة العربية الإسلامية.

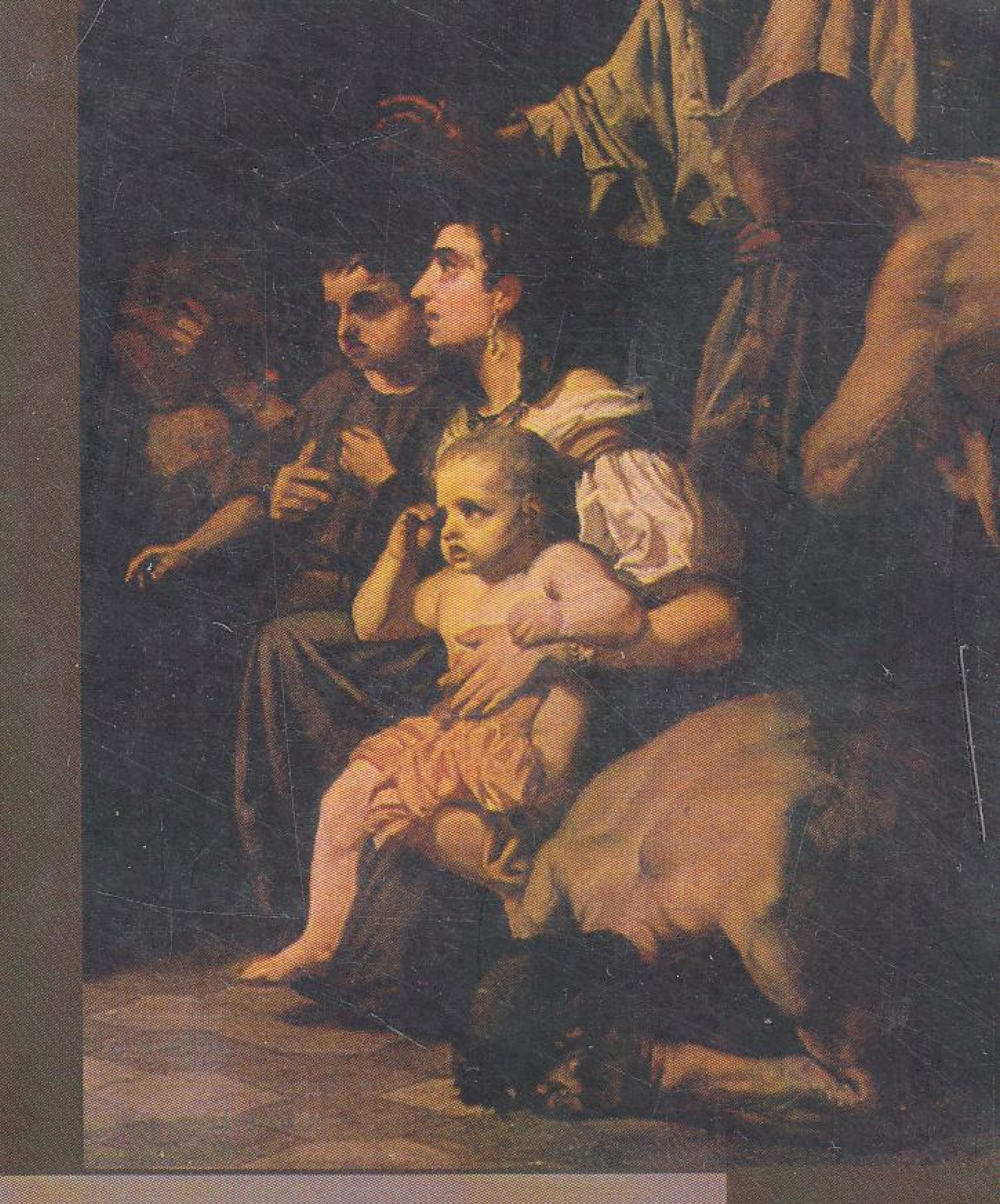
المترجم فى سطور :

جمال أحمد عبد الرحمن

- من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط).
- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩)، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- الدراسات التمهيدية للدكتوراه في جامعتى سلمنكا ومدريد.
- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩).
- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة فى الأدب الإسبانية والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية.

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشـراف الفنـى: حســـن كـــامـل





الكتاب دراسة لبعض المخطوطات الألخميادية، التى تتناول الشعائر الإسلامية وكذلك ملفات محاكم التفتيش التى نظرت قضايا موريسكيين متهمين بممارسة شعائر الإسلام المحظورة بحكم القانون.

استنادا إلى كل هذه الوثائق يشكل لونغاس صورة للحياة الدينية التى مارسها الموريسكيون، ويؤكد أن الموريسكيين ظلوا يمارسون شعائر الإسلام حتى يوم رحيلهم عن إسبانيا.

هذا الكتاب يعرض جانبا آخر من جوانب القضية الموريسكية وهو المتعلق بالأدب الذى حرره مسلمو إسبانيا بلغة إسبانية وبحروف عربية نرى أنه يلقى مزيدا من الضوء على حياة الموريسيكيين ويدعونا إلى قراءة جديدة لتاريخ الإسلام فى الأندلس بعد سقوط غرناطة.

لوحة الغلاف: طرد الموريسكيين للفنان/ فرانشسكو دومينجو ماركيز

تصميم الغلاف: هشام نوار

